عقيدة الإسلام

في رفع سيدنا عيسى ونزوله عليه السلام في آخر الزمان وبعض أشراط الساعة العظام

نصوص ودراسة

تأليف

محمد ضياء الدين الكردي

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

مَطبَعة السَّعَادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ ص ب ١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى استأثر بعلم الساعة ولم يطلع عليها أحداً من خلقه ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أطلعه ربه على أماراتها وأشراطها حتى يكون الناس على بينة من أمرهم ، إذ تأتيهم كل حين آية من ربهم ، تنبههم من غفلتهم ، وتوقظهم من سنتهم ، ليتدبروا أمر القيامة وموقفهم فيها ، وليأخذوا حذرهم حتى لا تبغتهم الساعة وهم عنها غافلون .

بيّن الله تعالى لنا فى كتابه الكريم رفع سيدنا عيسى وأشار إلى نزوله ، واتفقت كلمة المسلمين على ذلك لأن المخبر بالرفع كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أنزل إليه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون أشراط الساعة للناس ، ومنها : نزول سيدنا عيسى حكماً عدلاً مقسطاً يحكم بين الناس بشريعة الإسلام ، وبيّن وقت نزوله وأنه يكون فى عصر المهدى بعد ظهور الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج فى عصره ، وما يكون من أمر قتل سيدنا عيسى للدجال ودعوته على يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله بدعوته .

ثبت هذا كله بالقرآن فيما جاء منه فى القرآن ، كرفع سيدنا عيسى ونزوله ، ويأجوج ومأجوج ، وكذلك ثبت ذلك كله بالسنة وبينه العلماء ، كما ستعرف ذلك أثناء قراءتك لهذا البحث .

ولقد دفعنى إلى كتابة هذا البحث حرصى على عقيدتك أيها المسلم الكريم من قوم عمدوا إلى مخالفة الكتاب والسنة وزعموا أن مخالفتهم مستمدة من

أقوال السلف وسابقي علماء الأمة الذين دان المسلمون لهم بالفضل ، ونسبوا إليهم أقوالا لم تصدر عنهم ولم يقولوا بهـا ، معتمدين فى ذلك على قلة المراجع وندرتها بين يديك وفقدان طبعاتها وارتفاع أسعارها ، لذلك كان لا بد من المواجهـة لهم وتمكينك من كشف زيفهم بأن أضع بين يديك النصوص الدالة على عقيدتك والكاشفة لزيفهم حتى تستبين أمرهم وترسخ فى نفسك عقيدتك التى ذكرها لك كتابك المجيد وبيّنها نبيّك المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وما يشيعونه الآن راجع إلى قلة علم واطلاع على ما جاء فى كتاب الله الكريم وما ذكره العلماء فى تفسيره ، وما جاء فى السنة النبوية ، وما بيّنه علماؤها فى حكم الأحاديث المثبتة لذلك ، وكذلك ما جاء فى كتب العقيدة وذكره أهل الفرق على اختلافهم من التسليم بهذه الأمور .

ولما كان نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان ، وخروج الدجال ، وظهور يأجوج ومأجوج ثابت بالكتاب والسنة ، فقد أجمعت كل الفرق الكلامية على ثبوتها لأنه من السمعيات التى لا مجال للعقل فيها وليست من المسائل المختلف فيها بين مدارس علم الكلام إذ لم ينقل عنهم إنكار شيء من ذلك .

وبمتابعتك لقراءة البحث سوف ترى بنفسك حقيقة الاتفاق على جميع القضايا بين الفرق كلها .

والبحث فى هذا الموضوع العقدى يتطلب دراسة كاملة وواعية لأصول ثلاث :

القرآن وتفسيره .

الحديث النبوى الشريف وبيان تواتره فى هذه المسائل التى هى من قبيل السمعيات ولا يوجد طريق لإثباتها أو إنكارها إلا النص .

ثم كتب العقيدة التي اشتملت على هذه السمعيات والتي لا يمكن أبداً أن تخالف أصولها من الكتاب والسنة ، إذ أن أصحابها على اختلاف فرقهم آمنوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ولا يقبلون لأنفسهم أن يضعوا قول سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم الموحى إليه أمام فكر آخر .

نسأل الله تعالى لنا وللمسلمين أجمعين الحفظ والأمان من الزلل في ديننا ودنيانا وأن يجعلنا من السائرين في ركاب السنة النبوية الملتزمين بها والعاملين على نشرها وبيان عقائدها فيما أمرت به ونهت عنه امتثالاً لأمر ربنا « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

والله ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

ضياء الكردي

عقيدة رفع سيدنا عيسى عليه السلام ونزوله
من القرآن الكريم

جامع البيان فى تفسير القرآن

للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

آيات الرفع : آل عمران ٥٤ — ٥٥

القول[١] فى تأويل قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) يعنى بذلك جل ثناؤه ومكر الذين كفروا من بنى إسرائيل وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر وكان مكرهم الذى وصفهم الله به مواطأة بعضهم بعضاً على الفتك بعيسى وقتله وذلك أن عيسى صلوات الله عليه بعد إخراج قومه إياه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم فيما حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال ثنا أسباط عن السدى ثم إن عيسى سار بهم يعنى بالحواريين الذين كانوا يصطادون السمك فآمنوا به واتبعوه إذ دعاهم حتى أتى بنى إسرائيل ليلا فصاح فيهم فذلك قوله: «فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة» الآية . وأما مكر الله بهم فإنه مما ذكر السدى : إلقاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى وهم يحسبونه عيسى وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك كما حدثنى محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال ثنا أسباط عن السدى ثم إن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»، فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر فأخبروهم أن عيسى قد صعد به إلى السماء فجعلوا يعدون القوم

---

(١) ج ٣ ص ١٨٢ وما بعدها . المطبعة الميمنية القاهرة .

فيجدونهم يفقصون رجلا من العدة ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه فذلك قول الله عز وجل : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم ليبلغ الكتاب أجله كما قد بينا ذلك فى قول الله : «الله يستهزىء بهم » .

القول فى تأويل قوله : (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) يعنى بذلك جل ثناؤه ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم بالله وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم إذ قال الله جل ثناؤه « إنى متوفيك » فإذ صلة من قوله : ومكر الله ، يعنى ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى « إنى متوفيك ورافعك إلى » فتوفاه ورفعه إليه ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الوفاة التى ذكرها الله عز وجل فى هذه الآية .

فقال بعضهم :

هى وفاة نوم وكان معنى الكلام على مذهبهم إنى منيمك ورافعك فى نومك ذكر من قال ذلك: حدثنى المثنى قال ثنا إسحاق قال ثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع فى قوله : « إنى متوفيك » قال معنى وفاة المنام رفعه الله فى منامه قال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود : « إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » .

وقال آخرون : معنى ذلك إنى قابضك من الأرض فرافعك إلى، قالوا ومعنى الوفاة القبض كما يقال: توفيت من فلان مالى عليه بمعنى قبضته واستوفيته قالوا : فمعنى قوله إنى متوفيك ورافعك أى قابضك من الأرض حيا إلى جوارى وآخذك عندى بغير موت ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك . ذكر من قال ذلك: حدثنا على بن سهيل قال ثنا ضمرة بن ربيعة عن أبى شوذب عن

مطر الوراق فى قول الله « إنى متوفيك» قال : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن فى قوله إنى متوفيك . قال متوفيك من الأرض حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج قوله « إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا» قال: فرفعه إياه إليه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا حدثنى المثنى قال ثنا عبد الله بن صالح قال ثنى معاوية بن صالح أن كعب الأحبار قال : ما كان الله عز وجل ليميت عيسى بن مريم إنما بعثه الله داعياً ومبشرا يدعو إليه وحده فلما رأى عيسى قلة من اتبعه وكثرة من كذبه شكى ذلك إلى الله عز وجل فأوحى الله إليه « إنى متوفيك ورافعك إلى » وليس من رفعته عندى ميتا وأنى سأبعثك على الأعور الدجال فتقتله ثم تعيش بعد ذلك أربعا وعشرين سنة ثم أميتك ميتة الحى قال كعب الأحبار وذلك يصدق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (كيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها) . حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير يا عيسى إنى متوفيك أى قابضك .

حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله : « إنى متوفيك ورافعك إلى » قال متوفيك قابضك ، قال ومتوفيك ورافعك واحد . قال ولم يمت بعد حتى يقتل الدجال وسيموت ، وقرأ قول الله عز وجل: «ويكلم الناس فى المهد وكهلا » . قال رفعه الله إليه قبل أن يكون كهلا قال وينزل كهلا . حدثنا محمد بن سنان قال ثنا أبو بكر الحنفى عن عباد عن الحسن قال فى قول الله عز وجل : «ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى» الآية كلها قال رفعه الله فهو عنده فى السماء

وقال آخرون معنى ذلك إنى متوفيك وفاة موت ذكر من قال ذلك: حدثنى

المثنى قال ثنا عبدالله بن صالح قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس قوله «إنى متوفيك» يقول إنى مميتك حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه اليمانى أنه قال: توفى الله عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه. حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق قال: والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه الله وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالى إياك إلى الدنيا وقالوا: هذا من المقدم الذى معناه التأخير والمؤخر الذى معناه التقديم.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال معنى ذلك إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث فى الأرض مدة ذكرها) اختلفت الرواية فى مبلغها (ثم يموت فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه).

حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن مسلم الزهرى عن حنظلة بن على الأسلمى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليهبطن الله عيسى بن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه وليسلكن الروحاء حاجاً أو معتمراً أو يدين بهما جميعا).

حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق عن الحسن بن دينار عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى وأنه خليفتى على أمتى وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأنه شعره يقطر

وان لم يصبه بلل بين ممصرتين[1] يدق الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها ويهلك الله فى زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع فى الأرض الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمر مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيثبت فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى المسلمون عليه ويدفنونه) .

قال أبو جعفر : ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل لم يكن بالذى يميته ميتة أخرى فيجمع عليه ميتتين لأن الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم كما قال جل ثناؤه : «الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء» ، فتأويل الآية إذ قال الله لعيسى يا عيسى إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا فجحدوا نبوتك ، وهذا الخبر وإن كان مخرجه مخرج خبر فإن فيه من الله عز وجل احتجاجاً على الذين حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى من وفد نجران بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما زعموا وأنهم واليهود الذين أقروا بذلك وادعوا على عيسى كذبة فى دعواهم وزعمهم كما حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير ثم أخبرهم يعنى الوفد من نجران ورد عليهم فيما أخبروا هم واليهود بصلبه كيف رفعه وطهره منهم فقال : إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا فإنه يعنى منظفك فمخلصك ممن كفر بك وجحد ما جئتهم به من الحق وسائر الملل غيرها .

حدثنا ابن حميد ثنا سلمة عن ابن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير ومطهرك

---

(١) الممصرة التى فيها صفرة خفيفة ومثله المهرودة . أنظر النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ٤ ص ٩٧ ، ٢٤٦ ، مادتى مصر ، هرد .

من الذين كفروا قال: إذ هموا منك بما هموا حدثنى محمد بن سنان قال ثنا أبو بكر الحنفى عن عباد عن الحسن فى قوله : ومطهرك من الذين كفروا ، قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه .

القول فى تأويل قوله عز وجل (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) يعنى بذلك جل ثناؤه جاعل الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته فوق الذين جحدوا نبوتك وخالف سبيلهم جميع أهل الملل فكذبوا بما جئت به وصدوا عن الإقرار به نصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم كما حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة فى قوله «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة .

حدثنا المثنى قال ثنا إسحق قال ثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع فى قوله وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم ذكر نحوه .

حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج عن ابن جريج وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة قال: ناصر من اتبعك على الإسلام على الذين كفروا إلى يوم القيامة .

حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال ثنا أسباط عن السدى ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة أما الذين اتبعوك فيقال هم المؤمنون وليس هم الروم .

حدثنى محمد بن سنان قال ثنا أبو بكر الحنفى عن عباد عن الحسن وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة قال: جعل الذين اتبعوه فوق الذين

كفروا إلى يوم القيامة قال : المسلمون من فوقهم جعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة .

وقال آخرون : معنى ذلك وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود

ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قول الله: «ومطهرك من الذين كفروا» قال: الذين كفروا من بني إسرائيل وجاعل الذين اتبعوك قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم فوق الذين كفروا النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة قال فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب هم في البلدان كلها مستذلون .

القول في تأويل (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) يعني بذلك جل ثناؤه « ثم إلى » ثم إلى الله أيها المختلفون في عيسى مرجعكم يعني مصيركم يوم القيامة « فأحكم بينكم » يقول فأقضي حينئذ بين جميعكم في أمر عيسى بالحق « فيما كنتم فيه تختلفون » من أمره وهذا من الكلام الذي صرف من الخبر عن الغائب إلى المخاطبة وذلك إن قوله « إلى مرجعكم » إنما قصد به الخبر عن متبعي عيسى والكافرين به وتأويل الكلام « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ثم إلى مرجع الفريقين الذين اتبعوك والذين كفروا بك فأحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ولكن رد الكلام إلى الخطاب لسوق القول على سبيل ما ذكرنا من الكلام الذي يخرج على وجه الحكاية كما قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة .

القول[1] فى تأويل قوله (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم) يعنى بذلك جل ثناؤه وبقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ثم كذبهم الله فى قيلهم فقال وما قتلوه وما صلبوه يعنى وما قتلوا عيسى وما صلبوه ولـكن شبه لهم واختلف أهل التأويل فى صفة التشبيه الذى شبه لليهود فى أمر عيسى .

فقال بعضهم : لما أحاطت اليهود بأصحابه أحاطوا بهم وهم لا يثبتون معرفة عيسى بعينه وذلك أنهم جميعاً حولوا فى صورة عيسى فأشكل على الذين كانوا يريدون قتل عيسى عيسى من غيره منهم وخرج إليهم بعض من كان فى البيت مع عيسى فقتلوه وهم يحسبونه عيسى .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن حميد قال ثنا يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن وهب بن منبه قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت وأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه : من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا فخرج إليهم فقال : أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

وقد روى عن وهب بن منبه غير هذا القول ، وهو ما حدثنى به المثنى قال ثنا إسحق قال ثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال ثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع

---

(١) جـ ٦ ص ٨ .

وهبا يقول : « إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال احضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: ألا من رد على شيئاً الليلة مما أصنع فليس منى ولا أنا منه، فأقروه حتى فرغ من ذلك قال أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى فليكن لكم بى أسوة فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم على لبعض وليبذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسى لكم وأما حاجتى إليكم التى استعنتكم عليها فتدعون لى الله وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء فأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله لا تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها قالوا: والله ما ندرى ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا ولا نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال: يذهب بالراعى وتتفرق الغنم وجعل يأتى بكلام نحو هذا يعنى به نفسه ثم قال: الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحابه فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه فلما أصبح أتى أحد الحواريين اليهود فقال ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح. فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بحبل فجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيى الموتى وتنتهر الشيطان فتبرىء المجنون أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله

إليه وصلبوا ماشبه لهم فمكث سبعاً، ثم أن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال: ماتبكيان؟ قالتا: عليك فقال إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خيرا وإن هذا شيء شبه لهم فأمروا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عن أصحابه فقالوا إنه ندم على ماصنع فاختنق وقتل نفسه فقال: لو تاب لتاب الله عليه ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يحيى فقال هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم.

وقال آخرون: بل سأل عيسى من كان معه في البيت أن يلقى على بعضهم شبهه فانتدب لذلك منهم رجل فألقي عليه شبهه فقتل ذلك الرجل ورفع عيسى بن مريم عليه السلام.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله: «إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه إلى قوله وكان الله عزيزا حكيما» أولئك أعداء الله اليهود اشتهروا بقتل عيسى بن مريم رسول الله، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه وذكر لنا أن نبي الله عيسى بن مريم قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول؟ فقال رجل من أصحابه أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله نبيه ورفعه إليه.

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرازق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: «وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم» قال: ألقي شبهه على رجل من الحواريين فقتل وكان عيسى بن مريم عرض ذلك عليهم فقال: أيكم ألقي شبهي عليه وله الجنة فقال رجل: عليّ.

حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن المفضل قال ثنا أسباط عن السدي

أن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ، فأخذها رجل منهم وصعد عيسى إلى السماء ، فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر ، فأخبروهم أن عيسى عليه السلام قد صعد به إلى السماء ، فجعلوا يعدون القوم فيجدونهم ينقصون رجلا من العدة ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه ، وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه ،فذلك قول الله تبارك وتعالى:«وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم — إلى قوله — وكان الله عزيزاً حكيماً » .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبو حذيفة قال : ثنا شبل عن القاسم بن أبى بزة : أن عيسى بن مريم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ؟ فقال رجل من أصحابه : أنا يا رسول الله ، فألقى عليه شبهه فقتلوه ، فذلك قوله : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبهه لهم .

حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة عن ابن إسحق قال : كان اسم ملك بنى إسرائيل الذى بعث إلى عيسى ليقتله رجلا منهم يقال له : داود ، فلما أجمعوا لذلك منه لم يفظع عبد من عباد الله بالموت فيما ذكر لى فظعه ، ولم يجزع منه جزعه ، ولم يدع الله فى صرفه عنه دعاءه حتى أنه ليقول فيما يزعمون : اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عنى وحتى أن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً ، فدخل المدخل الذى أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة عشر بعيسى ، فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه الحواريين ، وكانوا اثنى عشر رجلا : فطرس ، ويعقوب بن زبدى ، ويحنس أخو يعقوب ، واندرايس ، وفيلس ، وابرثلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوسيس ، وفقاتيا ، ويودس أوكريا يوطا . قال

ابن حميد : قال ابن إسحاق : وكان فيهم فيما ذكر لى رجل اسمه سرجس ، فكانوا ثلاثة عشر رجلا سوى عيسى جحدته النصارى ، وذلك الذى شبه لليهود مكان عيسى قال : فلا أدرى ماهو من هؤلاء الاثنى عشر أم كان ثالث عشر فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الخبر عنه وإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر ، وإن كانوا اثنى عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوها وهم بعيسى ثلاثة عشر .

حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال : ثنى رجل كان نصرانياً فأسلم : أن عيسى حين جاءه من الله : إنى رافعك إلىّ. قال : يا معشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقى فى الجنة على أن يشبه للقوم فى صورتى فيقتلوه مكانى ؟ قال سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس فى مجلسى ، فجلس فيه ورفع عيسى صلوات الله عليه ، فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه ، وكان هو الذى صلبوه وشبه لهم به ، فكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة قد رأوهم وأحصوا عدتهم ، فلما دخلوا عليه ليأخذوه وجدوا عيسى فيما يرون وأصحابه وفقدوا رجلا من العدة فهو الذى اختلفوا فيه ، وكانوا لا يعرفون عيسى حتى جعلوا ليودس أوكريايوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه ، وقال لهم : إذا دخلتم عليه فإنى سأقبله وهو الذى أقبل فخذوه ، فلما دخلوا عليه وقد رفع عيسى رأى سرجس فى صورة عيسى فلم يشكك أنه هو عيسى فأكب عليه يقبله فأخذوه فصلبوه ، ثم أن يودس أوكريايوطا ندم على ما صنع فاختنق بحبل حتى قتل نفسه ، وهو ملعون فى النصارى ، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه ، وبعض النصارى تزعم أن يودس أوكريايوطا هو الذى شبه لهم فصلبوه ، وهو يقول : إنى لست بصاحبكم أنا الذى دللتكم عليه ، والله أعلم ذكر من قال ذلك

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين قال : ثنى حجاج قال : قال ابن جريج : بلغنا أن عيسى بن مريم قال لأصحابه : أيكم ينتدب فيلقى عليه شبهى فيقتل ؟ فقال رجل من أصحابه : أنا يا نبى الله ، فألقى عليه شبهه فقتل ، ورفع الله نبيه إليه .

حدثنا محمد بن عمرو قال : ثنا أبو عاصم قال : ثنا عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (شبه لهم) قال : صلبوا رجلا غير عيسى يحسبونه إياه .

حدثنى المثنى قال : ثنا أبو حذيفة قال : ثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد : ولكن شبه لهم ، فذكر مثله .

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين قال : ثنى حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : صلبوا رجلا شبهوه بعيسى يحسبونه إياه ورفع الله إليه عيسى عليه السلام حيا .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب أحد القولين اللذين ذكرناهما عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان فى البيت مع عيسى حين أحيط به وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك ، ولكن ليخزى الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عليه السلام من مكروه ما أرادوا به من القتل ويبتلى به من أراد ابتلاءه من عباده فى قيله فى عيسى ، وصدق الخبر عن أمره والقول الذى رواه عبد العزيز عنه ، وإنما قلنا ذلك أولى القولين لأن الذين شهدوا عيسى من الحواريين لو كانوا فى حال مارفع عيسى وألقى شبهه على من ألقى عليه شبهه كانوا قد عاينوا عيسى وهو يرفع من بينهم وأثبتوا الذى ألقى عليه شبهه وعاينوه متحولا فى صورته بعد الذى كان به من صورة نفسه بمحضر منهم لم يخف ذلك من أمر عيسى وأمر من ألقى عليه شبهه عليهم مع معاينتهم

ذلك كله ولم يلتبس ولم يشكل عليهم ، وإن أشكل على غيرهم من أعدائهم من اليهود أن المقتول والمصلوب كان غير عيسى ، وأن عيسى رفع من بينهم حياً وكيف يجوز أن يكون كان أشكل ذلك عليهم ، وقد سمعوا من عيسى مقالته : من يلقى عليه شبهى ويكون رفيقى فى الجنة إن كان ذلك وسمعوا جواب مجيبه منهم أنا وعاينوا تحول المجيب فى صورة عيسى بعقب جوابه ، ولكن ذلك كان إن شاء الله على ما وصف وهب بن منبه : أما أن يكون القوم الذين كانوا مع عيسى فى البيت الذى رفع منه من حوارييه حولهم الله جميعاً فى صورة عيسى حين أراد الله رفعه فلم يثبتوا عيسى معرفة بعينه من غيره لتشابه صورة جميعهم ، فقتلت اليهود منهم من قتلت وهم يرونه بصورة عيسى ويحسبونه إياه لأنهم كانوا به عارفين قبل ذلك ، وظن الذين كانوا فى البيت مع عيسى مثل الذى ظنت اليهود لأنهم لم يميزوا شخص عيسى من شخص غيره لتشابه شخصه وشخص غيره ممن كان معه فى البيت ، فاتفقوا جميعهم أعنى اليهود والنصارى من أجل ذلك على أن المقتول كان عيسى ولم يكن به ولكنه شبه لهم كما قال الله جل ثناؤه : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » أو يكون الأمر كان فى ذلك على نحو ما روى عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه : أن القوم الذين كانوا مع عيسى فى البيت تفرقوا عنه قبل أن يدخل عليه اليهود وبقى عيسى وألقى شبهه على بعض أصحابه الذين كانوا معه فى البيت بعدما تفرق القوم غير عيسى وغير الذى ألقى شبهه عليه ورفع عيسى فقتل الذى تحول فى صورة عيسى من أصحابه ، وظن أصحابه واليهود أن الذى قتل وصلب هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفاء أمر عيسى عليهم لأن رفعه وتحول المقتول فى صورته كان بعد تفرق أصحابه عنه وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل ينعى

نفسه ويحزن لما قد ظن أنه نازل به من الموت ، فحكوا ما كان عندهم حقاً ، والأمر عند الله فى الحقيقة بخلاف ما حكوا فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حوارييه أن يكونوا كذبة أو حكوا ما كان حقاً عندهم فى الظاهر وأن الأمر كان عند الله فى الحقيقة بخلاف الذى حكوا .

القول فى تأويل قوله : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً » يعنى جل ثناؤه بقوله : وإن الذين اختلفوا فيه اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله ، وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من فى البيت قبل دخولهم فيما ذكر ، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحداً منهم فالتبس أمر عيسى عليهم بفقدهم واحداً من العدة التى كانوا قد أحصوها وقتلوا من قتلوا على شك منهم فى أمر عيسى ، وهذا التأويل على قول من قال : لم يفارق الحواريون عيسى حتى رفع ودخل عليهم اليهود ، وأما تأويله على قول من قال : تفرقوا عنه من الليل فإنه وإن الذين اختلفوا فى عيسى هو الذى بقى فى البيت منهم بعد خروج من خرج منهم من العدة التى كانت فيه أم لا فى شك منه يعنى قتله لأنهم كانوا أحصوا من العدة حين دخلوا البيت أكثر ممن خرج منه ومن وجد فيه ، فشكوا فى الذى قتلوه ، هل هو عيسى أم لا ، من أجل فقدهم من فقدوا من العدد الذين كانوا أحصوه ، ولكنهم قالوا : قتلنا عيسى لمشابهة المقتول عيسى فى الصورة ، يقول الله جل ثناؤه : « ما لهم به من علم » يعنى أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ، واختلاف هل هو عيسى أم هو غيره ؟ « إلا إتباع الظن » يعنى جل ثناؤه ما كان لهم لمن قتلوه علم ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه ظناً منهم أنه عيسى وأنه الذى يريدون قتله ولم يكن به « وما قتلوه يقيناً » يقول : وما قتلوا هذا الذى اتبعوه فى المقتول الذى قتلوه وهم يحسبونه عيسى يقيناً أنه عيسى ولا أنه

غيره ، ولكنهم كانوا منه على ظن وشبهة ، وهذا كقول الرجل للرجل : ما قلت هذا الأمر علماً وما قلته يقيناً إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين علم ، فالهاء فى قوله « وما قتلوه » عائد على الظن وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى قال : ثنا عبد الله بن صالح قال : ثنى معاوية عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله « وما قتلوه يقيناً » قال : يعنى لم يقتلوا ظنهم يقيناً .

حدثنى المثنى قال : ثنى إسحق قال : ثنا يعلى بن عبيد ، عن جويبر فى قوله « وما قتلوه يقيناً » قال : ما قتلوا ظنهم يقيناً .

وقال السدى فى ذلك ما حدثنا محمد بن الحسين قال : ثنا أحمد بن مفضل قال : ثنا أسباط عن السدى « وما قتلوه يقيناً » وما قتلوا أمره يقيناً إن الرجل هو عيسى بل رفعه الله إليه .

القول فى تأويل قوله « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » وأما قوله جل ثناؤه : « بل رفعه الله إليه » فإنه يعنى بل رفع الله المسيح إليه ، يقول : لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن الله رفعه إليه فطهره من الذين كفروا ، وقد بينا كيف كان رفع الله إياه إليه فيما مضى ، وذكرنا اختلاف المختلفين فى ذلك ، والصحيح من القول فيه بالأدلة الشاهدة على صحته بما أغنى عن إعادته ، وأما قوله « وكان الله عزيزاً حكيماً » فإنه يعنى ولم يزل الله منتقماً من أعدائه كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة لظلمهم وكلعنة الذين قص قصتهم بقوله : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله » حكيماً يقول

ذا حكمة فى تدبيره وتصريفه خلقه فى قضائه ، يقول : فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء من حلول عقوبتى بكم كما حل بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم فى تكذيبكم رسلى وافترائكم على أوليائى ، وقد حدثنا أبو بكر قال : ثنا محمد بن الحسن بن أبى سارة الرواسى ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قول الله « غفوراً رحيماً وكان الله عزيزاً حكيماً » قال : معنى ذلك أنه كذلك .

القول[(١)] فى تأويل قوله « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد» وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول عيسى يقول: ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به من القول أن أقوله لهم وهو إن قلت لهم اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ، يقول : وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم على أفعالهم وأقوالهم « فلما توفيتنى » يقول . فلما قبضتنى « إليك كنت أنت الرقيب عليهم » يقول : كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ؛ لأنى إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم ، فى هذا تبيان أن الله تعالى إنما عرفه أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه وتوفاه ، يقول : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله « وأنت على كل شىء شهيد » يقول : وأنت تشهد على كل شىء ، لأنه لا يخفى عليك شىء ، وأما أنا فإنما شهدت بعض الأشياء ، وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم فإنما أنا أشهد على ذلك الذى عاينت ورأيت وشهدت بنحو الذى قلنا فى قوله « كنت أنت الرقيب عليهم » ، قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن الحسين قال : ثنا أحمد بن مفضل قال : ثنا أسباط عن السدى : « كنت أنت الرقيب عليهم » أما الرقيب فهو الحفيظ .

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين قال : ثنى حجاج عن ابن جريج : « كنت أنت الرقيب عليهم » قال : الحفيظ .

---

(١) جـ ٧ ص ٨٤

وكانت جماعة من أهل العلم تقول : كان جواب عيسى الذى أجاب به ربه من الله تعالى توفيقا منه له فيه .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن وكيع قال : ثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » قال: سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . قال : الله وفقه .

حدثنا ابن وكيع قال : ثنا أبو داود الجفرى قال : قرىء على سفيان عن معمر ، عن طاوس ، عن أبيه طاوس قال : احتج عيسى والله وفقه « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » الآية .

حدثنا ابن وكيع قال : ثنا جرير عن عطاء ، عن ميسرة قال : قال الله تعالى : « يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » قال : فأرعدت مفاصله وخشى أن يكون قد قالها فقال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب .

النساء ١٥٩

القول[1] فى تأويل قوله (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)
اختلف أهل التـأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم : معنى ذلك : وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به يعنى بعيسى قبل موته يعنى قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل يقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة وهى ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار قال ثنا عبد الرحمن قال ثنا سفيان عن أبى حصين عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال: موت عيسى بن مريم.

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبى عن سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى .

حدثنى يعقوب بن ابراهيم قال ثنا هشيم قال أخبرنا حصين عن أبى مالك فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : ذلك عند نزول عيسى بن مريم لا يبقى أحد من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به .

حدثنى المثنى قال ثنا المنهال قال ثنا حماد بن سـلمة عن حميد عن الحسن قال (قبل موته) قبل أن يموت عيسى بن مريم .

حدثنى يعقوب قال ثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن فى قوله (وإن من

---

(١) جـ ٦ ص ١٢

أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحى عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يقول : قبل موت عيسى .

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى .

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى إذا نزل آمنت به الأديان كلها .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن الحسن قال : قبل موت عيسى .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبو أسامة عن عوف عن الحسن (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : عيسى ولم يمت بعد .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا عمران بن عيينة عن حصين عن أبى مالك قال : لا يبقى أحد منهم عند نزول عيسى إلا آمن به .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبى عن سفيان عن حصين عن أبى مالك قال : قبل موت عيسى .

حدثنا يونس قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : إذا نزل عيسى بن مريم فقتل الدجال لم يبق يهودى فى الأرض إلا آمن به . قال : وذلك حين لا ينفعهم الإيمان .

حدثني محمد بن سعد قال ثني أبي قال ثني عمي قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعني أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى فيؤمنون به (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) .

حدثنا محمد بن المثنى قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في هذه الآية (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال أبو جعفر : أظنه أنا قال إذا خرج عيسى آمنت به اليهود .

وقال آخرون : معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه :

حدثني المثنى قال ثنا عبد الله بن صالح قال ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا ثنا جرير عن منصور عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى وإن غرق أو تردى من حائط وأي ميتة كانت .

حدثني محمد بن عمرو قال ثنا أبو عاصم قال ثنا عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) كل صاحب كتاب (ليؤمنن به) بعيسى (قبل موته) موت صاحب كتاب.

حدثني المثنى قال ثنا أبو حذيفة قال ثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (ليؤمنن به) كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موت صاحب الكتاب. قال ابن عباس : لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن حميد قال ثنا أبو تميلة قال ثنا يحيى بن واضح قال ثنا الحسين ابن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس قالا : لا يموت اليهودى حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح .

حدثنى إسحاق بن ابراهيم بن حبيب بن الشهيد قال ثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : هى فى قراءة أبى قبل موتهم ، ليس يهودى يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى . قيل لابن عباس : أرأيت إن خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به فى الهواء . فقيل : أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم ؟ قال : تلجلج بها لسانه .

حدثنى المثنى قال ثنى أبو نعيم قال ثنا سفيان عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت يهودى حتى يؤمن بعيسى ابن مريم وإن ضرب بالسيف تكلم به . قال : وإن هوى تكلم به وهو يهوى .

حدثنا ابن المثنى قال ثنى محمد بن جعفر قال ثنا شعبة عن أبى هارون الغنوى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : فى هذه الآية (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لو أن يهوديا وقع من فوق البيت لم يمت حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن المثنى قال ثنى عبد الصمد قال ثنا شعبة عن مولى لقريش قال : سمعت عكرمة يقول : لو وقع يهودى من فوق القصر لم يبلغ إلى الأرض حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن بشار قال ثنا عبد الرحمن قال ثنا سفيان عن أبى هاشم الرمانى عن

مجاهد (ليؤمنن به قبل موته) قال : وإن وقع من فوق البيت لا يموت حتى يؤمن به .

حدثنا ابن حميد قال ثنا حكام عن عمرو بن أبى قيس عن منصور عن مجاهد (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت رجل من أهل الكتاب حتى يؤمن به وإن غرق أو تردى أو مات بشىء .

حدثنى يعقوب بن ابراهيم قال ثنا ابن عليه عن ليث عن مجاهد فى قوله : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا تخرج نفسه حتى يؤمن به .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا سفيان عن خصيف عن عكرمة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت أحدهم حتى يؤمن به يعنى بعيسى وإن خر من فوق بيت يؤمن به وهو يهوى

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبو خالد الأحمر عن جويبر عن الضحاك قال : ليس أحد من اليهود يخرج من الدنيا حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبى عن إسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى يعنى اليهود والنصارى .

حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا إسرائيل عن فرات عن الحسن فى قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت .

حدثنا ابن بشار قال ثنا عبد الرحمن قال ثنا الحكم بن عطية عن محمد بن سيرين (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : موت الرجل من أهل الكتاب .

حدثنا محمد بن الحسين قال ثنا أحمد بن مفضل قال ثنا أسباط عن السدى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال: قال ابن عباس: ليس من يهودى ولا نصرانى يموت حتى يؤمن بعيسى بن مريم، فقال له رجل من أصحابه: كيف والرجل يغرق أو يحترق أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع؟ فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الإيمان بعيسى.

حدثت عن الحسين بن الفرج قال سمعت أبا معاذ يقول أخبرنا عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول فى قوله: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال: ولا يموت أحد من اليهود حتى يشهد أن عيسى روح الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنى المثنى قال ثنا إسحاق قال ثنا يعلى عن جويبر فى قوله: «ليؤمنن به قبل موته» قال: فى قراءة أبى: قبل موتهم. وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابى

ذكر من قال ذلك.

حدثنى المثنى قال ثنا الحجاج بن المنهال قال ثنا حماد عن حميد قال: قال عكرمة: لا يموت النصرانى واليهودى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم يعنى فى قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته).

قال أبو جعفر وأولى الأقوال بالصحيح والصواب قول من قال تأويل ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بحكم أهل الإيمان فى الموارثة والصلاة عليه وإلحاق صغار أولاده بحكمه فى الملة

فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته لوجب أن لا يرث الكتابي إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار أو البالغون منهم من أهل الإسلام إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم كان يكون ميراثه مصروفا حيث يصرف إليه مال المسلم يموت ولا وارث له وأن يكون حكمه حكم المسلمين فى الصلاة عليه وغسله وتقبيره لأن من مات مؤمناً بعيسى فقد مات مؤمناً بمحمد وبجميع الرسل وذلك أن عيسى صلوات الله عليه جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين فالمصدق بعيسى والمؤمن به مصدق بمحمد وبجميع أنبياء الله ورسله كالمؤمن بمحمد مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله فغير جائز أن يكون مؤمنا بعيسى من كان مكذبا فإن ظن ظان أن معنى إيمان اليهودى بعيسى الذى ذكره الله فى قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) إنما هو إقراره بأنه لله نبى مبعوث دون تصديقه بجميع ما أتى به من عند الله فقد ظن خطأ، وذلك غير جائز أن يكون منسوبا إلى الإقرار بنبوة نبى من كان له مكذبا فى بعض ما جاء به من وحى الله وتنزيله بل غير جائز أن يكون منسوبا إلى الإقرار بنبوة نبى من كان له مكذبا فى بعض ما جاء به من وحى الله وتنزيله بل غير جائز أن يكون منسوبا إلى الإقرار بنبوة أحد من أنبياء الله لأن الأنبياء جاءت الأمم بتصديق جميع أنبياء الله ورسله فالمكذب بعض أنبياء الله فيما أتى به من أمته من عند الله مكذب جميع أنبياء الله فيما دعوا إليه من دين الله عباد الله وإذ كان ذلك وكذلك وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين على أن كل كتابى مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه وما جاء به من عند الله فمحكوم به بحكم المسألة التى كان عليها أيام حياته ، غير منقول شىء من أحكامه فى نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته عما كان عليه فى حياته أدل الدليل على أن معنى قول الله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) إنما معناه إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وإن كان ذلك فى خاص من أهل الكتاب ومعنى به أهل زمان منهم دون أهل كل الأزمنة التى كانت

بعد عيسى وإن ذلك كان عند نزوله كالذى حدثنى بشر بن معاذ قال ثنى يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإنى أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصرتين فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها غير الإسلام ويهلك الله فى زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمنة فى الأرض فى زمانه حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الغلمان والصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضا ثم يلبث فى الأرض ما شاء الله وربما قال أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه .

وأما الذى قال عنى بقوله (ليؤمنن به قبل موته) ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابى فمما لا وجه له مفهوم لأنه مع فساده من الوجه الذى دللنا على فساد قول من قال عنى به ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابى يزيد فسادا أنه لم يجر لمحمد عليه السلام فى الآيات التى قبل ذلك ذكر فيجوز صرف الهاء إلى قوله (ليؤمنن به) إلى أنها من ذكره وإنما قوله (ليؤمنن به) فى سياق ذكر عيسى وأمه واليهود فغير جائز صرف الكلام عما هو فى سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به حجة . فأما الدعاوى فلا تتعذر على أحد فتأويل الآية إذ كان الأمر على ما وصفت وما من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وحذف من بعد إلا لدلالة الكلام عليه فاستغنى بدلالته من إظهاره كسائر ما قد تقدم من أمثاله التى قد أتينا البيان عنها .

القول فى تأويل قوله (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا)

يعنى بذلك جل ثناؤه : ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب شهيداً يعنى شاهدا عليهم بتكذيب من كذبه منهم وتصديق من صدقه منهم وبما أتاهم به من عند الله وبإبلاغه رسالة ربه كالذى حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنى حجاج قال قال ابن جريج (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أن قد أبلغهم ما أرسله به إليهم .

حدثنا بشر بن معاذ قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يقول يكون عليهم شهيدا يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه .

الزخرف ٦١

القول[1] فى تأويل قوله تعالى (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

اختلف أهل التأويل فى الهاء التى فى قوله (وإنه) ، وما المعنى بها ومن ذكر ما هى :

فقال بعضهم : هى من ذكر عيسى وهى عائدة عليه ، وقالوا : معنى الكلام : وأن عيسى ظهوره علم يعلم به مجىء الساعة لأن ظهوره من أشراطها ونزوله إلى الأرض دليل على فناء الدنيا وإقبال الآخرة .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار قال : ثنا عبد الرحمن قال : ثنا سفيان ، عن عاصم ، عن أبى رزين ، عن يحيى ، عن ابن عباس (وإنه لعلم للساعة) قال : خروج عيسى بن مريم .

حدثنا ابن المثنى قال : ثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن عاصم عن أبى رزين عن ابن عباس بمثله ، إلا أنه قال : نزول عيسى بن مريم .

حدثنى محمد بن إسماعيل الأحمسى قال : ثنا غالب بن قائد قال : ثنا قيس عن عاصم عن أبى رزين عن ابن عباس : أنه كان يقرأ (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم .

حدثنا أبو كريب قال : ثنا ابن عطية عن فضيل بن مرزوق عن جابر قال كان

---

(١) ج ٢٥ ص ٤٨

ابن عباس يقول : ما أدرى علم الناس بتفسير هذه الآية ألم يفطنوا لها (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم .

حدثنى محمد بن سعد قال : ثنى أبى قال : ثنى عمى قال : ثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم .

حدثنى يعقوب قال : ثنا هشيم قال : أخبرنا حصين عن أبى مالك ، وعوف عن الحسن أنهما قالا فى قوله (وإنه لعلم للساعة) قالا : نزول عيسى بن مريم وقرأها أحدهما (وإنه لعلم للساعة) .

حدثنا محمد بن عمرو قال : ثنا أبو عاصم قال : ثنا عيسى .

وحدثنى الحرث قال : ثنا الحسن قال : ثنا ورقاء جميعاً عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قوله (وإنه لعلم للساعة) قال : آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة .

حدثنا بشر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قتادة (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم علم للساعة القيامة .

حدثنا ابن عبد الأعلى قال : ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة فى قوله (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم علم للساعة .

حدثنا محمد قال : ثنا أحمد قال : ثنا أسباط عن السدى (وإنه لعلم للساعة) قال : خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة .

حدثت عن الحسين قال : سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (وإنه لعلم للساعة) يعنى خروج عيسى بن مريم ونزوله من السماء قبل يوم القيامة .

حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله (وإنه لعلم للساعة) قال : نزول عيسى بن مريم علم للساعة حين ينزل .

وقال آخرون : الهاء التى فى قوله (وإنه) من ذكر القرآن . وقالوا : معنى

الـكلام وإن هذا القرآن لعلم للساعة يعلمكم بقيامها ويخبركم عنها وعن أهوالها .

ذكر من قال ذلك :

حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول (وإنه لعلم للساعة) هذا القرآن .

حدثنا ابن عبد الأعلى قال ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة قال كان ناس يقولون : القرآن علم للساعة واجتمعت قراء الأمصار فى قراءة قوله (وإنه لعلم للساعة) على كسر العين من العلم. وروى عن ابن عباس ما ذكرت عنه فى فتحها وعن قتادة والضحاك والصواب من القراءة فى ذلك الكسر فى العين لإجماع الحجة من القراء عليه وقد ذكر أن ذلك فى قراءة أبى (وإنه لذكر للساعة) فذلك مصحح قراءة الذين قرءوا بكسر العين من قوله (لعلم) وقوله (فلا تمترن بها) يقول فلا تشكن فيها وفى مجيئها أيها الناس .

كما حدثنا محمد قال ثنا أسباط عن السدى (فلا تمترن بها) فلا تشكون فيها، وقوله (واتبعون) يقول تعالى ذكره وأطيعون فاعملوا بما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه (هذا صراط مستقيم) يقول اتباعكم إياى أيها الناس فى أمرى ونهيى صراط مستقيم يقول طريق لا اعوجاج فيه بل هو قويم .

تعقيب ...

الآن وقد قرأت ما جاء فى تفسير ابن جرير الطبرى فى الآيات ـ وهو كما عرفنا أول ما دون من التفاسير وقام على المأثور ـ نجد أنه لم يشذ عن القول برفع عيسى بروحه وجسده ونزوله أحد من الصحابة، ولا من أتى بعدهم من التابعين، وأن ما نقله علماء أهل الكتاب الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وشهد لهم بالعدالة رجال الجرح والتعديل من علماء الحديث وحكموا بالثقة فيهم، والأخذ عنهم من الكتب السابقة التى درسوها وعرفوا ما فيها يثبتون الرفع

وتجد كذلك وثاقة الصلة بين قوله تعالى «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين» وبين قوله تعالى «إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك» فـ «إذ» صلة بين قوله تعالى «ومكر الله» يعنى ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى: «إنى متوفيك ورافعك إلى» فتوفاه ورفعه إليه، فـ «إذ» ظرفية.

وأما قول ابن عباس الثانى «إنى متوفيك» يقول: إنى مميتك، فاعلم أن ابن عباس أو غيره من السابقين، الصحابة ومن بعدهم، عندما يطلقون هذا اللفظ «الموت» لا يريدون به إلا الموت بعد نزوله آخر الزمان، فالآية على أحد معنيين: التقديم والتأخير، أو الموت عدة ساعات، كما روى عن أصحاب الأخرين: أن الله تعالى توفى عيسى ثلاث ساعات أو سبع ساعات حتى رفعه ولا تظنن غير ذلك، فإن على بن طلحة راوى هذه الرواية هو نفسه الذى روى قول ابن عباس: «وما قتلوه يقيناً» قال: يعنى لم يقتلوا ظنهم يقيناً، فالجميع كما رأيت من هذا التفسير يثبتون الرفع، فإذا تحدث أحدهم عن الموت فلا تحملن كلامه على التناقض، بل اجمع بين أقواله تجد أنه لا معنى إلا الرفع.

ولذا قال الطبرى : (ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إنى متوفيك ورافعك فتوفاه الله ورفعه إليه ، ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الوفاة التى ذكرها الله عز وجل فى هذه الآية) .

أقول هذا مبيناً ، وأتركك بعد ذلك للنصوص لتعيشها ، وسوف تتبين صحة ما قلته لك ، ومدى قوة أو ضعف هذه الرواية عن ابن عباس ، وأن فيما قرأته من رواية عنه فى نزول عيسى عند قوله تعالى « وإنه لعلم للساعة » وقراءته « لعلم » بفتحتين غناء عن كثرة القيل والقال والبيان والتبيان .

ومن قراءتنا لما قدمه الطبرى فى تفسيره نخرج بنتيجة واحدة هى أن الرفع بالروح والجسد لم يكن موضع خلاف بين الصحابة ولا بين من أتى من بعدهم حتى عصر التدوين ، وإنما كان فى الطريقة التى تم بها الرفع : هل رفع فى حال يقظته ؟ أو فى حال نومه ؟ أو أماته الله عدة ساعات حتى رفعه ؟ . وقد اختار الطبرى الرفع حال اليقظة، إذ هو المفهوم من القرآن والسنة وهو الصحيح لأن الآية تدل عليه والنزول يثبته ، ثم إن الطبرى يجعل آية النزول ، وهى قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) نصاً فى نزول عيسى وهو الصحيح . وهذا ما جعل الحسن البصرى يقسم عليه ، وما كان الحسن ليقسم على شىء يقول فيه برأيه ، فقسمه قائم على ما سمع ـ وقد رواه مرفوعاً وموقوفاً عليه ـ وهو يعطى التأكيد من حديث النزول الذى يجعلنا نجزم بأنه قد سمع من أصحاب رسول الله معنى الآية ، وكذلك أصحاب النبى الذين سمع منهم سمعوا من نبيهم صلى الله عليه وسلم ، إذ الرفع والنزول غيب ، فالقول فيه بالرأى ضلال وبدعة وخروج عن الدين ، وحاشا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا كذلك فهم العدول الذين لا يقولون فيما غاب عنهم إلا بقول المعصوم الذى آمنوا به واتبعوه .

تفسير أبى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ

آيات الرفع

آل عمران : ٥٤ — ٥٥

ثم قال(١) : (ومكروا) يعنى أرادوا قتل عيسى (ومكر الله) يعنى : جازاهم جزاء المكر (والله خير الماكرين) ، لأن مكرهم جور ومكر الله عدل . وقال الكلبى : لأن اليهود أرادوا قتل عيسى واجتمعوا عليه ، فدخل عيسى البيت هارباً منهم ، فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء ، كما قال تعالى فى آية أخرى : (وأيدناه بروح القدس) ، فقال ملكهم لرجل خبيث يقال له يهوذا : ادخل عليه فاقتله ، فدخل الرجل الخوخة ، فلم يجد هناك عيسى ، وألقى الله تعالى شبه عيسى عليه ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى ، فأخذوه وقتلوه وصلبوه ، ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فأين عيسى ؟ . فوقع بينهم القتال ، فقتل بعضهم بعضاً ، فذلك قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وقال الضحاك : كانت القصة أن اليهود لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم اثنى عشر رجلا ، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبر إبليس جميع اليهود ، فركب منهم أربعة آلاف فأحدقوا بالغرفة ، فقال المسيح للحواريين : أيكم يخرج فيقتل وهو معى فى الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا يا نبى الله ، فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى ، فخرج على اليهود ، فقتلوه وصلبوه ، وأما المسيح فألبسه الله تعالى الريش وكساه النور وقطع لذة المأكل والمشرب ،

---

(١) ورقة ١٠١ مخطوط رقم ٣ تفسير .

فطار مع الملائكة . وقوله عز وجل : (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) وفى الآية تقديم ومعناه : إنى رافعك من الدنيا إلى السماء ، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال ، ويقال : إنه ينزل ويتزوج امرأة من العرب بعدما يقتل الدجال ، فتموت ابنته ثم يموت هو بعدما يعيش سنتين ، لأنه يسأل ربه أن يجعله من هذه الأمة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه جاء إلى الكتاب وقال للمعلم : قل للصبيان حتى يسكتوا فلما سكتوا قال لهم : أيها الصبيان من عاش منكم إلى وقت نزول عيسى عليه السلام فليقرأ عليه منى السلام وإنى كنت أرجو أن لا أخرج من الدنيا حتى أراه . وقوله تبارك وتعالى : (ومطهرك) يعنى : منجيك (من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك) على دينك (فوق الذين كفروا) بالحجة والغلبة (إلى يوم القيامة) ، فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الذين اتبعوه أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم الذين صدقوا . (ثم إلى مرجعكم) يعنى : الذين اتبعوك والذين كفروا منهم مرجعهم إلى . (فأحكم بينكم) يعنى بين المؤمنين والكفار (فيما كنتم فيه تختلفون) من الدين .

(وقولهم) يعنى[١] : وبقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ، ثم قال : (رسول الله) يعنى الذى هو رسول الله ، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتله هرب منهم ودخل بيتاً ، فأمر ملك اليهود رجلا يدخل البيت يقال يهوذا أو يقال سليانوس ، فجاء جبريل عليه السلام ورفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فلما دخل الرجل البيت لم يجده ، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى ، فقتلوه وصلبوه ، فقالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فاختلفوا فيما بينهم فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم فقال : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) يعنى : ألقى شبه عيسى على غيره فقتلوه ، ثم قال عز وجل : (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) من قبله (ما لهم به من علم) يعنى : لم يكن عندهم علم يقين أنه قتل أو لم يقتل (إلا اتباع الظن) يعنى قالوا قولا بالظن (وما قتلوه يقيناً) يعنى : لم يستيقنوا بقتله ، ويقال (وما قتلوه يقيناً) يعنى : أنهم لم يقتلوه ، بل رفعه الله إليه . قال مقاتل : (بل رفعه الله إليه) يعنى : إلى السماء فى شهر رمضان ليلة القدر . وقال الضحاك : رفعه فى يوم عاشوراء بين الصلاتين ، يعنى المغرب والعشاء ، ثم قال عز وجل : (وكان الله عزيزاً) يعنى : منيعاً ، أى منع عيسى عليه السلام من القتل (حكيما) حين حكم برفعه إلى السماء .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى) يعنى[٢] : رفعتنى إلى السماء .

---

(١) ورقة ١٧٠ (٢) ورقة ٢١٠

آيتا النزول

النساء ١٥٩

وقوله[١] عز وجل : (وإن من أهل الكتاب) يعنى يقول : وما من أهل الكتاب (إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى بعيسى ، وذلك أن اليهودى إذا حضرته الوفاة وعاين أمر الآخرة وضربته الملائكة ويقولون : يا عدو الله ، أتاك عيسى بن مريم فكذبته . ويقال للنصرانى : يا عدو الله ، أتاك عبد الله ورسوله وهو عيسى فزعمت أنه ابن الله فآمن عند ذلك ويقر بأنه عبد الله ورسوله ، ولا ينفعه إيمانه فى ذلك الوقت ، ويكون إيمانهم عليهم شهيداً يوم القيامة .

وروى عن مجاهد أنه قال : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موته ، فقيل له : وإن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى ؟ قال : نعم .

وروى أن الحجاج بن يوسف سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية وقال : إنى لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب عنقه فلأنظر إليه فى ذلك الوقت فلا أرى منهم الإيمان ، فقال له شهر بن حوشب : إنه حين عاين أمر الآخرة ، يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه ، فقال له : من أين أخذت ؟ من محمد بن الحنفية ؟ فقال له الحجاج : أخذت من عين صافية .

وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : (قبل موته) يعنى قبل موت عيسى . وهكذا قال الحسن : قال : حدثنا عمر بن محمد ، قال : حدثنا أبو بكر الواسطى ،

---

(١) ورقة ١٧٠ ظهر .

قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف ، قال : حدثنا زيد بن زريع عن رجل عن الحسن فى قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى ، والله إنه لحى عند الله الآن ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : يمكث عيسى فى الأرض أربعين سنة نبياً إماماً ثم يموت ويصلى عليه أهل هذه الأمة .

وقال الضحاك : يهبط عيسى من السماء إلى الأرض بعد نزول الدجال ، فيكون هبوطه على صخرة بيت المقدس ، ثم يقتل الدجال ، ويكسر الصليب ، ويهدم البيع والكنائس ، ولا يبقى على وجه الأرض يهودى ولا نصرانى إلا آمن بالمسيح ودخل فى الإسلام ، ثم قال عز وجل : (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) يعنى يكون عيسى عليهم شهيداً بأنه قد بلغهم الرسالة .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة) يعنى[1] نزول عيسى علامة لقيام الساعة ، ويقال : نزول عيسى آية للناس ، وروى وكيع عن سفيان عن عاصم عن أبى رزين عن أبى يحيى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة » قال : خروج عيسى بن مريم . وروى معمر عن قتادة ، قال : نزول عيسى . وروى عبادة عن حميد عن أبى هريرة ، قال : لا تقوم الساعة حتى نرى عيسى فى الأرض إماماً مقسطاً ، وكنت أرجو ألا أموت حتى آكل مع عيسى على مائدة ، فمن لقيه منكم فليقره منى السلام . قرأ بعضهم « وإنه لعَلَمَ للساعة » بنصب العين واللام . وقراءة العامة « لعِلم » بالكسر .

وقال القتبى : من قرأ « وإنه لعِلم الساعة » بكسر العين ، أى نزول المسيح يعلم أنه قد قربت الساعة ، ومن قرأ « لعَلَم » بنصب العين واللام ، وأنه يعنى الدليل والعلامة . ثم قال تعالى : (فلا تمترن بها) يعنى فلا تشكن فى القيامة والبعث (واتبعونى) يعنى وأطيعونى (هذا صراط مستقيم) يعنى التوحيد صراط مستقيم .

---

(١) ورقة ٤٨ ظهر .

تعقيب ...

وهكذا يمضى السمرقندى فى تفسيره فتراه - وهو من أصحاب التفسير بالمأثور - يثبت فى كل ما نقل عن الصحابة ومن بعدهم إلى عصره الرفع ، ووضّح بروايته عن ابن عباس أن الموت الذى يعنيه ابن عباس ليس على مطلقه بل هو الموت الواقع بعد النزول فقال : وروى عن ابن عباس أنه قال : يمكث عيسى فى الأرض أربعين سنة نبياً إماماً ثم يموت ويصلى عليه أهل هذه الأمة .

فهذه الرواية توضح مارواه الطبرى وسترى الروايات عن ابن عباس فى بقية التفاسير . وابن عباس لا يصير إلى إثبات الرفع وهو حبر الأمة إلا بالسماع عن الصادق ، ومن ظن أن أحداً من الصحابة أو التابعين يقول فى أمر غيبي من غير سماع من المعصوم صلى الله عليه وسلم فقد أخطأ وجهل قدرهم ، فقد بان لك الآن ما هو الموت الذى عناه ابن عباس فى رواية الطبرى - وقد وضحت لك فى رواية الطبرى من قبل - ووصله إليه ، وبان لك لِمَ حرص السمرقندى على ذكر قسم الحسن البصرى بعد ما ذكرته لك من أن الصحابة والتابعين لا يقولون فى الغيب ولا فى غيره بعقلهم مع وجود النص ، فقسم الحسن البصرى قاطع فى نزول عيسى عند السمرقندى ، وأنه فسر آيتى النزول بما يثبت نزول سيدنا عيسى معتمداً فى هذا على الحديث الذى هو بيان القرآن (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتذكرون) .

لطائف الإشارات

للامام عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

آيات الرفع : آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وأما الباقون[1] فجدوا فى الشقاق وبالغوا فى العداوة ، ودسوا له المكائد ، ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكرهم فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولبس عليهم فالله — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبيه ووليه ، وحق الطرد واللعن على أعدائه وهذا مكره بهم (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

قوله جل ذكره (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك) الإشارة فيه إنى متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك من نعوت البشرية ، ومطهرك من إرادتك بالكلية ، حتى تكون مصرفا بنا لنا ، ولا يكون عليك من اختيارك شىء ، ويكون إسبال التولى عليك قائما عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة — جلت .

ويقال : طهر قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، فى جميع الأحوال والأطوار .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا . . . . . وكان الله عزيزا حكيما)

. . . .

---

(١) ج ١ ص ٢٥٧ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه .. يقيناً بل رفعه الله ، . قوله تعالى (وما صلبوه ولكن شبه لهم . . . عزيزاً حكيما) . قيل[1] : أوقع الله شبهه على الساعى به فقتل وصلب مكانه . وقد قيل : من حفر بئراً لأخيه وقع فيها ، وقيل : إن عيسى عليه السلام قال : من يرضى بأن يلقى عليه شبهى فيقتل دونى فله الجنة ، فرضى به بعض أصحابه ، فيقال : لما صبر على مقاساة القتل لم يعدم من الله الخلف . قال الله تعالى (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ويقال : لما صحت صحبة الرجل مع عيسى — عليه السلام — بنفسه صحبه بروحه فلما رفع عيسى — عليه السلام — إلى محل الزلفة ، رفع روح هذا الذى فداه بنفسه إلى محل القربة .

المائدة ١١٧

قوله جل ذكره (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به . . . . على كل شىء شهيد) ما دعوتهم[2] إلا لعبادتك وما أمرتهم إلا بتوحيدك وتقديسك ، وما دمت حيا فيهم كنت . . . . على هذه الجملة ، فلما فارقتهم كان تصرفهم فى قبضتك على مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وصفى وذاقهم وخلافهم ، ونعمتى اقتصادهم وإسرافهم .

---

(١) ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) ج ٢ ص ١٥٢ .

آيتا النزول : النساء ١٥٩

قوله جل ذكره (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) لما حكم[1] بأن لا أمان لهم فى وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان فى تلك الحالة ، فعلم أن العبرة بأمان الحق لا بإيمان العبد .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة) يعنى[2] عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامة للساعة (فلا تمترن) بنزوله بين يدى الساعة .

---

(١) جـ ٢ ص ٨٢ .
(٢) جـ ٥ ص ٣٧٤ .

تعقيب . . .

هذا هو أبو القاسم القشيرى إمام من أئمة الصوفية وعلم من أعلامهم ، بل إن دلالة عظم رفعة الصوفى ممن جاء قبل القشيرى أن يقال عنه : إنه من رجال الرسالة .

وقد قرأنا تفسيره ، فماذا وجدنا فيه من قول ؟

لم نجد إلا إثبات الرفع وإثبات النزول بكل ما يعنيه هذين اللفظين من معنى فهما ليسا من قبيل الإشارات عند الصوفيـة وإنما حقيقتان واقعتان كما أثبتهما القرآن وأثبتتهما السنة لا يجوز لأحد تأويلهما حتى ولو كان من أهل الإشارات لأن الإشارة هنا إنكار للنص وكفر به ، والصوفى أحرص الناس على دينه ورضا به .

تفسير أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ هـ

آيات الرفع :

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) يعنى[1] كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر ، دبروا فى قتل عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة ، فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم قال الله تعالى (ومكر الله والله خير الماكرين) فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة والمكر من الله إستدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم كما قال (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال الزجاج : مكر الله عز وجل مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه فى مقابلته ، كقوله تعالى (الله يستهزىء بهم « وهو خادعهم ») ومكر الله تعالى خاصة بهم فى هذه الآية ، وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى عليه السلام حتى قتل . قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر بن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، وقذفوه وأمه ، فلما سمع بذلك عيسى عليه السلام منهم دعا عليهم ولعنهم فمسخهم الله خنازير ، فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام وساروا ليقتلوه ، فبعث الله جبريل فأدخله فى خوخة فى سقفها روزنة فرفعه إلى السماء من

---

(١) جـ ١ ص ٢٩٨ مطبعة مصطفى محمد

تلك الروزنة ، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله ، فلما دخل غرفته لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى عليه السلام ، فقتلوه وصلبوه . قال وهب : طرقوا عيسى فى بعض الليل ونصبوا خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة ، فحالت بينهم وبينه ، فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ، ثم قال : ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه ، ولما دخل البيت ألقى الله عليه شبه عيسى ورفع عيسى وأخذ الذى دلهم عليه ، فقال : أنا الذى دللتكم عليه ، فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ، فلما صلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام فقال : اهبط لها . فقال: علام تبكيان إن الله قد رفعنى ولم يصبنى إلا خير . وإن هذا شىء مشبه لهم ، فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام : اهبط على مريم المجدلانية ، إسم موضع فى جبلها، فإنه لم يبك أحد عليك بكاءها ، ولم يحزن عليك أحد حزنها ، وليجتمع لك الحواريون، فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله عز وجل، فأهبطه الله عليها، فاشتعل الجبل حين هبط نورا ، فجمعت له الحواريون ، فبثهم فى الأرض دعاة ، ثم رفعه الله عز وجل إليه ، وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى ، فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . وقال السدى : إن اليهود حبسوا عيسى فى بيت وعشرة من الحواريين ، فدخل عليه رجل منهم ليقتله ، فألقى الله عليه شبهه : وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه :

أيكم يقذف عليه شبهي فإنه مقتول ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا نبي الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى عليه السلام ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة ، فهو معهم حول العرش ، وصار إنسيا ملكيا سمائيا أرضيا . قال أهل التاريخ : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل، فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين فتوفيت مريم عليها السلام وهي بنت اثنين وخمسين سنة (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) إختلفوا فى معنى التوفى ههنا . قال الحسن والكلبي وابن جريج : إنى قابضك ورافعك فى الدنيا إلى من غير موت يدل عليه قوله تعالى (فلما توفيتنى) أى قبضتنى إلى السماء وأنا حى لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته . فعلى هذا للتوفى تأويلان :

أحدهما : إنى رافعك إلى وافيا لم ينالوا منك شيئا ، من قولهم : توفيت منه كذا وكذا واستوفيه إذا أخذته تاما .

والآخر : إنى متسلمك ، من قولهم : توفيت منه كذا ، أى تسلمته . وقال الربيع بن أنس المراد بالتوفى النوم ، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائما إلى السماء معناه : إنى منيمك ورافعك إلى كما قال الله تعالى : وهو الذى يتوفاكم بالليل ، أى ينميكم بالليل . وقال بعضهم : المراد بالتوفى الموت .

وروى على بن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه إنى مميتك يدل عليه قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت) فعلى هذا له تأويلان :

أحدهما : ما قاله وهب : توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه

ثم رفعه الله إليه ، وقال محمد بن إسحاق إن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه .

والآخر : ما قاله الضحاك وجماعه : إن فى هذه الآية تقديما وتأخيرا معناه : إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالك من السماء .

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا عبد الرحمن بن أبى شريح أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أخبرنا على بن الجعد أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى مسلمة الماجشون عن ابن شهاب عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد .

ويروى أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى نزول عيسى عليه السلام قال : وتهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون .

وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد نزول عيسى فى القرآن ؟ قال : نعم . قوله (وكهلا) وهو لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) قال قتادة والربيع والشعبى ومقاتل والكلبى : هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه فى التوحيد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهو فوق الذين كفروا ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة . وقال الضحاك : يعنى الحواريون فوق الذين كفروا ، وقيل : هم أهل الروم وقيل : أراد بهم النصارى ، أى فهم فوق اليهود إلى

يوم القيامة ، فإن اليهود قد ذهب ملكهم ، وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة ، فعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء والمحبة لا اتباع الدين . (ثم إلى مرجعكم) فى الآخرة (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من الدين وأمر عيسى .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وذلك[1] أن الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على الذى دل اليهود عليه وقيل : إنهم حبسوا عيسى عليه السلام فى بيت وجعلوا عليه رقيباً ، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه . وقيل غير ذلك كما ذكرنا فى سورة آل عمران قوله تبارك وتعالى : (وإن الذين اختلفوا فيه) فى قتله (لفى شك منه) أى : فى قتله .

قال الكلبى : اختلافهم فيه هو أن اليهود قالت : نحن قتلناه ، وقالت طائفة من النصارى : نحن قتلناه . وقالت طائفة منهم : ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء ، بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه . وقيل : كان الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على وجه ططيانوس ولم يلقه على جسده ، فاختلفوا فيه فقال بعضهم : قتلنا عيسى فإن الوجه وجه عيسى عليه السلام . وقال بعضهم : لم نقتله لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السلام ، فاختلفوا . قال السدى : اختلافهم من حيث أنهم قالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ قال الله تعالى : (ما لهم به من علم) من حقيقة أنه قتل أو لم يقتل (إلا اتباع الظن) لكنهم يتبعون الظن فى قتله قال الله جل جلاله : (وما قتلوه

---

(١) جـ ١ ص ٥١٤

يقيناً) أى : ما قتلوا عيسى يقيناً (بل رفعه الله إليه) . وقيل : قوله يقيناً ترجع إلى ما بعده ، وقوله (وما قتلوه) كلام تام تقديره : بل رفعه الله إليه يقيناً ، والهاء فيما قتلوه كناية عن عيسى عليه السلام . وقال الفراء رحمه الله : معناه وما قتلوا الذين ظنوا أنه عيسى يقيناً . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : معناه : وما قتلوا ظنهم يقيناً (وكان الله عزيزاً) منيعاً بالنقمة من اليهود . (حكيما) حكم باللعنة والغضب عليهم ، فسلط عليهم ينطيوس بن اسبسيانوس الرومى ، فقتل منهم مقتلة عظيمة .

المائدة ١١٧

(فيهم فلما توفيتنى) قبضتنى[1] ورفعتنى إليك (كنت أنت الرقيب عليهم) الحفيظ عليهم تحفظ أعمالهم (وأنت على كل شىء شهيد) .

(١) ج ٢ ص ٩٤

قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى[١] : وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام . هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم ، وقوله : (قبل موته) اختلفوا فى هذه الكناية ، فقال عكرمة ومجاهد والضحاك والسدى : إنها كناية عن الكتابى ومعناه : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل موته إذا وقع فى اليأس حين لا ينفعه إيمانه سواء احترق أو غرق أو تردى فى بئر أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة .

وهذه رواية عن ابن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : فقيل لابن عباس رضى الله عنهما : أرأيت إن من خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به فى الهواء ، قال : فقيل أرأيت إن ضرب عنق أحدهم ؟ قال : يتلجلج به لسانه ، وذهب[٢] موته قوم إلى أن الهاء فى كناية عن عيسى عليه السلام ، معناه : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام ، وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام .

وروينا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، ويهلك فى زمانه الملل كلها

---

(١) جـ ١ ص ٥١٤
(٢) هذا خطأ من المطبعة ، والصواب : وذهب قوم إلى أن الهاء فى موته ...

إلا الإسلام ، ويقتل الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » .

وقال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قبل موت عيسى بن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

وروى عن عكرمة : أن الهاء فى قوله (ليؤمنن به) كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لا يموت كتابى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هى راجعة إلى الله عز وجل يقول : وإن فى أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالله عز وجل قبل موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانه . قوله تعالى : (ويوم القيامة يكون) يعنى عيسى عليه السلام (عليهم شهيداً) أنه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه ، كما قال الله تعالى مخبراً عنه : (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) وكل نبى شاهد على أمته ، قال الله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) .

الزخرف ٦١

(وإنه) يعنى[1]: عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) يعنى : نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة (وإنه لَعَلَم للساعة) بفتح اللام والعين ، أى أمارة وعلامة ، وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام » .

ويروى أنه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة وعليه ثوبان مصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وهى التى يقتل بها الدجال، فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به .

أخبرنا عبد الواحد المليحى ، أنا أحمد بن عبد الله النعيمى ، أنا محمد بن يوسف ، ثنا محمد بن إسماعيل ، ثنا ابن بكير ، ثنا الليث ، عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن نافع مولى أبى قتادة الأنصارى أن أباهريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » . وقال الحسن وجماعة : وأنه يعنى : وأن القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها .

---

(١) جـ ٦ ص ١١٦

تعقيب ...

وبعد قراءتنا لتفسير البغوى فإننا نلاحظ أنه لم يرد فيه قول أحد بغير الرفع وأنه قد تبين معنى (إنى مميتك) فى رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس وأن معنى (إنى متوفيك) ليس له إلا تأويلان :

أحدهما : ما قاله وهب : توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ، وما نقله محمد بن إسحاق : أن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه .

والتأويل الآخر وهو ما عليه المسلمون فى فهمهم لكتابهم دون نقل عن أهل الكتاب وهو أن فى الآية تقديماً وتأخيراً فمعناه : إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء ، واستدل على ذلك بالحديث .

وإنما أجمعوا على ضرورة الحمل على هذين التأويلين لأن القول بما يخالف الرفع بالجسم والروح إنكار للنص القرآنى الذى أسلم له الجميع القياد ، فأثبتوا الرفع .

وأنت قد رأيت نصوص ابن عباس كلها مثبتة للرفع حال اليقظة ، وتعددت طرقها وتعدد رواتها ، وأن الرواية المنقولة عن على بن طلحة هى رواية بطريق واحد عن ابن عباس فلا تقوم بها حجة ، ولم يفهم منها المفسرون إلا الرفع ، ولذلك سترى بعد قليل رفض المفسرين لها وردهم أن الرفع وقع حال موته بساعات كما هو مذكور فى الكتب السابقة أو أن الآية على التقديم والتأخير .

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ ﻫ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

(ومكروا) الواو[١] لكفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل (والله خير الماكرين) أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب .

(إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)

(إذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله (إني متوفيك) أي مستوفي أجلك معناه : إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك . ومميتك حتف أنفك لا قتيلا بأيديهم (ورافعك إلي) إلى سمائي ومقر ملائكتي (ومطهرك من الذين كفروا) من جوارهم وخبث صحبتهم . وقيل متوفيك : قابضك من الأرض ، من توفيت مالي على فلان إذا استوفيته : وقيل : مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن ، وقيل : متوفي

---

(١) ج ١ ص ٢٨٠ مطبعة الاستقامة القاهرة ط ثانية سنة ١٣٧٣ ﻫ ١٩٥٣ م .

نفسك بالنوم من قوله (والتي لم تمت في منامها) ، ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف ، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب (فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى (فأحكم بينكم) تفسير الحكم قوله (فأعذبهم . . . فنوفيهم أجورهم) وقرىء فيوفيهم أجورهم .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) .

كانوا[1] كافرين بعيسى عليه السلام ، أعداء له ، عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة ، والفاعل بن الفاعلة ، فكيف قالوا (إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) ؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون : (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله (ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهدا) روى أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم « اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني ، اللهم العن من سبني وسب والدتي » فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل

---

(١) ج ١ ص ٤٥٥

الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا . فألقى عليه شبهه فقتل وصلب ، وقيل : كان رجلا ينافق عيسى ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه يظنون أنه عيسى . ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه إله لا يصح قتله ، وقال بعضهم : إنه قتل وصلب . وقال بعضهم إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم : رفع إلى السماء . وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا ، فإن قلت (شبه) مسند إلى ماذا ؟ إن جعلته مسندا إلى المسيح ، فالمسيح مشبه به وليس بمشبه ، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر . قلت : هو مسند إلى الجار والمجرور وهو (لهم) .

كقولك خيل إليه ، كأنه قيل : ولكن وقع لهم التشبيه ، ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول ، لأن قوله : إنا قتلنا يدل عليه كأنه قيل : ولكن شبه لهم من قتلوه (إلا اتباع الظن) استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم يعنى : ولكنهم يتبعون الظن . فإن قلت : قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما ، فكيف يكونون شاكين ظانين ؟ قلت : أريد أنهم شاكون مالهم من علم قط ولكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا ، فذاك (وما قتلوه يقيناً) وما قتلوه قتلا يقينا ، أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم (إنا قتلنا المسيح) أو يجعل يقيناً تأكيدا لقوله (وما قتلوه) كقولك : ما قتلوه حقا أى حق انتفاء قتله حقا وقيل : هو من قولهم : قتلت الشىء علما ونحرته علماً إذا تبالغ فيه علمك ، وفيه تهكم لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق ثم قيل : وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكما بهم .

المائدة آية ١١٧

« ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد »

(أن) في قوله[1] أن اعبدوا الله إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر ، وكلاهما لا وجه له. أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يتوسط بينهما حرف التفسير . لا تقول: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله . ولكن : ما قلت لهم : إلا اعبدوا الله . وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله عز وجل . فلو فسرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم الأمر ، لأن الله تعالى لا يقول : اعبدوا الله ربي وربكم ، وإن جعلتها موصولة بالفعل لم تخل من أن تكون بدلا من ما أمرتني به ، أو من الهاء في به ، وكلاهما غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه . ولا يقال : ما قلت لهم إلا اعبدوا الله ، بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته ؛ لأن العبادة لا تقال ، وكذلك إذا جعلته بدلا من الهاء لأنك لو أقمت (أن اعبدوا الله) مقام الهاء، فقلت : إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله ، لم يصح ، لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته . فإن قلت : فكيف يصنع ؟ قلت يحمل فعل القول على معناه ؛ لأن معنى (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) ما أمرتهم إلا بما أمرتني به ، حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم . ويجوز أن تكون (أن) موصولة عطف بيان للهاء لا بدلا (وكنت عليهم شهيدا) رقيباً كالشاهد على المشهود عليه . أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) تمنعهم من القول بما نصبت لهم من الأدلة ، وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم من الرسل .

(١) جـ ١ ص ٥٤١

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(ليؤمنن به) جملة[1] قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره : وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به . ونحوه (وما منا إلا له مقام معلوم) ، (وإن منكم إلا واردها) والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى ، وبأنه عبد الله ورسوله ، يعنى : إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف .

وعن شهر بن حوشب قال : قال لى الحجاج : آية ما قرأتها إلا تخالج فى نفسى شىء منها يعنى هذه الآية ، وقال إنى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك ، فقلت : إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله ، أتاك موسى نبيا فكذبت به فيقول: آمنت أنه عبد نبى . وتقول للنصرانى : أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه . قال : وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلى وقال : ممن ؟ قلت: حدثنى محمد بن على بن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ، ثم قال : لقد أخذتها من عين صافية ، أو من معدنها ، قال الكلبى : فقلت له : ما أردت إلى أن تقول : حدثنى محمد بن على بن الحنفية . قال أردت أن أغيظه ، يعنى بزيادة اسم على ، لأنه مشهور بابن الحنفية ، وعن ابن عباس أنه فسره كذلك فقال له عكرمة : فإن أتاه رجل فضرب عنقه قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه . قال : وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال : يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به . وتدل عليه

---

(١) جـ ١ ص ٤٥٥

قراءة أبى : إلا ليؤمنن به قبل موتهم ، بضم النون على معنى : وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم ، لأن أحداً يصلح للجمع . فإن قلت : ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم ؟ قلت : فائدته الوعيد ، وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لا ينفعهم ، بعثاً لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به فى أوان الانتفاع به ، وليكون إلزاما للحجة لهم ، وكذلك قوله (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) يشهد على اليهود بأنهم كذبوه ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله وقيل : الضميران لعيسى ، بمعنى : وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله . روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به ، حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه . ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم فى قبورهم فى ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزله له ، ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم . وقيل : الضمير فى (به) يرجع إلى الله تعالى . وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم)

(وإنه) وإن[1] عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) أى شرط من أشراطها تعلم به ، فسمى الشرط علماً لحصول به ، وقرأ ابن عباس : لعلم ، وهو العلامة وقرىء للعلم ، وقرأ أبى : لذكر ، على تسمية ما يذكر به ذكرا ، كما سمى ما يعلم

---

(١) ج ٤ ص ٢٠٦

به علما . وفى الحديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وبهـا يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن به . وعن الحسن . أن الضمير للقرآن ، وأن القرآن به تعلم الساعة ، لأن فيه الإعلان بها (فلا تمترن بها) من المرية وهى الشك (واتبعون) واتبعوا هداى وشرعى . أو رسولى . وقيـل : هذا أمر لرسول الله أن يقوله (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه ، أو هذا القرآن إن جعل الضمير فى (وإنه) للقرآن .

تعقيب . . .

هذا هو محمود بن عمر الزمخشرى شيخ المعتزلة وخطيبهم ، وتفسيره هو المتحدث باسم المعتزلة بين كتب التفسير يثبت بكل ثقة الرفع والنزول دون شك أو مواربة ودون تأويل ، مع أنه من المعروف أن المعتزلة ولسانهم فى التفسير الزمخشرى يؤولون كثيرا من السمعيات. وهذا يكشف لك مدى إطباق المفسرين والمتكلمين بمختلف فرقهم على إثبات الرفع والنزول رغم اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم .

مجمع البيان في تفسير القرآن

الشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) يعنى [1] كفار بنى إسرائيل الذى عناهم الله بقومه : فلما أحس عيسى منهم الكفر . . . الآن ومعناه دبروا لقتل عيسى (ع) (ومكر الله) أى جازاهم مكرهم وسمى المجازاة على المكر مكرا كما قال الله تعالى : الله يستهزىء بهم ، وجاء فى التفسير أن عيسى بعد إخراج قومه إياه من بين أظهرهم دعا إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله ، وتواطأوا على الفتك به فذلك مكرهم به ، ومكر الله بهم القاؤه الشبه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل وصلب ورفع عيسى إلى السماء .

وقال ابن عباس : لما أراد ملك بنى إسرائيل قتل عيسى دخل خوخته وفيها كوة فرفعه جبرائيل من الكوة إلى السماء ، وقال الملك لرجل منهم خبيث : أدخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى ، فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وظنوا أنه عيسى ، وقال وهب : أسروه ونصبوا له خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم ، فأخذوا رجلا يقال له يهوذا وهو الذى دلهم على المسيح . وذلك أن عيسى جمع

(١) ج ٣ ص ١٩٢ دار مكتبة الحياة سنة ١٣٨٠ هـ ١٩٦١ م بيروت

الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بى أحدهم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا ، وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إليهم فقال : ما تجعلوا لى إن أدلكم عليه : فجعلوا له ثلاثين درهما فأخـذا ودلهم عليه شبه عيسى (ع) لما دخل البيت ورفع عيسى فأخـذ فقال : أنا الذى دللتكم عليـــه فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى . فلما صلب شبه عيسى (ع) وأتى على ذلك سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى : اهبط على مريم ليجتمع لك الحواريين وتبثهم فى الأرض دعاة فهبط . اشتعل الجبل نورا ، فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة ، ثم رفعه الله سبحانه وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسل عيسى إليهم ، فذلك قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) أى أفضل المعاونين . وقيل : أنصف الماكرين وأعد لهم لأن مكرهم ظلم ومكره عدل وإنصاف، وإنما أضاف الله المكر إلى نفسه على مزاوجة الكلام . كما قال : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، والثانى ليس باعتداء وإنما هو جزاء : وهـذا أحد وجوه البلاغة كالمجانسة والمطابقة والمقابلة ، فالمجانسة كقوله : تتقلب فيه القلوب والأبصار ، والمطابقة كقوله : ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا : بالنصب على مطابقة السؤال السؤال ، والمقابلة نحو قوله : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة .

قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا . الآية)

الإعراب : العامل فى إذ : قوله ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين إذ قال ، ويحتمل أن يكون تقـديره ذاك إذ قال الله وتمثيله ذاك واقع إذ قال الله

ثم حذفت واقع وهو العامل فى إذ وأقيمت إذ مقامه ، وعيسى : فى موضع الضم لأنه منادى مفرد لكن لا يتبين فيه الإعراب لأنه منقوص وهو لاينصرف لاجتماع العجمة والتعريف .

المعنى : لما بين سبحانه ماهم فيه قوم عيسى من المكر به وقتله عقبه بما أنعم عليه من لطف التدبير وحسن التقدير فقال (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك) وقيل فى معناه أقوال :

أحدها : أن المراد به إنى قابضك برفعك من الأرض إلى السماء من غير وفاة بموت . . عن الحسن وكعب وابن جريج وابن زيد الكلبي وغيرهم ، وعلى هذا القول يكون المتوفى تأويلان :

أحدهما : إنى رافعك إلى وافيا لم ينالوا منك شيئا . من قولهم توفيت كذا واستوفيت أى أخذته تاما .

والآخر : إنى متسلمك . من قولهم : توفيت منهم كذا أى تسلمته .

وثانيها : إنى متوفيك وفاة نوم ورافعك إلى فى النوم عن الربيع قال : رفعه نائما ويدل عليه قوله : وهو الذى يتوفاكم بالليل . أى يميتكم لأن النوم أخو الموت ، وقال : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها . . الآية .

وثالثها : إنى متوفيك وفاة النوم عن ابن عباس ووهب قالا : أماته الله ثلاث ساعات ، فأما النحويون فيقولون هو على التقديم والتأخير أى أنى رافعك ومتوفيك لأن الواو لا توجب الترتيب بدلالة قوله : فكيف كان عذابى ونذر ، والنذر قبل العذاب بدلالة قوله : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وهذا مروى عن الضحاك . ويدل عليه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن عيسى بن مريم لم يمت وانه راجع إليكم قبل يوم القيامة ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم

معكم ؟ رواه البخارى ومسلم فى الصحيح . فعلى هذا يكون تقديره : إنى قابضك بالموت بعد نزولك من السماء وقوله (ورافعك إلى) فيه قولان :

أحدهما : إنى رافعك إلى سمائى ، وسمى رفعه إلى السماء رفعا إليه تفخيما لأمر السماء يعنى رافعك لموضع لا يكون عليك إلا أمرى .

والآخر : أن معناه رافعك إلى كرامتى كما قال حكاية عن ابراهيم (ع) : (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين)، أى إلى حيث أمرنى ربى ، سمى ذهابه إلى الشام ذهابا إلى ربه . وقوله (ومطهرك من الذين كفروا) وفيه قولان :

أحدهما : مطهرك بإخراجك من بينهم وإنجائك منهم فإنهم ارجاس جعل مقامه فيما بينهم كملاقاة النجاسة من حيث كان يحتاج إلى مجاورتهم ومجاراتهم .

والآخر : أو تطهيره منه من كفر يفعلونه بالقتل الذى كانوا هموا به لأن ذلك رجس طهره الله منه ... عن الجبائى

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم) يعنى[1] قول اليهود إنا قتلنا عيسى بن مريم رسول الله حكاه الله تعالى عنهم أى رسول الله فى زعمه ، وقيل أنه من قول الله سبحانه لا على وجه الحكاية عنهم وتقديره الذى هو رسولى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) واختلفوا فى كيفية التشبيه فروى عن ابن عباس أنه قال لما مسخ الله تعالى الذين سبوا عيسى وأمه بدعائه بلغ ذلك يهوذا وهو رأس اليهود ، فخاف أن يدعو عليه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله ، فبعث الله تعالى جبرائيل يمنعه منهم ويعينه عليهم وذلك معنى قوله : وأيدناه

(١) جـ ٥ ص ٢٨٢

بروح القدس ، فاجتمع اليهود حول عيسى فجعلوا يسألونه فيقول لهم : يا معشر اليهود إن الله تعالى يبغضكم، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبرائيل فى خوخة البيت الداخل لها روزنة فى سقفها فرفعه جبرائيل إلى السماء ، فبعث يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه اسمه طيطانوس ليدخل عليه الخوخة فيقتله فدخل فلم يره ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فى الخوخة ، فألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج على أصحابه قتلوه وصلبوه ، وقيل : ألقى عليه شبه وجه عيسى ولم يلق عليه شبه جسده ، فقال بعض القوم إن الوجه وجه عيسى والجسد جسد طيطانوس فاشتبه الأمر عليهم .

وقال وهب بن منبه : أتى عيسى ومعه سبعة من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم : سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا ، فقال عيسى لأصحابه : من يشرى نفسه منكم اليوم بالجنة ! فقال رجل منهم اسمه سرخس : أنا ، فخرج إليهم . فقال : أنا عيسى ! فأخذوه وقتلوه وصلبوه ورفع الله عيسى من يوم ذلك ، وبه قتادة ومجاهد وابن إسحاق وإن اختلفوا فى عدد الحواريين . ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه ألقى على جميعهم بل قالوا : ألقى شبهه على واحد ورفع عيسى من بينهم ، قال الطبرى : وقول وهب أقوى لأنه لو ألقى الشبه على واحد منهم مع قول عيسى : أيكم يلقى شبهى فله الجنة ثم رأوا عيسى رفع من بينهم ، قال الطبرى : لما اشتبه عليهم ولما اختلفوا فيه ، وإن جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين ماعرفوه لكن ألقى الشبه — قول الجبائى — على جميعهم وكانوا يرون كل واحد منهم بصورة عيسى ، فلما قتل أحدهم إشتبه الحال عليهم . وقال أبو على الجبائى : ان رؤساء اليهود أخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال ولم يمكنوا أحدا من الدنو إليه ، فتغيرت حليته وقالوا : قد قتلنا عيسى

ليوهموا بذالك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذى فيه عيسى ، فلما دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم فخافوا أن يكون ذلك سببا لإيمان اليهود به ففعلوا ذلك ، والذين اختلفوا فيـــه هم غير الذين هم صلبوه وإنما باقى اليهود ، وقيل : ان الذى دلهم عليه ، وقال : هذا عيسى أحد الحواريين ، أخذ على ذلك ثلاثين درهما وكان منافقا ، ثم إنه ندم على ذلك واختنق حتى قتل نفسه ، وكان اسمه يودس زكريا بوطا وهو ملعون فى النصارى ، وبعض النصارى يقول : إن بودس زكريا بوطا هو الذى شبه لهم فصلبوه ، وهو يقول: لست بصاحبكم أنا الذى دللتكم عليه ، وقيل : أنهم حبسوا المسيح مع عشرة من أصحابه في بيت ، فدخل رجل من اليهود فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ورفع عيسى فقتلوا الرجل . . . عن السدى .

(وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) قيل : يعنى بذلك عامتهم لأن علماءهم علموا أنه غير مقتول . . . عن الجبائى ، وقيل : أراد بذلك جماعة اختلفوا فقال بعضهم : قتلناه ، وقال بعضهم : لم نقتله (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) أى لم يكن له بمن قتلوه علم لـكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه ظنا منهم أنه عيسى ولم يكن به ، وإنما شكوا في ذلك لأنهم عرفوا عدد من فى البيت ، فلما دخلوا عليهم وفقدوا واحدا منهم التبس عليهم أمر عيسى وقتلوا من قتلوه على شك منهم فى أمر عيسى ،هذا على قول من قال: لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود، وأما من قال:تفرق أصحابه عنه فإنه يقول: كان اختلافهم فى أن عيسى هل كان فيمن بقى أو كان فيمن خرج ؟ اشتبه الأمر عليهم وقال الحسن: معناه فاختلفوا فى عيسى فقالوا مرة : هو عبـد الله ، ومرة : هو ابن الله ، ومرة : هو الله ، وقال الزجاج : معنى اختلاف النصارى فيه : إن منهم من ادعى أنه إله لم يقتل ، ومنهم من قال : قتل .

(وما قتلوه يقينا) اختلف فى الهاء فى قتلوه ، فقيل : أنه يعود إلى الظن ، أى

ما قتلوا ظنهم يقينا كما يقال ما قتله علما . عن ابن عباس وجويبر ومعناه : ما قتلوا ظنهم الذى اتبعوه فى المقتول الذى قتلوه وهم يحسبونه عيسى يقينا أنه عيسى ولا أنه غيره ، لكنهم كانوا منه على شبهة ، وقيل : إن الهاء عائد إلى عيسى ، يعنى : ماقتلوه يقينا أى حقا فهو من باب تأكيد الخبر عن الحسن ، أراد أن الله تعالى نفى عن عيسى القتل على وجه التحقيق واليقين . (بل رفعه الله إليه) يعنى بل رفع الله عيسى إليه ولم يصلبوه ولم يقتلوه ، وقد مر تفسيره فى سورة آل عمران عند قوله : إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى (وكان الله عزيزا) معناه : لم يزل الله سبحانه منتقما من أعدائه حكيما فى أفعاله وتقديراته ؛ فاحذروا أيها السائلون محمدا أن ينزل عليكم كتابا من السماء حلول عقوبة بكم كما حل بأوائلكم فى تكذيبهم رسله .. عن ابن عباس ، وما مر فى تفسير هذه الآية من أن الله ألقى شبه عيسى على غيره فإن ذلك من مقدور الله بلا خلاف بين المسلمين فيه ، ويجوز أن يفعله الله سبحانه على وجه التغليظ للمحنة والتشديد فى التكليف ، وإن كان ذلك خارقا العادة فإنه يكون معجز للمسيح ، كما روى أن جبرائيل كان يأتى نبينا فى صورة دحية الكلبى ... ومما يسأل عن هذه الآية أن يقال قد تواترت اليهود والنصارى مع كثرتهم واجتمعت على أن المسيح قد قتل وصلب ، فكيف يجوز عليهم أن يخبروا عن النبى بخلاف ما هو به ؟ ولو جاز ذلك فكيف يوثق بشىء من الأخبار ؟ والجواب : أن هؤلاء دخلت عليهم الشبهة كما أخبر الله سبحانه عنهم بذلك ، فلم يكن اليهود يعرفون عيسى بعينه وإنما أخبروا أنهم قتلوا رجلا قيل لهم أنه عيسى فهم فى خبرهم صادقون ، وإن لم يكن المقتول عيسى وإنما اشتبه الأمر على النصارى لأن شبه عيسى ألقى على غيره ، فرأوا من هو على صورته مقتولا مصلوبا فلم يخبر أحد من الفريقين إلا عما رآه وظن أن الأمر على ما أخبر به فلا يؤدى ذلك الى بطلان الأخبار بحال .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى) أى[1] قبضتنى إليك وأمتنى . . عن الجبائى ، وقيل معناه وفاة الرفع إلى السماء . . . عن الحسن . (كنت أنت الرقيب) أى الحفيظ (عليهم) . . . عن السدى وقتادة (وأنت على كل شىء شهيد) أي أنت عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عنك شىء . قال الجبائى : وفى هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه ثم رفعه إليه لأنه بين أنه كان شهيدا عليهم مادام فيهم ، فلما توفاه الله كان هو الشهيد عليهم وهذا ضعيف لأن التوفى لا يستفاد من اطلاقه الموت ، ألا ترى إلى قوله : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فبين أنه تعالى يتوفى الأنفس التى لم تمت .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا)

الإعراب[2] : (إن فى قوله : وإن من أهل الكتاب نافية وأكثر ما يأتى مع إلا ، وقد يأتى مع غير إلا نحو قوله : ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، قال الزجاج : المعنى وما فيهم أحد إلا ليؤمنن به . . . . . .

المعنى : ثم أخبر تعالى أنه لا يبقى أحد منهم إلا ويؤمن به فقال (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) اختلف فيه على أقوال :

أحدها : إن كلا الضميرين يعودان إلى المسيح ، أى ليس يبقى أحد من أهل

---

(١) ج ٦ ص ٢٤٧ (٢) ج ٥ ص ٢٨٢

الـكتاب من اليهود والنصارى إلا ويؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح إذا أنزله الله على الأرض وقت خروج المهدى في آخر الزمان لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها ملة واحدة وهى ملة الإسلام الحنيفية دين ابراهيم . . . عن ابن عباس وأبى مالك والحسن وقتادة وابن زيد وذلك حين لا ينفعهم الإيمان .

واختاره الطبرى قال : الآية خاصة لمن يكون منهم فى ذلك الزمان، وذكر على بن ابراهيم فى تفسيره أن أباه حدثه عن سليمان بن داود المنقرى عن أبى حمزة الثمالى عن شهر بن حوشب قال : قال الحجاج بن يوسف آية من كتاب الله قد أعيتنى قوله : وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته . . . الآية ، والله انى لآمر باليهودى والنصرانى فيضرب عنقه ثم أرمقه فما أراه يحرك شفتيه حتى يخمل ، فقلت : أصلح الله الأمير ليس على ما أولت ! قال : فـكيف هو ؟ قلت : إن عيسى بن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ولا يبقى أهل ملة يهودى أو نصرانى أو غيره، إلا وآمن به قبل موت عيسى ويصلى خلف المهدى ، قال : ويحك أنى لك هذا ومن أين جئت به ؟ قال قلت : حدثنى به الباقر محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب قال : جئت والله بها من عين صافية ، فقيل لشهر : ما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أغيظه ، وذكر أبو القاسم البلخى مثل ذلك ، وضعف الزجاج هذا الوجه قال : ان الذين يبقون إلى زمن عيسى من أهل الـكتاب قليل ، والآية تقتضى عموم إيمان أهل الـكتاب إلا أن جميعهم يقولون ان عيسى الذى ينزل فى آخر الزمان نحن نؤمن به .

وثانيها : أن الضمير فى به يعود إلى المسيح ، والضمير فى موته يعود إلى الـكتابى ، ومعناه : لا يكون أحد من أهل الـكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى قبل موته إذ زال تكليفه وتحقق الموت، ولـكن لا ينفعه الإيمان حينئذ ، وإنما ذكر اليهود والنصارى لأن جميعهم مبطلون . اليهود بالـكفر به

والنصارى بالغلو فى أمره ، وذهب إليه ابن عباس فى رواية أخرى ومجاهد والضحاك وابن سيرين وجويبر قالوا : ولو ضربت رقبته لم تخرج نفسه حتى يؤمن .

وثالثها : أن يكون المعنى ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابى عن عكرمة ، ورواه أيضا أصحابنا ، وضعف الطبرى هذا الوجه بأن قال : لو كان ذلك صحيحا لما جاز إجراء أحكام الكفار عليهم إذا ماتوا ، وهذا لا يصح لأن إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إنما يكون فى حال زوال التكاليف فلا يعتد به ، وإنما ضعف هذا القول من حيث لم يجر ذكر لنبينا صلى الله عليه وسلم هاهنا ، ولا ضرورة توجب رد الكناية إليه وقد جرى ذكر عيسى فالأولى أن يصرف ذلك إليه . (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يعنى عيسى يشهد عليهم بأنه قد بلغ رسالات ربه وأقر على نفسه بالعبودية ، وإنما لم يدعهم إلى أن يتخذوه إلها . . .

عن قتادة وابن جريج ، وقيل يشهد عليهم بتصديق من صدقه وتكذيب من كذبه . . .

عن أبى على الجبائى ، وفى هذه الآية دلالة على أن كل كافر يؤمن عند المعاينة وعلى أن إيمانه ذلك غير مقبول كما لم يقبل إيمان فرعون فى حال اليأس عند زوال التكليف .

الزخرف ٦١

قوله تعالى « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم »

المعنى[1] :

ثم رجع سبحانه إلى ذكر عيسى (ع) فقال (وإنه لعلم للساعة) يعني أن نزول عيسى (ع) من أشراط الساعة يعلم بها قوبها (فلا تمترن بها) أى الساعة فلا تكذبوا بها ولا تشكوا فيها .. عن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدى. وقال ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم: تعال صل بنا فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الأمة . أورده مسلم فى الصحيح .

وفى حديث آخر: كيف أنتم إذ نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم،وقيل:أن الهاء فى قوله: وانه ، يعود إلى القرآن ومعناه أن القرآن لدلالة على قيام الساعة والبعث يعلم به ذلك عن الحسن وقيل : معناه إن القرآن لدليل الساعة لأنه آخر الكتب نزول على آخر الأنبياء .

تعقيب ...

هذا هو الطبرسى مفسر الشيعة ومعتمدهم فهل رأيت منه غير إثبات الرفع بالروح والجسم والإصرار عليه بطريقة دفعته إلى الهجوم على الجبائى المثبت للرفع فى أكثر من نص كما نقل عنه الطبرسى نفسه ومع أن ما ذكره الجبائى لا يفيد عدم الرفع وإنما يثبته بما لا يدع فى النفس أى شائبة من الرفع فهو يقول كما نقل عنه الطبرسى (وفى هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه ثم رفعه إليه ..) وهل هناك إثبات للرفع أكثر من تصريح الجبائى هذا ، ولكن لما كان ذكر الموت قبل الرفع قد يتطرق منه إلى الأذهان شىء فى مفهوم الرفع هاج الطبرسى

---

(١) ج ٢٥ ص ٩٥ .

على الجبائى مع أن نص الجبائى يفسر نفسه فكلمة التوفى بعد الموت ليس لها مدلول إلا الأخذ كاملا لعيسى عند رفعه بروحه وجسده ، ومن المعلوم أنه لاموت فى السماء ، وقول الجبائى هذا موافق لطريقة الرفع التى نقلت عن الكتب السابقة وهى أن الله أمات عيسى عدة ساعات حتى رفعه . ولكن الطبرسى لم يعجبه هذا لأنه يخالف إثبات علماء المسلمين فى أن عيسى رفع بروحه وجسده حال يقظته لا حال نومه ولا حال موته عدة ساعات حتى لا يزعجه الرفع ، وقول الجبائى ورد فى آية متعلقة بأحوال الآخرة ، معلوم أن الآخرة تكون بعد الموت ومن المعلوم قاله الجبائى لا يناقض الرفع الذى ذكره الجبائى عدة مرات كما نقل عنه الطبرسى فى تفسير قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك . . .)

والذى حمل الطبرسى على هذا الموقف من الجبائى ذهابه إلى القول بأن عيسى أماته الله عند رفعه ، ومقتضى هذا أنه قال بقول الكتب السابقة التى قالت أن عيسى توفاه الله عدة ساعات حتى رفعه لكيلا يزعجه الرفع ، ولذلك سترى فى تفسير الألوسى رد هذا القول على الجبائى مع بيان أنه قول النصارى ، وما وقع من الألوسى مشابه لما وقع من الطبرسى . فالعقيدة التى لم يختلف فيها سنى ولا شيعى اقتضت رد كل ما يمكن أن يشم منه شائبة فيها .

مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير

الإمام فخر الدين محمد الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

ثم قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفيه مسائل[1] :

(المسألة الأولى) أصل المكر فى اللغة السعى بالفساد فى خفية ومداجاة . قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، وقال الله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) وقال (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) ، وقيل : أصله من اجتماع الأمر وإحكامه . ومنه امرأة ممكورة أى مجتمعة الخلق وإحكام الرأى يقال له الإجماع والجمع . قال الله تعالى : (فاجمعوا أمركم وشركاءكم) فلما كان المكر رأيا محكما قويا مصونا عن جهات النقص والفتور لا جرم سمى مكرا.

(المسألة الثانية) أما مكرهم بعيسى عليه السلام فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله تعالى بهم ففيه وجوه :

الأول : مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وذلك أن يهوذا ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل عليه السلام لا يفارقه وهو معنى قوله (وأيدناه بروح القدس) فلما أراد ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق . فرقة قالت : كان الله فينا فذهب ، وأخرى قالت : كان ابن الله ،

---

(١) جـ ٢ ص ٤٥٦ المطبعة الحسينية المصرية .

والأخرى قالت : كان عبد الله ورسوله فأكرمه بأن رفعه إلى السماء وصار لكل فرقة جمع فظهرت الكافرتان على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفي الجملة فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال الشر إليه .

الوجه الثانى : أن الحواريين كانوا اثنى عشر وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم ودل اليهود عليه فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى فأخذوا ذلك المنافق الذى كان فيهم وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام فكان ذلك هو مكر الله تعالى بهم .

الوجه الثالث : ذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام فشمسوهم وعذبوهم فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته ، فقيل له : إن رجلا من بنى إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل فقال : لو علمت ذلك لحلت بينه وبينهم ، ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ثم غزا بنى إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم وكان اسم هذا الملك طباريس وهو صار نصرانيا إلا أنه ما أظهر ذلك ثم أنه جاء بعده ملك آخر يقال له ملطيس وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو أربعين سنة فقتل وسبي ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله .

(القول الرابع) إن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس حتى قتلهم وسباهم وهو قوله تعالى (بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد) فهذا هو مكر الله تعالى بهم .

(القول الخامس) يحتمل أن يكون المراد أنهم مكروا فى إخفاء أمره وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود والله أعلم .

(المسألة الثالثة) المكر عبارة عن الاحتيال فى إيصال الشر والاحتيال على الله تعالى محال ، فصار لفظ المكر فى حقه من المتشابهات وذكروا فى تأويله وجوها :

(أحدها) أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء .

(والثانى) أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمى بذلك .

(الثالث) أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص فى العرف بالتدبير فى إيصال الشر إلى الغير وذلك فى حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم .

قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) فى الآية مسائل :

(المسألة الأولى) العامل فى إذ قوله : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) أى وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول . وقيل التقدير ذاك إذ قال الله .

(المسألة الثانية) اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى فى هذه الآية بصفات :

الصفة الأولى : إنى متوفيك ونظيره قوله تعالى حكاية عنه (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) واختلف أهل التأويل فى هاتين الآيتين على طريقين :

أحدها : إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير فيها .

والثانى : فرض التقديم والتأخير فيها .

أما الطريق الأول فبيانه من وجوه :

الأول : معنى قوله : (إنى متوفيك) أى إنى متمم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا أتركهم حتى يقتلوك بل أنا رافعك إلى سمائى ومقربك بملائكتى وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك . وهذا تأويل حسن .

والثانى : متوفيك أى مميتك . وهو مروى عن ابن عباس ومحمد بن إسحق . قالوا : والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله، ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء . ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه :

أحدها : قال وهب : توفى ثلاث ساعات ثم رفع .

وثانيها : قال محمد بن إسحق : توفى سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه .

الثالث : قال الربيع بن أنس : أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء . قال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) .

الوجه الرابع : فى تأويل الآية أن الواو فى قوله (متوفيك ورافعك إلى) لا تفيد الترتيب . فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال . فأما كيف يفعل ؟ ومتى يفعل ؟ فالأمر فيه موقوف على الدليل . وقد ثبت الدليل أنه حى . وورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سينزل ويقتل الدجال . ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك .

الوجه الخامس : فى التأويل ما قاله أبو بكر الواسطى وهـو أن المراد إنى متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك . ثم قال (ورافعك إلى) وذلك لأن من لم يصر فانياً عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضاً فعيسى

لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة فى زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة .

والوجه السادس : أن التوفى فى أخذ الشىء وافياً . ولما علم الله أن من الناس من يخطر بباله أن الذى رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (وما يضرونك من شىء) .

والوجه السابع : إنى متوفيك أى أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى وإطلاق اسم الشىء على ما يشابهه فى أكثر خواصه وصفاته جائز حسن .

الوجه الثامن : أن التوفى هو القبض يقال : وفانى فلان دراهمى وأوفانى وتوفيتها منه كما يقال سلم فلان دراهمى إلى وتسلمتها منه . وقد يكون أيضا توفى بمعنى استوفى . وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له . فإن قيل فعلى هذا الوجه كان التوفى عين الرفع إليه فيصير قوله (ورافعك إلى) تكرار . قلنا قوله (إنى متوفيك) يدل على حصول التوفى وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء . فلما قال بعد (ورافعك إلى) كان هذا تعييناً للنوع ولم يكن تكرارا .

الوجه التاسع : أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير متوفى عملك بمعنى مستوفى عملك ورافعك إلى ، أى ورافع عملك إلى وهو كقوله (إليه يصعد الكلم الطيب) والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب فى المشاق فى تمشيه دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه ، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجرى الآية على ظاهرها .

الطريق الثانى : وهو قول من قال لا بد فى الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير ، قالوا : أن قوله (ورافعك إلى) يقتضى أنه رفعه حيا والواو لا تقتضى الترتيب فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير . والمعنى: إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالى إياك فى الدنيا ومثله من التقديم والتأخير كثير فى القرآن ، واعلم أن الوجوه الكثيرة التى قدمناها تغنى عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم .

الصفة الثانية : من الصفات التى ذكرها الله لعيسى عليه السلام قوله (ورافعك إلى) والمشبهة يتمسكون بهذه الآية فى إثبات المكان لله تعالى وأنه فى السماء . وقد دللنا فى المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى فى المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل وهو من وجوه :

الأول : أن المراد إلى محل كرامتى وجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم والتعظيم . ومثله قوله : (إنى ذاهب إلى ربى) وإنما ذهب إبراهيم صلى الله عليه وسلم من العراق إلى الشام .

وقد يقول السلطان : ارفعوا هذا الأمر إلى القاضى . وقد يسمى الحجاج زوار الله ، ويسمى المجاورون جيران الله ، والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فهكذا ههنا .

الوجه الثانى : فى التأويل أن يكون قوله (ورافعك إلى) معناه أنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن فى الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السماوات فلا حاكم هناك فى الحقيقة وفى الظاهر إلا الله .

الوجه الثالث : أن بتقدير القول بأن الله فى مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سببا لانتفاعه وفرحه بل إنما ينتفع بذلك لو وجد هناك مطلوبه من الثواب والروح والراحة والريحان . فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد

(ورافعك إلى) إلى محل ثوابك ومجازاتك وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق فى الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى .

الصفة الثالثة : من صفات عيسى قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) والمعنى : مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة فى إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى .

الصفة الرابعة : قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وفيه وجهان :

الأول : أن المعنى الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وأنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة . فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله . وأما بعد الإسلام فهم المسلمون وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشىء مما يقوله هؤلاء الجهال ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى فى الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى فى طرف من أطراف الدنيا ملكا يهوديا ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك .

القول الثانى : أن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله (ورافعك إلى) هو الرفعة بالدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة .

أما قوله (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) فالمعنى أنه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه فى الدنيا تلك الخواص الشريفة والدرجات الرفيعة العالية وأما فى القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به وبين الجاحدين برسالته وكيفية ذلك الحكم ما ذكره فى الآية التى بعد هذه الآية، وبقى من مباحث هذه الآية موضع مشكل وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه ، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه فى أنه يلقى شبهه عليه حتى يقتل مكانه . وبالجملة فكيفما كان ففى إلقاء شبهه على الغير إشكالات :

الإشكال الأول : أنه لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة فإنى إذا رأيت ولدى رأيته ثانيا فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذى رأيته ثانيا ليس بولدى بل هو إنسان ألقى شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان عن المحسوسات وأيضا فالصحابة الذين رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقى شبهه على غيره وذلك يفضى إلى سقوط الشرائع وأيضا فمدار الأمر فى الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس فإذا جاز وقوع الغلط فى المبصرات كان سقوط خبر التواتر أولى . وبالجملة ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية .

والإشكال الثانى : وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه فى أكثر الأحوال هكذا قاله المفسرون فى تفسير قوله (إذ أيدتك بروح القدس) ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفى العالم من البشر فكيف لم يكف فى منع أولئك اليهود عنه وأيضا أنه عليه

السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوا بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفالج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له .

والإشكال الثالث : أنه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة فى إلقاء شبهه على غيره ؟ وهل فيه إلا إلقاء مسكين فى القتل من غير فائدة إليه ؟ !

والإشكال الرابع : أنه إذا ألقى شبهه على غيره ثم أنه رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى فهذا كان إلقاء لهم فى الجهل والتلبيس وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى .

والإشكال الخامس : أن النصارى على كثرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام وغلوهم فى أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولا مصلوبا فلو أنكرنا ذلك كان طعنا فيما ثبت بالتواتر والطعن فى التواتر يوجب الطعن فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوة عيسى بل فى وجودهما ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل .

والإشكال السادس : أنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقى حيا زمانا طويلا فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع ولقال إنى لست بعيسى بل إنما أنا غيره ولبالغ فى تعريف هذا المعنى ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى فلما لم يوجد شىء من هذا علمنا أنه ليس الأمر على ما ذكرتم ، فهذا جملة ما فى المواضع من السؤالات .

والجواب : عن الأول أن كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنسانا آخر على صورة زيد مثلا . ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور فكذا القول فيما ذكرتم .

والجواب عن الثانى : أن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر

الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء وذلك غير جائز وهذا هو الجواب عن الإشكال الثالث : فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلجاء .

والجواب عن الرابع: أن تلامذة عيسى كانوا حاضرين وكانوا عالمين بكيفية الواقعة وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس .

والجواب عن الخامس : أن الحاضرين فى ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى فى آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم .

والجواب عن السادس : أن بتقدير أن يكون الذى ألقى شبه عيسى عليه السلام عليه كان مسلما وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال فى تلك الواقعة ، وبالجملة فالأسئلة التى ذكروها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه . ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولى الهداية .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) وهذا[1] يدل على كفر عظيم منهم لأنهم قالوا فعلنا ذلك وهذا يدل على أنهم كانوا راغبين فى قتله مجتهدين فى ذلك فلا شك أن هذا القدر كفر عظيم . فإن قيل اليهود كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل

---

(١) ج ٣ ص ٣٤٢ .

ابن الفاعلة فكيف قالوا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله والجواب عنه من وجهين :

(الأول) أنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، وكقول كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم : يا أيها الذى نزل عليك الذكر إنك لمجنون .

(والثانى) أنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه السلام عما كانوا يذكرونه به .

ثم قال تعالى (وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) واعلم أنه تعالى لما حكى عن اليهود أنهم زعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام والله تعالى كذبهم فى هذه الدعوى وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وفى الآية سؤالان :

(السؤال الأول) قوله شبه مسند إلى ماذا إن جعلته مسند إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكراه .

والجواب من وجهين (الأول) أنه مسند إلى الجار والمجرور وهو كقولك خيل إليه كأنه قيل ولكن وقع لهم الشبه (الثانى) أنه يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله وما قتلوه يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك الغير مذكورا بهذا الطريق فحسن إسناد شبه إليه .

(السؤال الثانى) إن جاز أن يقال أن الله تعالى يلقى شبه إنسان على إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة فإنا إذا رأينا زيداً فلعله ليس بزيد ولكنه ألقى شبه زيد عليه وعند ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك موثوقا به وأيضا يفضى إلى القدح فى التواتر لأن خبر التواتر إنما يفيد العلم بشرط إنهائه فى الآخر إلى المحسوس فإذا جوزنا حصول مثل هذه الشبهة فى المحسوسات توجه الطعن فى

التواتر وذلك يوجب القدح فى جميع الشرائع وليس لمجيب بأن يجيب عنه بأن ذلك مختص بزمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنا نقول لو صح ما ذكرتم فذاك إنما يعرف بالدليل والبرهان فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب أن لا يقطع بشىء من المحسوسات ووجب أن لا يعتمد على شىء من الأخبار المتواترة وأيضا ففى زماننا أن انسدت المعجزات فطريق الكرامات مفتوح وحينئذ يعود الاحتمال المذكور فى جميع الأزمنة وبالجملة ففتح هذا الباب يوجب الطعن فى التواتر والطعن فيه يوجب الطعن فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهذا فرع يوجب الطعن فى الأصول فكان مردودا .

(والجواب) اختلفت مذاهب العلماء فى هذا الموضع وذكروا وجوها :

(الأول) قال كثير من المتكلمين أن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس أنه المسيح والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلا بالإسم لأنه كان قليل المخالطة للناس وبهذا الطريق زال السؤال لا يقال إن النصارى ينقلون عن أسلافهم أنهم شاهدوه مقتولا لأنا نقول أن تواتر النصارى ينتهى إلى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب .

(والطريق الثانى) أنه تعالى ألقى شبهه على إنسان آخر ثم فيه وجوه :

(الأول) أن اليهود لما علموا أنه حاضر فى البيت الفلانى مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له طيطانوس أن يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى فظنوه هو فصلبوه وقتلوه .

(الثانى) وكلوا بعيسى رجلا يحرسه وصعد عيسى عليه السلام فى الجبل ورفع إلى السماء وألقى شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى .

(الثالث) أن اليهود لما هموا بأخذه وكان مع عيسى عشرة من أصحابه فقال لهم من يشترى الجنة بأن يلقى عليه شبهى فقال واحد منهم: أنا ، فألقى الله شبه عيسى عليه فأخرج وقتل ورفع الله عيسى عليه السلام .

(الرابع) كان رجل يدعى أنه من أصحاب عيسى عليه السلام وكان منافقاً فذهب إلى اليهود ودلهم عليه فلما دخل مع اليهود لأخذه ألقى الله تعالى شبهه عليه فقتل وصلب وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله أعلم بحقائق الأمور .

ثم قال تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) وفيه مسئلتان :

(المسألة الأولى) اعلم أن فى قوله تعالى وإن الذين اختلفوا فيه قولين: (الأول) أنهم هم النصارى وذلك لأنهم بأسرهم متفقون على أن اليهود قتلوه إلا أن كبار فرق النصارى ثلاثة : النسطورية والملكانية واليعقوبية، أما النسطورية فقد زعموا أن المسيح صلب من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وأكثر الحكماء يرون ما يقرب من هذا القول قالوا لأنه ثبت أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو إما جسم شريف منساب فى هذا البدن وإما جوهر روحانى مجرد فى ذاته وهو مدبر فى هذا البدن فالقتل إنما ورد على هذا الهيكل وأما النفس التى هى فى الحقيقة عيسى عليه السلام فالقتل ما ورد عليه لا يقال فكل إنسان كذلك فما الوجه لهذا التخصيص لأنا نقول أن نفسه كانت قدسية علوية سماوية شديدة الإشراق بالأنوار الإلهية عظيمة القرب من أرواح الملائكة والنفس متى كانت كذلك لم يعظم تألمها بسبب القتل وتخريب البدن ثم أنها بعد الانفصال عن ظلمة البدن تتخلص إلى فسحة السموات وأنوار عالم الجلال فيعظم بهجتها وسعادتها هناك ومعلوم أن هذه الأحوال غير حاصلة لكل الناس بل هى غير حاصلة من مبدأ خلقه آدم عليه السلام إلى قيام القيامة إلا لأشخاص قليلين فهذا هو الفائدة

فى تخصص عيسى عليه السلام بهذه الحالة . وأما الملكانية فقالوا القتل والصلب وصلا إلى اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة وقالت اليعقوبية القتل والصلب وقعا بالمسيح الذى هو جوهر متولد من جوهرين فهذا هو شرح مذاهب النصارى فى هـــذا الباب وهو المراد من قوله (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) .

(والقول الثانى) إن المراد بالذين اختلفوا هم اليهود وفيه وجهان :

(الأول) أنهم لما قتلوا الشخص المشبه به قد ألقى على وجهه ولم يلق عليه شبه جسد عيسى عليه السلام فلما قتلوه ونظروا إلى بدنه قالوا : الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره .

(الثانى) قال السدى أن اليهود حبسوا عيسى مع عشرة من الحواريين فى بيت فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله فألقى الله شبـه عيسى عليه ورفع إلى السماء فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام ثم قالوا إن كان هـــذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ فذلك اختلافهم فيه .

(المسألة الثانية) احتج نفاة القياس بهذه الآية وقالوا : العمل بالقياس اتباع الظن واتباع الظن مذموم فى كتاب الله بدليل أنه إنما ذكره فى معرض الذم ألا ترى أنه تعالى وصف اليهود والنصارى ههنا فى معرض الذم بهذا فقال (مالهم به من علم إلا اتباع الظن) وقال فى سورة الأنعام فى مذمة الكفار (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) وقال فى آية أخرى:(وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) وكل ذلك يدل على أن اتباع الظن مذموم (والجواب) لا نسلم أن العمل بالقياس اتباع الظن فإن الدليل القاطع لما دل على العمل بالقياس كان الحكم المستفاد من القياس معلوما لا مظنونا وهذا الكلام له غور وفيه بحث .

ثم قال تعالى (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه) واعلم أن هذا اللفظ يحتمل وجهين (أحدهما) يقين عدم القتل والآخر يقين عدم الفعـل فعلى التقدير الأول يكون المعنى أنه تعالى أخبر أنهم شاكون فى أنه هل قتلوه أم لا ثم أخبر محمداً بأن اليقين حاصل بأنهم ما قتلوه .

وعلى التقدير الثانى يكون المعنى أنهم شاكون فى أنه هل قتـلوه ثم أكد ذلك بأنهم قتلوا ذلك الشخص الذى قتلوه لا على يقين أنه عيسى عليه السلام بل حين ماقتلوه كانوا شاكين فى أنه هل هو عيسى أم لا ؟ والاحتمال الأول أولى لأنه تعالى قال بعده بل رفعه الله إليه وهذا الـكلام إنما يصح إذا تقدم القطع اليقين بعدم القتل أما قوله بل رفعه إليه ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ أبو عمرو والـكسائى بل رفعه الله إليه بإدغام اللام فى الراء والباقون بترك الإدغام حجتهما قرب مخرج اللام من الراء والراء أقوى من اللام بحصول التـكرير فيها ولهذا لم يجز إدغام الراء فى اللام لأن الأنقص يدغم فى الأفضل وحجـة الباقين أن الراء واللام حرفان من كلمتين فالأولى ترك الإدغام .

(المسألة الثانية) المشبهة احتجوا بقوله تعالى (بل رفعه الله إليه) فى إثبات الجهة والجواب المراد الرفع إلى موضع لا يجرى فيه حكم غير الله تعالى كقوله: (وإلى الله ترجع الأمور) . وقال تعالى: (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله) وكانت الهجرة فى ذلك الوقت إلى المدينة وقال إبراهيم (إنى ذاهب إلى ربى ليهدين) .

(المسألة الثالثة) رفع عيسى إلى السماء ثابت بهذه الآية ونظير هذه الآية قوله فى آل عمران (إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) واعلم أنه

تعالى لما ذكر عقيب ما شرح أنه وصل إلى عيسى أنواع كثيرة من البلاء والمحنة أنه رفعه إليه دل ذلك على أن رفعه إليه أعظم فى باب الثواب من الجنة ومن كل ما فيها من اللذات الجسمانية وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية .

ثم قال تعالى (وكان الله عزيزاً حكيما) والمراد من العزة كمال القدرة ومن الحكمة كمال العلم فنبه بهذا على أن رفع عيسى من الدنيا إلى السماوات وإن كان متعذراً على البشر لكنه لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرتى وإلى حكمتى وهو نظير قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) فإن الإسراء وإن كان متعذراً بالنسبة إلى قدرة محمد إلا أنه سهل بالنسبة إلى قدرة الحق سبحانه .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى) والمراد[1] منه وفاة الرفع إلى السماء من قوله (إنى مميتك ورافعك) إلى (كنت أنت الرقيب عليهم) قال الزجاج : الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم .

---

(١) ج ٣ ص ٤٧٣ .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) .

واعلم[1] أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام وبين أنه ما حصل لهم ذلك المقصود وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجل المراتب بين تعالى أن هؤلاء اليهود الذين كانوا مبالغين فى عداوته لا يخرج أحد منهم من الدنيا إلا بعد أن يؤمن به فقال (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) . واعلم أن كلمة إن بمعنى ما النافية كقوله (وإن منكم إلا واردها) فصار التقدير : وما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به . ثم إنا نرى أكثر اليهود يموتون ولا يؤمنون بعيسى عليه السلام، والجواب من وجهين :

الأول : ما روى عن شهر بن حوشب قال : قال الحجاج : إنى ما قرأتها إلا وفى نفسى منها شىء يعنى هذه الآية فإنى أضرب عنق اليهودى ولا أسمع منه ذلك . فقلت : إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا : يا عدو الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به . فيقول : آمنت أنه عبد الله . وتقول للنصرانى : أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه هو الله وابن الله فيقول : آمنت أنه عبد الله . فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان . فاستوى الحجاج جالساً ، وقال : عمن نقلت هذا ؟ فقلت : حدثنى به محمد بن على

---

(١) ج ٣ ص ٣٤٢ .

ابن الحنفية فأخذ ينكث فى الأرض بقضيب ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية. وعن ابن عباس أنه فسره كذلك. فقال له عكرمة: فإن خر من سقف بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به ويدل عليه قراءة أبى: (إلا ليؤمنن به قبل موته) بضم النون على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم لأن أحداً يصلح للجمع. قال صاحب الكشاف: والفائدة فى إخبار الله تعالى بإيمانهم بعيسى قبل موتهم، أنهم متى علموا أنه لابد من الإيمان به لا محالة فلأن يؤمنوا به حال ماينفعهم ذلك الإيمان أولى من أن يؤمنوا به حال مالا ينفعهم ذلك الإيمان.

والوجه الثانى: فى الجواب عن أصل السؤال أن قوله قبل موته أى قبل موت عيسى والمراد أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين فى زمان نزوله لا بد وأن يؤمنوا به. قال بعض المتكلمين: أنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلا أنه إنما ينزل عند ارتفاع التكاليف أو بحيث لا يعرف، إذ لو نزل مع بقاء التكاليف على وجه يعرف أنه عيسى عليه السلام لكان إما أن يكون نبيا ولا نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام، أو غير نبى وذلك غير جائز على الأنبياء وهذا الإشكال عندى ضعيف لأن انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعند مبعثه انتهت تلك المدة فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم قال تعالى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) قيل: يشهد على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى: أنهم أشركوا به، وكذلك كل نبى شاهد على أمته.

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) ويمضى فى تفسيره للآية حتى يقول :

(المسألة الرابعة)[1] القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) إن الآيات الكثيرة دلة على أن الجدل موجب للمدح والثناء وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذى يفيد تقرير الحق وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل . ثم قال تعالى : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) يعنى ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (ولو نشاء لجعلنا منكم) لولدنا منكم يا رجال (ملائكة يخلفونكم فى الأرض) كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد فى الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك وأن عيسى لعلم للساعة أى شرط من أشراطها تعلم به ، فسمى الشرط الدال على الشىء علما لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس : (لَعَلَم) وهو العلامة وقرىء (للعلم) وقرأ أبى (لذكر) .

وفى الحديث أن عيسى ينزل على ثنية فى الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال ، فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه

---

(١) جـ ٧ ص ٤٣٤

وسلم ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به (فلا تمترن بها) من المرية وهو الشك (واتبعون) واتبعوا هداى وشرعى (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه صراط مستقيم (ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين) قد بانت عداوته لكم لأجل أنه هو الذى أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

تعقيب . . .

هذا ما قاله الفخر الرازى فى تفسيره وقد كان فيه على ما عهد منه فى الاستقصاء والدقة لكل ما يتعلق بالآية التى يفسرها فهو يفرق بين من أجرى الآية على ظاهرها وجعل معنى « متوفيك » على حقيقته ، فلم يقل بالتقديم والتأخير ، وإنما جعل موضع (متوفيك) قبل (رافعك) ثم يأتى بالطريق الثانى وهو قول من قال : لا بد فى الآية من تقديم وتأخير نظراً للمعنى المجازى لـ «متوفيك» . وعلى كل الوجوه التى ساقها لم نجد رأيا واحداً يقول بموت عيسى وينكر رفعه بجسمه وروحه . والحق أن الرازى هنا ، ومن قبله الكشاف ، قد أثبتا الرفع وبينا أن ذكر الرفع بعد التوفى لتأكيد الرفع بالجسد والروح حتى لا يقع فى وهم أحد أنه رفع بالروح فقط . كما قدم لنا الرازى معنى التوفى عند أبى بكر الواسطى فى الوجه الخامس من الطريق الأول وسيظهر أثره فيمن بعده من المفسرين .

ومن حسن تصرف الرازى فى تفسيره أنه يرد على المشبهة المتمسكين بهذه الآية فى إثبات المكان لله تعالى وأنه فى السماء ، فالمشبهة قد أثبتوا الرفع كما أثبته جميع المسلمين ، وأنه إلى السماء التى هى محل العلو حيث يوجد الله عندهم ، ورغم رد الرازى لتمسكهم لم يترك إثبات الرفع وإنما رد زعمهم بطرق متعددة ، وأثبت الرفع لأن فى إنكاره إنكار النص القرآنى ، وهو كفر

لا يسمح به لنفسه ، وقد اعتمد فى الرد عليهم آية توهم فى ظاهرها الجهة لله تعالى وكونه فى الأرض ولم يأخذوا بها فكأنه يقول لهم : إذا كانت آية إبراهيم لا تثبت الجهة فإن آية الرفع كذلك لا تثبته لأن الله تعالى لا يحدد بجهة فوق ولا بجهة تحت ، وإلا لو أثبتنا الفوقية جهة العلو لأثبتنا جهة السفل لوجود نص به ، وهو يقتضى وجود الله بالشام فقط فى قول إبراهيم : « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » وإنما كانت حركته نقلة من العراق إلى الشام . ثم بعد ذلك يضع إشكالات لم يقل بها أحد إنما هى احتمالات وضعها ، وما ذكره الرازى من شبه تحت اسم اشكالات قام بردها ، هو ما تشدق به المخالفون فى عصرنا الحديث ، وكان عليهم بدل أن يأخذوا من المثبتين صوراً تخيلوا إمكان تطرقها الى الأذهان وردّدوها أن يقدموا جديداً من الشبه ، ولكن متى كان للباطل عقل حتى يطلب منه ذلك ؟ وكان عليهم أيضا وقد أخذوا الشبه قراءة قول الرازى بعد رده الشبه : (ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع والله ولى الهداية) ، ويشبه هذه الإشكالات ما ذكر فى آية « وإن من أهل الكتاب » .

وأما ما ذكره الرازى فى الوجه الثانى عن قوله : (قال بعض المتكلمين : أنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلا أنه إنما ينزل عند ارتفاع التكاليف أو بحيث لا يعرف إذ لو نزل مع بقاء التكاليف على وجه يعرف أنه عيسى عليه السلام لكان إما أن يكون نبيا ولا نبى بعد محمد أو غير نبى وذلك غير جائز على الأنبياء ، وهذا الإشكال عندى ضعيف لأن انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعند مبعثه انتهت تلك المدة ، فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعا لمحمد عليه الصلاة والسلام) .

فأنت ترى من سياق الكلام أنه لم يكن منع النزول رأى لأحد من المتكلمين

وإنما هو إشكال وضع لبيان ما سينزل به سيدنا عيسى : هـل ينزل بنبوته أم على شرع سيدنا محمد ؟ وهل هذا يتعارض مع نبوته أو لا يتعارض ؟ .

ولقد قام العلماء جميعا بحل هذا الإشكال الـكلامى كما رأيت صنيع الرازي في حله وبيان ضعفه مما يقطع بأن أحدا من المتكلمين لم يقل به ، ولم أعثر عليه في جميع المراجع إلا على صورة إشكال علمى يسوقه العلماء ليبينوا من خلاله الشرع الذى سيحكم به سيدنا عيسى عند نزوله وأنه الإسـلام وأن هذا الحـكم بالشرع المحمدى لا ينفى عنه صفة النبوة لأنها لازمة له فلا تنفك عنه سواء أكان متبوعا أم تابعا .

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

المتوفى سنة ٦٧١ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

قوله تعالى (ومكروا) يعني[1] كفار بني إسرائيل الذي أحس منهم الكفر، أي قتله . وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به، فذلك مكرهم ، ومكر الله : استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون ، عن الفراء وغيره .

قال ابن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم ؛ فسمى الجزاء باسم الابتداء ؛ كقوله : « الله يستهزىء بهم » ، « وهو خادعهم » وقد تقدم في البقرة . وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع . والمكر : خدالة[2] الساق ، وامرأة ممكورة الساقين . والمكر ضرب من الثياب . ويقال : بل هو المغرة ؛ حكاه ابن فارس . وقيل : « مكر الله » إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه . وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء ، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا : أدخل عليه فاقتله ، فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج رأوه على شبه عيسى

(١) ج ٤ ص ٩٨ مطبعة دار الكتب ١٢٦٦ هـ ١٩٤٧ م

(٢) خدالة : امتلاؤها القاموس باب اللام فصل الخاء مادة خدل .

فأخذوه وقتلوه وصلبوه . ثم قال : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا ؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ ! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ ! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا ، فذلك قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله » . وقيل غير هذا على ما يأتى (والله خير الماكرين) إسم فاعل من مكر يمكر مكرا . وقد عده بعض العلماء فى أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به : يا خير الماكرين امكر لى .

وكان عليه السلام يقول فى دعائه : (اللهم امكر لى ولا تمكر على » . وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى والله أعلم .

قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك) العامل فى « إذ » مكروا ، أوفعل مضمر . وقال جماعة من أهل المعانى منهم الضحاك والفراء فى قوله تعالى: « إنى متوفيك ورافعك إلى » على التقديم والتأخير ، لأن الواو لا توجب الرتبة . والمعنى : إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ؛ كقوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » . والتقدير : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما . قال الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق　　عليك ورحمة الله السلام

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته .

وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء . وهذا فيه بعد ؛ فانه صح فى الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم نزوله وقتله الدجال على مابيناه فى كتاب التذكرة وفى هذا الكتاب حسب

ما تقدم ، ويأتى . وقال ابن زيد : متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد . وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك الربيع بن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » أى ينيمكم لأن النوم أخو الموت ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أفى الجنة نوم قال : لا ، النوم أخو الموت والجنة لاموت فيها» أخرجه الدارقطنى. والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس ، وقاله الضحاك .

قال الضحاك : كانت القصة لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم إثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة . فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يا نبى الله ؛ فألقى إليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف ، وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى ، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة .

وذكر أبو بكر بن شيبة حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أما إن منكم من سيكفر بى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم فقال : أنا . فقال عيسى: اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا — فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله

تعالى عيسى من روزنة كانت فى البيت الى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ؛ فتفرقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد الى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ماشاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى «فآمنت طائفة من بنى إسرائيل و كفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا» أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى على عدوهم بإظهار دينهم على دين الكفار « فأصبحوا ظاهرين » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » . وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما ولا ينزل بشرع مبتدأ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجددا لما درس منها متبعها» كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وفى رواية : «فأمكم منكم» قال ابن أبى ذئب . تدرى ما أمكم منكم ؟ قلت: تخبرنى قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب التذكرة والحمد لله . و « متوفيك » أصله متوفييك حذفت الضمة استثقالا ، وهو خبر إن . « ورافعك » عطف عليه ، وكذا « مطهرك » ، وكذا « وجاعل الذين اتبعوك » ويجوز «وجاعل

الذين » وهو الأصل . وقيل : إن الوقف التام عند قوله « ومطهرك من الذين كفروا » قال النحاس : وهو قول حسن . « وجاعل الذين اتبعوك » يا محمد « فوق الذين كفروا » أى بالحجة وإقامة البرهان . وقيل : بالعزة والغلبة . وقال الضحاك ومحمد بن أبان ، المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم) كسرت[1] (إن) لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها له ؛ وقد تقدم فى آل عمران اشتقاق لفظ المسيح (رسول الله) بدل ، وإن شئت على معنى أعنى (وما قتلوه وما صلبوه) رد لقولهم (ولكن شبه لهم) أى ألقى شبهه على غيره كما تقدم فى آل عمران . وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذى قتلوه وهم شاكون فيه ؛ كما قال (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) والإخبار قيل : إنه عن جميعهم . وقيل : أنه لم يختلف فيه إلا عوامهم ؛ ومعنى اختلافهم قول بعضهم إنه إله، وبعضهم هو ابن الله. قال الحسن : وقيل اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى . وقال من عاين رفعه إلى السماء : ما قتلناه . وقيل: اختلافهم أن النسطورية من النصارى قالوا : صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته وقالت الملكانية : وقع الصلب والقتل على المسيح بكمال ناسوته ولاهوته . وقيل : اختلافهم هو أنهم قالوا : إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟! وإن كان عيسى فأين صاحبنا ؟! وقيل : اختلافهم هو أن اليهود قالوا : نحن قتلناه ، لأن يهوذا رأس اليهود وهو الذى سعى فى قتله . وقالت طائفة من النصارى : بل قتلناه نحن . وقالت طائفة منهم : بل رفعه الله الى السماء ونحن ننظر اليه (ما لهم به من علم) من

---

(١) ج ٦ ص ٩

زائدة؛ وتم الكلام. ثم قال جل وعز (إلا اتباع الظن) استثناء ليس من الأول فى موضع نصب، ويجوز أن يكون فى موضع رفع على البدل؛ أى ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وأنشد سيبويه:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

قوله (وما قتلوه يقينا) قال ابن عباس والسدى: المعنى ما قتلوا ظنهم يقينا، كقولك قتلته علما إذا علمته علما تاما؛ فالهاء عائدة على الظن، قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقينا لقال: وما قتلوه فقط. وقيل: المعنى وما قتلوا الذى شبه لهم أنه عيسى يقينا؛ فالوقف على هذا على «يقينا».

وقيل: المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على «وما قتلوه» و «يقينا» نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران: أحدهما — أى قالوا هذا قولا يقينا، أو قال الله هذا قولا يقينا. والقول الآخر — أن يكون المعنى وما علموه علما يقينا. النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقينا فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بل» فيما قبلها لضعفها. وأجاز ابن الأنبارى الوقف على «وما قتلوه» على أن ينصب «يقينا» بفعل مضمر هو جواب القسم، تقديره: ولقد صدقتم يقينا أى صدقا يقينا (بل رفعه الله إليه) ابتداء كلام مستأنف؛ أى الى السماء، والله تعالى متعال عن المكان؛ وقد تقدم كيفية رفعه فى آل عمران (وكان الله عزيزا) أى قويا بالنقمة من اليهود فسلط عليهم ابن بطرس استيسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة (حكيما) حكم عليهم باللعنة والغضب.

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) قيل[1] : هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه ؛ وليس بشيء ؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه فى السماء حى ، وأنه ينزل ويقتل الدجال — على ما يأتى بيانه — وإنما المعنى فلما رفعتنى الى السماء . قال الحسن : الوفاة فى كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه : وفاة الموت ، وذلك قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » يعنى وقت انقضاء أجلها . ووفاة النوم ؛ قال الله تعالى « وهو الذى يتوفاكم بالليل » يعنى الذى ينيمكم . ووفاة الرفع ، قال الله تعالى : « يا عيسى إنى متوفيك » « أنت » توكيد « الرقيب » خبر « كنت » ومعناه الحافظ عليهم ، والعالم ، بهم ؛ والشاهد على أفعالهم ؛ وأصله المراقبة أى المراعاة ، ومنه المرقبة لأنها فى موضع الرقيب من علو المكان ....

آيتا النزول

النساء ١٥٩

قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)

قال[2] ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة : المعنى ليؤمنن بالمسيح قبل موته أى الكتابى ، فالهاء الأولى عائدة على عيسى ، والثانية على الكتابى ؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك ، ولكنه إيمان لا ينفع ؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت ؛ فاليهودى يقر فى ذلك الوقت بأنه رسول الله ، والنصرانى يقر بأنه كان رسول الله وروى أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عن هذه

---

(١) ج ٢ ص ٣٧٦ (٢) ج ٦ ص ١٠

الآية وقال : إنى لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب عنقه ، وانظر إليه فى ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان ؛ فقال له شهر بن حوشب : إنه حين عاين أمر الآخرة يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه ؛ فقال له الحجاج : من أين أخذت هذا ؟ قال : أخذته من محمد بن الحنفية ؛ فقال له الحجاج : أخذت من عين صافية . وروى عن مجاهد أنه قال : ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته ؛ فقيل له : إن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى؟ فقال : نعم ! وقيل : إن الهاءين جميعا لعيسى عليه السلام ؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حيا حين نزوله يوم القيامة ؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبرى . وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن فى قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » قال : قبل موت عيسى ؛ والله إنه لحى عند الله الآن ؛ ولكن اذا نزل آمنوا به أجمعون ، ونحوه عن الضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : « ليؤمنن به » أى بمحمد عليه السلام وإن لم يجر له ذكر لأن هذه الأخاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بمحمد عليه السلام أيضا ، إذ لا يجوز أن يفرق بينهم . وقيل : « ليؤمن به » أى بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة . والتأويلان الأولان أظهر .

وروى الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لينزلن ابن مريم حكما عدلا فليقتلن الدجال وليقتلن الخنزير وليكسرن الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » ثم قال أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » قال أبو هريرة : قبل موت عيسى؛ يعيدها ثلاث مرات . وتقدير الآية عند سيبويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به . وتقدير الكوفيين : وإن من أهل

الكتاب إلا من ليؤمنن به ، وفيه قبح ؛ لأن فيه حذف الموصول ، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم . قوله تعالى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أى بتكذيب من كذبه وتصديق من صدقه .

الزخرف ٦١

قوله تعالى (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) قال الحسن(١) وقتادة وسعيد ابن جبير : يريد القرآن ، لأنه يدل على قرب مجيء الساعة ، أو به تعلم الساعة ، وأهوالها وأحوالها .

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام ، وذلك من أعلام الساعة ؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَم للساعة » بفتح العين واللام، أى أمارة . وقد روى عن عكرمة « وإنه للعلم » بلامين وذلك خلاف المصاحف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى ابراهيم وموسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم ؛ فرد الحديث الى عيسى بن مريم قال : قد عهد إلى فيما دون وجبتها أما وجبتها فلا يعلمها الا الله عز وجل ؛ فذكر خروج الدجال قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث ، خرجه ابن ماجه فى سننه .

وفى صحيح مسلم « بينما هو — يعنى المسيح الدجال — اذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ

(١) ج ١٦ ص ١٠٥

فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلامات وَنَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ...» الحديث. وذكر الثعلبي والزمخشري وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء على ثنية من الأرض المقدسة يقال لها أفيق بين ممصرتين وشعر رأسه دهين وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به» وروى خالد عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم إنه ليس بيني وبينه نبي وإنه أول نازل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام».

قال الماوردي: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا إذا نزل عيسى رفع التكليف لئلا يكون رسولا الى ذلك الزمان يأمرهم عن الله تعالى وينهاهم. وهذا قول مردود لثلاثة امور، منها الحديث، ولأن بقاء الدنيا يقتضي التكليف فيها، ولأنه ينزل آمرا بمعروف وناهيا عن منكر. وليس يستنكر أن يكون أمر الله تعالى له مقصورا على تأييد الإسلام والأمر به والدعاء إليه.

قلت: ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لينزلن عيسى بن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وفي رواية «فأمكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري «ما أمكم منكم»؟

قلت : تخبرنى ، قال : فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم » قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فهذا نص على أنه ينزل مجددا لدين النبى صلى الله عليه وسلم للذى درس منه ، لا بشرع مبتدأ والتكليف باق ، على ما بيناه هنا فى كتاب التذكرة . وقيل : « وإنه لعلم للساعة » أى وإن إحياء عيسى الموتى دليل على الساعة وبعث الموتى ؛ قاله ابن إسحاق .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى « وإنه » وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لعلم للساعة ؛ بدليل قوله عليه السلام : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى . خرجه البخارى ومسلم . وقال الحسن : أول أشراطها محمد صلى الله عليه وسلم .

تعقيب . . .

هذا ما قاله القرطبى ، وهو كسالف عهدنا مع التفاسير لم يرد فيه رأى واحد بإنكار الرفع أو إنكار النزول وإنما زاد الوضوح وانكشفت الحقائق فى ضعف بعض ما نسب الى ابن عباس وما قاله الربيع بن أنس فيما ذكره الفخر الرازى فى قوله: الثالث: قال الربيع بن أنس، وهو الثالث من الطريق الأول عند قوله تعالى« وإذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك » فالربيع بن أنس كما رأيت عند القرطبى يكشف حقيقة ما نسب الى ابن عباس وهو : إنى مميتك ويقول : (هى وفاة نوم قال الله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » أى ينيمة لأن النوم أخو الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل : أفى الجنة نوم ؟ قال : لا ، النوم أخو الموت ،والجنة لا موت فيها . أخرجه الدار قطنى) .

فما قاله الربيع بن أنس لم يكن أكثر من توضيح للقول المنسوب إلى ابن عباس وهو أن معنى (متوفيك) : مميتك . إذ (الصحيح أن الله تعالى رفعه الى السماء

من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس) وهذا حكم من القرطبي بصحة هذه الرواية وضعف غيرها التى تضمنت معنى قريبا مما ذكر عن أهل الكتاب وهو الرفع وقع حال الموت وقد بان لك أن كتب التفسير تنقل رواية : إنى مميتك ، عن طريق واحد هو على بن طلحة ، أما الرفع حال اليقظة فقد تعدد رواته عن ابن عباس وأصبح معنا الآن منها طريقان :

الأول : ما ذكره البغوى فى تفسيره وهو عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس

والثانى : للقرطبي وهو ما ذكره أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وستأتى بقية الروايات عن ابن عباس فيما نستقبل من التفاسير .

فقد وضحت الحقيقة وأصبح الرفع بالجسد والروح عند ابن عباس حال اليقظة وأنه لم يكن فى نوم ولا موت .

وعلى هذا يثبت القرطبي النزول فى آيتيه مفسرا لهما بما ورد فى السنة .

ولنتابع معا رحلتنا فى الرفع والنزول من القرآن الكريم مع من أتى بعد القرطبي .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

للقاضي ناصر الدين أبي سعيد البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ

وبهامشه حاشية العلامة الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أي[1] الذين أحس منهم الكفر من اليهود وكلوا عليه من يقتله غيلة (ومكر الله) حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يسند إلى الله تعالى الأعلى سبيل المقابلة والازدواج (والله خير الماكرين)

---

(١) جـ ٢ ص ٢١ مطبعة دار الكتب العربية الكبرى .

فمعنى المكر هو التدبير (قوله ظرف لمكر الله) قال العلامة التفتازاني هذا أوجه من التعليق بخير الماكرين إذ ليس لتعليق كونه أقدر على العقاب بزمان دون زمان كثير معنى (قوله أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الخ) لك أن تقول يفهم منه أن من لم يبق له شهوة يعرج إلى السماء فيجب القول بأن سائر الأنبياء ليسوا كذلك فيلزم فضل عيسى على سائر الأنبياء والجواب أن العروج إلى الملكوت بالروح شامل لجميع الأنبياء وهو المراد ههنا أما إذا أريد العروج بالبدن فنقول أن اللزوم ممنوع إذ لا يلزم من ارتفاع موانع الشيء وجوده لم لا يجوز أن يكون موقوفا على شرط وجودي فيجوز أن يكون لبدن عيسى خاصة تستلزم العروج عند رفع الموانع وهي كونه حاصلا من نفخ جبريل وليس لابد أن غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تلك الخاصية ولا يلزم مما ذكر فضيلته عليهم كما أن لأجسام الملائكة خاصية الرجوع إلى السماء ولا يلزم منه تفضيلها على غيرهم من الأنبياء .

أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضـرر من حيث لا يحتسب (إذ قال الله) ظرف لمكر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك (ياعيسى إنى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما إياك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما إذ روى أنه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت . وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى (ورافعك إلى) إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى (ومطهرك من الذين كفروا) من سوء جوارهم أو قصدهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) يعلونهم بالحجة أو السيف فى غالب الأمر ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم نسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة (ثم إلى مرجعكم) الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به وغلب المخاطبين على الغائبين (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى[١] بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء ونظيره أن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، وأن يكون استئنافا من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعا للذكر الحسن[٢] مكان ذكرهم

---

(١) ج ٢ ص ١٢٧

وقولهم (إنا قتلنا المسيح) وفيه دليل على دلالة النهى على التحريم لأن الله تعالى جعل أخذ الربا مقيدا بكونه منهيا عنه سببا لتحريم الطيبات فيدل على أن النهى عنه سبب لما ذكر ولو لم يكن النهى دالا على الحرمة لم يصلح أن يكون سببا لما ذكر .

(٢) قوله (أو وضعا للذكر الحسن الخ) أى أن اليهود وضعوا عيسى بما تنزه شأنه عنه فلم يذكر الله تعالى ما ذكروه مما يوجب الذم وذكره بما يوجب المدح . =

القبيح (وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم) روى أن رهطا من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير ، فاجتمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ ، فقام رجل منهم فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب .

وقيل : كان رجلا ينافقه فخرج ليدل عليه ، فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وقتل .

وقيل : دخل طيطانوس اليهودى بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى فأخذ وصلب . وأمثال ذلك من الخوارق التى لا تستبعد فى زمان النبوة .

وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم [1] وشبه مسند إلى الجار والمجرور كأنه قيل ولـكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول أو فى الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس ، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثم

= قوله (وهو معطوف على بكفرهم) ظاهر هذه العبارة أنه رجح العطف على بكفرهم والـكشاف سوى بين العطف عليه وبين العطف على قوله : فبما نقضهم لأنه قال الوجه أن يعطف على : فبما نقضهم ميثاقهم ويجوز أن على ما يليه وهو قوله تعالى : وبكفرهم . فانظر ما بين عبارة الـكشاف والمصنف .

(١) قوله (لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم) أى لم يذمهم الله تعالى لمجرد قولهم المذكور إذ هو مطابق ظنهم أو ليس قصدهم الـكذب حتى يذموا بل ذمهم باعتبار ما يستفاد من كلامهم من التبجح والسرور بقتله ولك أن تقول يمـكن أن يكون ذمهم بأنهم جزموا بقتل عيسى مع وجود ما يكذبه فتأمل .

قتيلا (وإن الذين اختلفوا فيه)[١] فى شأن عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود أنه كان كاذبا فقتلناه حقا وتردد آخرون فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . وقال : من سمع منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعنى إلى السماء إنه رفع إلى السماء ، وقال قوم : صلب الناسوت وصعد اللاهوت (لفى شك منه) لفى تردد والشك كما يطلق على مالا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزما كان أو غيره فيتصل الاستثناء[٢] (وما قتلوه يقينا) قتلا يقينا كما زعموه بقولهم : إنا قتلنا المسيح أو متيقنين . وقيل : معناه ما علموه يقينا كقول الشاعر :

كذاك تخبر عنها العالمات بها   وقد قتلت بعلمى ذلكم يقينا

---

(١) قوله تعالى (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) ههنا شكا لأن أحدهما : أن الظاهر من قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح الخ) إن جميع اليهود على اعتقادهم أنهم قتلوا عيسى وهذا القول أعنى أن الذين اختلفوا فيه على ما فسره يدل على أن بعضهم فى التردد . والثانى : أن الذين اختلفوا فيه بعضهم فى التردد وبعضهم غير متردد بل جازم بقتله فكيف يصح إطلاق الحكم بأن الذين اختلفوا فيه لفى شك . والجواب أن المراد بالشك ههنا منا يقابل العلم وكلهم فى الشك فى قتله بهذا المعنى إذ ليس لهم علم به وأما تردد بعضهم فى قتله فمعناه أنهم اعتقدوا اعتقادا راجحا فى قتله فاختلج فى قلوبهم الشبهة المذكورة .

(٢) قوله (فيتصل الاستثناء الخ) لا يخفى أن اتباع الظن الذى هو المستثنى ليس داخلا فى العلم بأى معنى كان . نعم لو كان المعنى ما لهم من اتباع علم إلا اتباع الظن لكان كما قال . ولذا اكتفى صاحب الكشاف بكونه مستثنى منقطعا .

من قولهم : قتلت الشيء علما ونحرته علما إذا تبالغ علمك فيه (بل رفعه الله إليه) رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه (وكان الله عزيزا) لا يغلب على ما يريده (حكيما) فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام .

المائدة ١١٧

(وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) أى[١] رقيبا عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان (فلما توفيتنى) بالرفع إلى السماء لقوله (إنى متوفيك ورافعك) ، التوفى أخذ الشىء وافيا والموت نوع منه . قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) .

(كنت أنت الرقيب عليهم) المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات (وأنت على كل شىء شهيد) مطلع عليه مراقب له .

---

(١) جـ ٢ ص ١٧٧

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أي[1] وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله: ليؤمنن به جملة قسمية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى : ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن تزهق روحه ولا ينفعه إيمانه ويؤيد ذلك أنه قرىء : إلا ليؤمنن به قبل موتهم ، بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع وهذا كالوعيد لهم[2] والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم . وقيل: الضمير أن لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام والمعنى أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعا روى أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله .

---

(١) ج ٢ ص ١٢٧

(٢) قوله (هذا كان توعيدا لهم الخ) أى هذا الكلام كالوعيد لأهل الكتاب لأنه فهم منه أنهم يؤمنون به قبيل موتهم ولا ينفع الإيمان فأمره حق فلو لم يؤمنوا به قبل ذلك الوقت لكانوا كافرين مستحقين للعذاب أو فإن قيل ما فائدة قبل موته مع أن من المعلوم أن الإيمان لا يكون إلا في الحياة قبل الموت ؟ قلنا : لو لم يكن هذا القيد لتوهم أنه يمكن أن يكون الإيمان بعد البعث .

الزخرف ٦١

(وإنه) وإن[١] عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) لأن حدوثه أو نزوله من أشراط الساعة يعلم به دنوها أو لأن إحياء الموتى يدل على قدرة الله تعالى عليه[٢] وقرىء : لَعَلَمٌ أى لعلامة ، ولذكو على تسمية ما يذكر به ذكراً[٣] . وفي الحديث: ينزل عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيتقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به ، وقيل : الضمير للقرآن فإن فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها (فلا تمترن بها) فلا تشكن فيها (واتبعون) واتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى ، وقيل : هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوله (هذا) الذى أدعوكم إليه (صراط مستقيم)

---

(١) ج ٥ ص ٦٢ .

(٢) (قوله يدل على قدرة الله عليه) فيدل على البعث الذى هو إحياء أرض أيضاً.

(٣) (قوله على تسمية ما يذكر به ذكرا) أى على تسمية ما يذكر به الساعة وهو عيسى ذكرا .

تعقيب . . .

هذا هو البيضاوى فى تفسيره يثبت رفع سيدنا عيسى بروحه وجسده ويثبت نزوله مستدلا بالحديث النبوى . لأنه يثبتهما مع اختصار وإشارات واضحة لا خفاء فيها ويبين الحال التى يكون عليها سيدنا عيسى حال وجوده فى السماء والتى تناسب معنى : متوفيك ، وإن من معانيها كما يذكر فى أحد الأقوال : مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت ، ولقد أخذ البيضاوى هذا المعنى عن الفخر الرازى الذى عزاه لأبى بكر الواسطى عند تفكيره لتلك الآية فى الوجه الخامس من الطريق الأول .

أما الكازرونى فهو تعليق وشرح على تفسير البيضاوى يوضح لنا ما اشتمل عليه من معان ودلائل على رفع سيدنا عيسى وما كان عليه من خاصية وجود صلح بها بدن سيدنا عيسى للرفع والبقاء حيا فى السماء دون غيره أشار إليه ووضحه حتى لا يظن أحد أن إماتة الشهوة يترتب عليها الرفع .

تفسير القرآن الجليل

المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل

أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمد النسفى

المتوفى سنة ٧٠١ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أى[١] كفار بنى اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر حين أرادوا قتله وصلبه (ومكر الله) أى جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى الى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل . ولا يجوز إضافة المكر الى الله تعالى إلا على معنى الجزاء لأنه مذموم عند الخلق . وعلى هذا الخداع والاستهزاء كذا فى شرح التأويلات (والله خير الماكرين) أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب (إذ) ظرف لمكر الله (قال الله يا عيسى إنى متوفيك) أى مستوفى أجلك . ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم (ورافعك إلى) إلى سمائى ومقر ملائكتى (ومطهرك من الذين كفروا) من سوء جوارهم وخبث صحبتهم .

وقيل : متوفيك قابضك من الأرض من توفيت مالى على فلان اذا استوفيته، أو مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن ، إذ الواو لا توجب الترتيب . قال النبي عليه السلام : ينزل عيسى خليفة على أمتى يدق الصليب

---

(١) جـ ١ ص ٢١٩ المطبعة الأميريه سنة ١٩٤٣م

ويقتل الخنازير ويلبث أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى . وكيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والمهدى من أهل بيتى فى وسطها . أومتوفى نفسك بالنوم ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف وتستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح) سمى[١] مسيحا لأن جبريل عليه السلام مسحه بالبركة فهو ممسوح أو لأنه كان يمسح المريض والأكمه والأبرص فيبرأ فسمى مسيحا بمعنى الماسح (عيسى ابن مريم رسول الله) هم لم يعتقدوه رسول الله لكنهم قالوا استهزاء كقول الكفار لرسولنا (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) ويحتمل أن الله وصفه بالرسول وإن لم يقولوا ذلك . (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) روى أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم : اللهم أنت ربى وبكلمتك خلقتنى ، اللهم العن من سبنى وسب والدتى . فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير . فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ! فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب .

وقيل : كان رجل ينافق عيسى فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى ورفع عيسى وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه

---

(١) ج ١ ص ٣٧٥ .

وهم يظنون أنه عيسى وجاز هذا على قوم متعنتين حكم الله بأنهم لا يؤمنون.
و (شبه) مسند الى الجار والمجرور وهو (لهم) كقولك : خيل إليه كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه . أو مسند الى ضمير المقتول لدلالة (إنا قتلنا) عليه كأنه قيل (ولكن شبه لهم) من قتلوه .

(وإن الذين اختلفوا فيه) فى عيسى يعنى اليهود قالوا : إن الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا ، أو اختلف النصارى قالوا : إله وابن إله وثالث ثلاثة .
(لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم يعنى ولكنهم يتبعون الظن ، وإنما وصفوا بالشك وهو ألا يترجح أحد الجانبين ثم وصفوا بالظن وهو أن يترجح أحدهما لأن المراد أنهم شاكون ما لهم به من علم ولكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك .
وقيل : (وإن الذين اختلفوا فيه) أى فى قتله (لفى شك منه) أى من قتله . لأنهم كانوا يقولون : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟

(وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا أوما قتلوه متيقنين أو ما قتلوه حقا فيجعل يقينا تأكيدا لقوله (وما قتلوه) أى حق انتفاء قتله حقا .

(بل رفعه الله إليه) الى حيث لا حكم فيه لغير الله أو الى السماء .

(وكان الله عزيزا) فى انتقامه من اليهود (حكيما) فيما دبر من رفعه إليه .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) (ليؤمنن به) جملة قسمية[1] واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره (وإن من أهل الكتاب) أحد (إلا ليؤمنن به) ونحوه (وما منا إلا له مقام معلوم) . والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام وبأنه عبد الله ورسوله ، يعنى إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف ، أو الضمير أن لعيسى ، يعنى وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله .

روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة ، وهى ملة الإسلام ، أو الضمير فى (به) يرجع إلى الله ، أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والثانى إلى الكتابى . (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) يشهد على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة) وإن[2] عيسى مما يعلم به مجىء الساعة . وقرأ ابن عباس (لَعَلَمَ الساعة) وهو العلامة ، أى : وإن نزوله علم للساعة .

---

(١) ج ١ ص ٣٧٥

(٢) ج ٣ ص ٣١٩ .

تعقيب . . .

هذا هو النسفى مثبت للرفع فيما كتب تبعا للنص القرآنى ، وكذلك مثبت للنزول تبعاً للنص القرآنى الذى بينته السنة النبوية .

تفسير الخازن

علاء الدين على بن محمد البغدادى الخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) يعنى[(١)] كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة ، وقيل : هو السعى بالفساد فى الخفية وأما مكرهم بعيسى فإنهم دبروا فى قتله وهموا به وذلك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته إليهم فهموا بقتله والفتك به فذلك مكرهم والمكر من الخلق الخبث والخديعة والحيلة (ومكر الله) أى جازاهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه فى مقابلته وقيل مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب ومكر الله فى هذه الآية خاصة هو إلقاء الشبه على صاحبهم الذى دلهم على عيسى حين أرادوا قتله حتى قتل .

قال ابن عباس : إن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه ، قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم ولعنهم فمسخوا خنازير ، فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وملكهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ، وساروا إليه ليقتلوه فبعث الله عز وجل جبريل فأدخله خوخة فى سقفها روزنة فرفعه الله من تلك الروزنة ، وأمر يهوذا ملك اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس

(١) جـ ١ ص ٢٩٨ المطبعة التجارية الكبرى .

أن يدخل الخوخة فيقتله فيها ، فلما دخل لم ير عيسى وأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، وألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه .

وقال وهب بن منبه : إن اليهود طرقوا عيسى فى بعض الليل ونصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الأرض وأرسل الله عز وجل الملائكة فحالت بينه وبينهم فجمع عيسى عليه السلام الحواريين تلك الليلة وأوصاهم، وقال: ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود وقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما ، فأخذها ، ودلهم عليه ، فلما دخل البيت الذى فيه المسيح ألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الله عيسى عليه السلام وأخذ الذى دل عليه فقال أنا الذى دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ، فلما صلب الذى ألقى عليه شبه عيسى جاءت مريم وامرأة أخرى كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون بدعوته فجعلتا تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام وقال : على من تبكيان إن الله عز وجل قد رفعنى ولم يصبنى إلا خير وهذا شىء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى : اهبط إلى مريم المجدلانية وهو اسم موضع نسبت إليه فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عز وجل إليها فاشتعل الجبل نوراحين هبط فجمعت له الحواريين فبثهم دعاة فى الأرض ثم رفعه الله فتلك الليلة التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تكلم كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى (والله خير الماكرين) يعنى وهو أفضل المجازين بالسيئة العقوبة .

وقال السدى : إن اليهود حبست عيسى عليه السلام فى بيت ومعه عشرة من

الحواريين فدخل عليهم رجل منهم وكان قد نافق فألقى عليه شبه عيسى فأخذ وقتل وصلب .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهى فإنه مقتول ؟ فقال رجل منهم: أنا يا نبى الله، فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسيا ملكيا أرضياً سماويا .

قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل وأوحى الله إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين . قوله عز وجل (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) اختلفوا فى معنى التوفى هنا على طريقين . فالطريق الأول : أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكروا فى معناه وجوها : الأول : معناه إنى قابضك ورافعك إلى من غير موت من قولهم توفيت الشىء ، واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاما والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره .

الوجه الثانى : أن المراد بالتوفى النوم . ومنه قوله عز وجل (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) فجعل النوم وفاة وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف فمعنى الآية : إنى منيمك ورافعك إلى .

الوجه الثالث : إن المراد بالتوفى حقيقة الموت . قال ابن عباس معناه : إنى مميتك .

قال وهب بن منبه : إن الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه

ثم رفعه إليه . وقيل : إن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه .

الوجه الرابع : إن الواو فى قوله ورافعك إلى لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر . فأما كيف يفعل ومتى يفعل فالأمر فيه الوقوف على الدليل . وقد ثبت فى الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى .

الوجه الخامس : قال أبو بكر : الواسطى : معناه إنى متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلى وذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة فى زوال الشهوة .

الوجه السادس : إن معنى التوفى أخذ الشىء وافيا . ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذى رفعه الله اليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعنى روحه وبقى فى الأرض ناسوته يعنى جسده فرد الله عليهم بقوله إنى متوفيك ورافعك إلى فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعا .

الطريق الثانى : أن فى الآية تقديما وتأخيرا تقديره إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض .

وقيل لبعضهم : هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن قال : نعم قوله تعالى (وكهلا) وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء .

(ق) — متفق عليه — عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . زاد فى رواية : حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة

اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وفى رواية : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم . وفى رواية : فإمامكم منكم .

قال ابن أبى ذؤيب : تدرى ما إمامكم منكم . قلت : فأخبرنى قال : فإمامكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وفى إفراد مسلم من حديث النواس ابن سمعان قال فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق .

عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس بينى وبينه يعنى عيسى نبى وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل فى زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . أخرجه أبو داود .

ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام (ومطهرك من الذين كفروا) يعنى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) ادعت[١] اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصدقتهم النصارى على ذلك فكذبهم الله عز وجل جميعا ورد عليهم بقوله (وما قتلوه وما صلبوه) وفى قوله (رسول الله) قولان: أحدهما : أنه من قول اليهود فيكون المعنى أنه رسول الله على زعمه .

---

(١) جـ ١ ص ٥١٤

والقول الثانى : أنه من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم وذلك أن الله تعالى أبدل ذكرهم فى عيسى عليه السلام بالقول القبيح بالقول الحسن رفعا لدرجته عما كانوا يذكرونه من القول القبيح . وقوله تعالى (ولكن شبه لهم) يعنى ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب، واختلف العلماء فى صفة التشبيه الذى شبه على اليهود فى أمر عيسى عليه السلام :

فروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه أنه قال: أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه : من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى ، وقد صوره الله تعالى على صورة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك ، ورفع الله عز وجل عيسى عليه السلام من يومه ذلك .

وفى رواية أخرى عن وهب : أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعنى بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا : هذا من أصحاب عيسى فجحد وقال : ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذوا آخر فجحد كذلك ، فلما أصبح أتى بعض الحواريين إلى اليهود وكان منافقا فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فدلهم عليه ، فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذى دل عليه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، وهم يظنون أنه عيسى .

وقال قتادة : أن أعداء الله اليهود زعموا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه ، وذكر لنا أن نبى الله عيسى بن مريم عليه السلام قال لأصحابه . أيكم يقذف عليه شبهى

وله الجنة فإنه مقتول ، فقال رجل منهم : أنا يا نبي الله فأخذ ذلك الرجل وقتل وصلب ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء . وقيل : إن اليهود حبسوا عيسى في بيت وجعلوا عليه رقيبا يحفظه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرقيب فأخذ فقتل وصلب فرفع الله عز وجل عيسى في ذلك الوقت . قال الطبرى : وأولى الأقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان مع عيسى في البيت حين أحيط به وبهم من غير مسئلة عيسى إياهم ذلك ولكن ليخزى الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره وليبتلى الله من أراد ابتلاءه من عباده ويحتمل أن يكون ألقى شبهه على بعض أصحابه بعد ماتفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام وبقى ذلك فأخذ وقتل وصلب وظن أصحابه واليهود أن الذى قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفى أمر عيسى عليهم وكانت حقيقة ذلك الأمر عند الله فلذلك قال الله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . (وإن الذين اختلفوا فيه) يعنى في قتل عيسى وهم اليهود (لفى شك منه) يعنى من قتله وذلك أن اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبه بعيسى وكان قد ألقى الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده فلما قتلوه نظروا إلى جسده فوجدوه غير جسد عيسى ، فقالوا : الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه ، وقيل : إن اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه في البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه إليهم فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل فأخذ وقتل ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء وفقدوا صاحبهم ، فقالوا : إن كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا وإن كنا قتلنا صاحبنا فأين المسيح عيسى فهذا هو اختلافهم فيه . وقيل : إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى فبعضهم يقول : إن القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته ، وبعضهم يقول : وقع القتل عليهم جميعا ، وبعضهم يقول : رأيناه قتل . وبعضهم يقول : رأيناه رفع إلى السماء فهذا هو اختلافهم فيه .

قال الله تعالى (ما لهم به من علم) يعنى أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أم غيره (إلا اتباع الظن) يعنى لكن يتبعون الظن فى قتله ظنا منهم أنه عيسى لا عن علم وحقيقة (وما قتلوه يقينا) قال ابن عباس : يعنى لم يقتلوا ظنهم يقينا . فعلى هذا القول تكون الهاء فى قتلوه عائدة على الظن . والمعنى : ما قتلوا ذلك الظن يقينا ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ما وقع لهم من الشبهة فى قتله ، فهو كقول العرب : قتلته علما وقتلته يقينا يعنى علمه تاما وأصل ذلك أن القتل للشىء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة ، ومعنى الآية على هذا لم يكن علمهم بقتل عيسى علما تاما كاملا إنما كان ظنا منهم أنهم قتلوه ولم يكن لذلك حقيقة وقيل أن الهاء فى قتلوه عائدة على عيسى . والمعنى : وما قتلوا المسيح يقينا كما ادعوا أنهم قتلوه . وقيل : أن قوله يقينا يرجع إلى ما بعده تقدير وما قتلوه (بل رفعه الله إليه) يقينا . والمعنى : أنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه إليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء . وقد تقدم كيف كان رفعه فى سورة آل عمران بما فيه كفاية . وقوله تعالى (وكان الله عزيزا) يعنى فى اقتداره على من يشاء من عباده (حكيما) يعنى فى إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود . وقيل : عزيزا يعنى منيعا منتقما من اليهود فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة ، حكيما حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوى الكاذبة

المائدة ١١٧

(وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) يعنى[1] وكنت أشهد ما يفعلون وأحضره ما دمت مقيما فيهم (فلما توفيتنى) يعنى فلما رفعتنى إلى السماء فالمراد به وفاة الرفع لا الموت (كنت أنت الرقيب عليهم) يعنى الحفيظ عليهم المراقب لأعمالهم وأحوالهم والرقيب الحافظ الذى لا يغيب عنه شىء (وأنت على كل شىء شهيد) يعنى أنت شهدت مقالتى التى قلتها لهم وأنت الشهيد عليهم بعدما رفعتنى إليك لا تخفى عليك خافية فعلى هذا الشهيد هنا بمعنى الشاهد لما كان وما يكون وأن يجوز أن يكون الشهيد هنا بمعنى العليم يعنى أنت العالم بكل شىء فلا يعزب عن علمك شىء .

آية النزول

النساء ١٥٩

قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب) يعنى[2] وما من واحد من أهل الكتاب (إلا ليؤمنن به) يعنى بعيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين . وقال عكرمة فى قوله (إلا ليؤمنن به) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا القول لا وجه له لأنه لم يجر للنبى صلى الله عليه وسلم ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه. وقول الأكثرين الأولى لأنه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود الضمير إليه أولى (قبل موته) اختلف المفسرون فى هذا الضمير إلى من يرجع . فقال ابن عباس : وأكثر المفسرين أن الضمير يرجع إلى الكتابى .

---

(١) ج ٢ ص ٩٤
(٢) ج ١ ص ٥١٥

والمعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابى ، ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لا ينفعه إيمانه .

قال ابن عباس : معناه إذا وقع فى اليأس حين لا ينفعه إيمانه سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة . فقيل له : أرأيت إن خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به فى الهواء فقيل له : أرأيت إن ضربت عنقه ؟ قال : يتلجلج به لسانه .

وقال شهر بن حوشب : إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره وقالوا : يا عدو الله أتاك موسى نبيا فكذبت به ، فيقول : آمنت أنه عبد الله ورسوله . وتقول للنصرانى : أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله وابن الله . فيقول : آمنت أنه عبد الله فأهل الكتابين يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان .

وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام . وهو رواية عن ابن عباس أيضا ، والمعنى . وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى . وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام .

قال عطاء : إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهودى ولا نصرانى ولا أحد يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وأنه عبد الله وكلمته ، ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . زاد فى رواية : وحتى تكون

السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية . وفى رواية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لينزلن فيكم ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد) . أخرجاه فى الصحيحين .

ففى هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل فى آخر الزمان فى هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكما من حكام هذه الأمة وإماما من أئمتهم لقوله صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب يعنى يكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه وكذلك قتله الخنزير وقوله : ويضع الجزية يعنى لا يقبلها ممن بذلها من اليهود والنصارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام أو القتل ، وعلى هذا قد يقال : هذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم فإن الكتابى إذا بذل الجزية وجب قبولها منه ولم يجز إجباره على الإسلام . والجواب : أن هذا الحكم ليس مستمرا إلى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام ، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بنسخه وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبين للنسخ وأن عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فدل على الامتناع من قبول الجزية فى ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم ، قال الزجاج : هذا القول بعيد يعنى قول من قال : أن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله فى آخر الزمان قال لعموم قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به) قال : والذين يبقون يومئذ يعنى عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجاب أصحاب

هذا القول يعنى الذين يقولون إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله فى آخر الزمان بأن هذا على العموم ولكن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به ويكون معنى الآية: ومامن أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله من السماء وصحح الطبرى هذا القول وقال عكرمة فى معنى الآية : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابى فلا يموت يهودى ولا نصرانى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك عند الحشرجة حتى لا ينفعه إيمانه . وقوله تعالى : (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يعنى يكون عيسى عليه السلام شاهدا على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم اتخذوه ربا وأشركوا به ويشهد على تصديق من صدقه منهم وآمن به . قال قتادة : معناه أن يكون شهيدا يوم القيامة أنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية .

الزخرف ٦١

(وإنه) يعنى[1] عيسى (لعلم للساعة) يعنى نزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها .

(ق) — متفق عليه — عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وفى رواية أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس بينى

---

(١) ج ٦ ص ١١٦

وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل به ممرودتين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله تعالى فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الدجال ثم يمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون.

(ق) عنه قال — عن أبى هريرة — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم ، وفى رواية فأمكم منكم . قال أبو ذؤيب : فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

ويروى أنه ينزل عيسى وبيده حربة وهى التى يقتل بها الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن .

وقيل فى معنى الآية وأنه أى وإن القرآن لعلم للساعة أى يعلم قيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها .

تعقيب . . .

هذا هو الخازن فى تفسيره يؤكد الرفع والنزول فى كل ما فسر به الآيات عن طريق الحديث الثابت ثم عرض لمشكلة وضع الجزية عند نزول عيسى حيث يضع الجزية لأنه لا يقبل إلا الإسلام ، فبين أن الناسخ لحكمها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سيدنا عيسى ، إذ رسول الله هو الذى بين فى الأحاديث وضع الجزية فى عهد عيسى فالناسخ لحكمها إذن ليس عيسى عليه السلام وإنما رسول الله صلى الله علية وسلم بما وضع لها من حكم يلتزم به عيسى عليه السلام عند نزوله آخر الزمان وهو وضع الجزية وعدم قبولها .

تفسير القرآن العظيم

إسماعيل ابن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ثم[1] قال تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تمالئوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان وكان كافرا أن هنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه الى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه من روزنة ذلك البيت الى السماء وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده فى المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم وتركهم فى ضلالهم يعمهون يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم وأورثهم ذلة لا تفارقهم الى يوم التناد ولهذا قال تعالى: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

اختلف المفسرون فى قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى) فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره : إنى رافعك إلى ومتوفيك يعنى بعد

---

(١) حـ ١ ص ٢٦٦ .

ذلك . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : انى متوفيك أى مميتك . وقال محمد بن اسحاق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه قال : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه . قال ابن اسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه . قال اسحاق بن بشر عن ادريس عن وهب : أماته الله ثلاثة أيام ثم بعثه ثم رفعه ، قال مطر الوراق : إنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وكذا قال ابن جرير توفيه هو رفعه .

وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) الآية . وقال تعالى : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) الآية : وكان رسول الله صلى الله عليه يقول إذا قام من النوم : «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » الحديث ، وقال تعالى : (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم — الى قوله — وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) والضمير فى قوله قبل موته عائد على عيسى عليه السلام أى وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى وذلك حين ينزل الى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتى بيانه فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه حدثنا الربيع بن أنس عن الحسن أنه قال فى قوله تعالى (إنى متوفيك) يعنى وفاة المنام رفعه الله فى منامه قال الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهود « ان عيسى لم يمت وانه راجع إليكم قبل يوم القيامة ، وقوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) برفعى إياك الى السماء .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى[1] هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين (يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التى كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائرا ثم ينفخ فيه فيكون طائرا يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل الى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها وأجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبى الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم فى بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام .

ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا الى ملك دمشق فى ذلك الزمان وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهوا اليه أنه فى بيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه ، فغضب الملك من هذا وكتب الى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود الى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام ، وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر ، وقيل سبعة عشر نفرا ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، فحصروه هنالك ، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجهم اليهم قال لأصحابه: أيكم

(١) جـ ١ ص ٥٧٣

يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب. فقال: أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع الى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) الآية فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه فى الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ما عدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح بن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، ويقال إنه خاطبها والله أعلم.

وهذا كله من امتحان الله عباده لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم الذى أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات فقال تعالى وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه اليهم من جهل النصارى كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ، ولهذا قال : (وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين (بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا) أى منيع الجناب لا يرام جنابه ولا يضام من لاذ ببابه (حكيما) أى فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة والحجة

الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى الى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن آمن بى، قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ، فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس . ثم أعاد عليهم فقال : أنا فقال : هو أنت ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة فى البيت الى السماء قال وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنى عشر مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق.

فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد الى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء ثم رفعه الله اليه ، وهؤلاء النسطورية .

وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء الله ثم رفعه الله اليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم . وهذا إسناد صحيح الى ابن عباس ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه وكذا ذكره غير واحد من السلف أنه قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة .

وقال : ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن هارون ابن عنترة عن وهب بن منبة قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله عز وجل كلهم على صورة عيسى فقال لهم: سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا، فقال عيسى لأصحابه: من يشرى نفسه منكم اليوم بالجنة . فقال رجل منهم : أنا، فخرج إليهم وقال:

أنا عيسى ، وقد صوره الله على صورة عيسى فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم ، فظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ؛ ورفع الله عيسى من يومه ذلك . وهذا سياق غريب جداً .

قال ابن جرير : وقد روى عن وهب نحو هذا القول وهو ما حدثني المثنى حدثنا اسماعيل عن عبد الكريم حدثني عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول : إن عيسى بن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه فدعا الحواريين وصنع لهم طعاما فقال : أحضروني الليلة فإن لى إليكم حاجة فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال : ألا من رد على الليلة شيئا مما أصنع فليس منى ولا أنا منه فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ماصنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى فليكن لكم بى أسوة فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعاظم بعضكم على بعض وليبذل بعضكم نفسه لبعض كما بذلت نفسى لكم وأما حاجتى الليلة التى استعنتكم عليها فتدعون الله لى وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ، أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونني فيها؟ فقالوا : والله ما ندرى ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال : يذهب الراعى وتفرق الغنم ، وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه . ثم قال : الحق ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه وأخذوا شمعون أحد الحواريين وقالوا : هذا من أصحابه فجحد وقال : ما أنا بصاحبه فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه فلما أصبح أتى أحد الحواريين الى اليهود فقال :

ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه وكان شبه عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى وتنهر الشيطان وتبرىء المجنون أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ يبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم فمكث سبعا ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى عليه السلام فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث المصلوب فجاءهما عيسى فقال: ما تبكيان ؟ فقالتا: عليك. فقال: إني رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خيرا وان هذا شبه لهم فأمري الحواريين يلقوني الى مكان وكذا وكذا فلقوه الى ذلك المكان أحد عشر رفقدوا الذي كان باعه ودل عليه اليهود فسأل عنه أصحابه فقال: إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه. فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام تبعهم يقال له يحيى فقال. هو معكم، فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان يحدث بلغة قومه فلينذرهم وليدعهم. بسياق غريب جدا[1].

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال: كان اسم ملك بني اسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقتله رجلا منهم يقال له داود فلما أجمعوا لذلك منه لم يفظع عبد من عباد الله بالموت فيما ذكر لي فظعه ولم يجزع منه جزعه ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه حتى إنه ليقول فيما يزعمون: اللهم ان كنت صارفا هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني حتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دما فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة بعيسى عليه السلام فلما أيقن أنهم داخلون عليه

(١) سياق غريب جدا ويبدو أنه مما وضعه أهل الكتاب وزادوه على الرفع الذي شاهده بعضهم وأخبروا به .

قال لأصحابه من الحواريين وكانوا اثنى عشر رجلا : فوطوس ويعقوبس وبلاونخس أخو يعقوب وانداريس وفيلبس وابن يلما ومنتاوطوماس ويعقوب بن حلقايا وتداوسيس وقتابيا وايودس ذكريا يوطا ، قال ابن حميد قال سلمة قال ابن اسحاق : وكان فيهم فيما ذكر لى رجل اسمه سرجس ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى وذلك أنه هو الذى شبه لليهود مكان عيسى قال فلا أدرى هو من هؤلاء الاثنى عشر أو كان ثالث عشر فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمـــد صلى الله عليه وسلم من الخبر عنه فإن كانوا ثلاثة عشر فانهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر وإن كانوا اثنى عشر فإنهم دخلوا المدخل وهم ثلاثة عشر .

قال ابن اسحاق : وحدثنى رجل كان نصرانيا فأسلم أن عيسى حين جاءه من الله (إنى رافعك إلى) ، قال يا معشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقى فى الجنة حتى يشبه للقوم فى صورتى فيقتلوه فى مكانى فقال سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس فى مجلسى فجلس فيه ، ورفع عيسى عليه السلام فدخلوا عليه فأخذوه فكان هو الذى صلبوه وشبه لهم به وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة قد رأوهم فأحصوا عدتهم فلما دخلوا عليهم ليأخذوه وجدوا عيسى وأصحابه فيما يرون وفقدوا رجلا من العدة فهو الذى اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى حتى جعلوا ليودس ذكريا يوطا ثلاثين درهما على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم : إذا دخلتم عليه فإنى سأقبله وهو الذى أقبل فخذوه ، فلما دخلوا وقد رفع عيسى ورأى سرجس فى صورة عيسى فلم يشك أنه هو فأكب عليه فقبله فأخذوه فصلبوه . ثم إن ايودس ذكريا يوطا ندم على ما صنع فاختنق بحبل حتى قتل نفسه وهو ملعون فى النصارى ، وقد كان أحد

المعدودين من أصحابه وبعض النصارى يزعم أنه ايودس ركريا يوطا هو الذى شبه لهم فصلبوه وهو يقول : إنى لست بصاحبكم أنا الذى دللتكم عليه والله أعلم أى ذلك كان وقال ابن جرير عن مجاهد : صلبوا رجلا شبه عيسى ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حيا واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) قال[١] أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثورى إلى المغيرة بن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده) وإن أول الخلائق يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول « أصحابى » فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » رواه البخارى عند هذه الآية عن أبى الوليد وعن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثورى كلاهما عن المغيرة بن النعمان به .

---

(١) جـ ٢ ص ١٢٠

آيتا النزول

النساء ١٥٩

وقوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا)

قال ابن[١] جرير : اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم : معنى ذلك (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة ، وهى ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام . وقال العوفى عن ابن عباس مثل ذلك .

وقال أبو مالك فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : ذلك عند نزول عيسى موت عيسى بن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وقال الضحاك عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى اليهود خاصة . وقال الحسن البصرى : يعنى النجاشى وأصحابه. رواهما ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا أبو رجاء عن الحسن (وإن من أهل

---

(١) حـ ١ ص ٥،٣

الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : قبل موت عيسى والله إنه لحى الآن عند الله ولـكن إذا نزل آمنوا به أجمعون .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن عثمان اللاحقى حدثنا جويرية بن بشير قال : سمعت رجلا قال للحسن يا أبا سعيد قول الله عز وجل (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر .

وكذا قال قتاده وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد ، وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

قال ابن جرير : وقال آخرون يعنى بذلك (وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به) بعيسى قبل موت الـكتابى ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل فى دينه .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال : لا يموت يهودى حتى يؤمن بعيسى . حدثنى المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الـكتاب . قال ابن عباس : لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى .

حدثنا ابن حميد حدثنا أبو نميله يحيى بن واضح حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس قال : لا يموت اليهودى حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح . حدثنى إسحاق بن ابراهيم وحبيب بن الشهيد حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن سعيد بن جبير عن

ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : هى فى قراءة أبى قبل موتهم ليس يهودى يموت أبدا حتى يؤمن بعيسى . قيل لابن عباس : أرأيت إن خر من فوق بيت قال : يتكلم به فى الهوى . قيل: أرأيت إن ضربت عنق أحدهم . قال : يتلجلج بها لسانه ؛

وكذا روى سفيان الثورى عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت يهودى حتى يؤمن بعيسى عليه السلام وإن ضرب بالسيف تكلم به قال : وإن هوى تكلم به وهو يهوى .

وكذا روى أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبى هارون الغنوى عن عكرمة عن ابن عباس فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس . وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين وبه يقول الضحاك وجويبر .

وقال السدى وحكاه عن ابن عباس ونقل قراءة أبى بن كعب قبل موتهم .

وقال عبد الرازق عن اسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن فى قوله (إلا ليؤمنن به قبل موته) قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت . وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه ويحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء . قال ابن جرير وقال آخرون : معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل موت الكتابى .

(ذكر من قال ذلك) .

حدثنى ابن المثنى حدثنا الحجاج بن المنهال حدثنا حماد عن حميد قال قال عكرمة : لا يموت النصرانى ولا اليهودى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قوله (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول وهو أنه لا يبقى أحد

من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام ، ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلمه لهم من النصارى الجهلة ذلك فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم انه رفعه إليه وإنه باق حى وانه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التى سنوردها إن شاء الله قريبا فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية يعنى لا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى قبل موت عيسى عليه السلام الذى زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أى بأعمالهم التى شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله الى الأرض . فأما من فسر هذه الآية فإن المعنى أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلى له ما كان جاهلا به فيؤمن به ولكن لا يكون ذلك إيمانا نافعا له إذا كان قد شاهد الملك كما قال تعالى فى أول هذه السورة (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيتين وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير فى رد هذا القول حيث قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالمسيح ممن كفر بهما يكون على دينهما وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته فهذا ليس بجيد إذ لا يلزم من إيمانه فى حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلما

ألا ترى قول ابن عباس : ولو تردى من شاهق أو ضرب سيف أو افترسه سبع فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى فالإيمان به فى هذه الحال ليس بنافع ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم . ومن تأمل هذا جيدا وأمعن النظر اتضح له أنه هو الواقع لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته فى السماء وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ما ليس فيه فرفعوه فى مقابلة أولئك عن مقام النبوه الى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علوا كبيرا وتنزه وتقدس لا إله إلا هو .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة) أى[1] ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلا على علم الساعة . . . . ويستمر فى بيانه للايات ثم يعود فيقول (وإنه لعلم للساعة) تقدم تفسير ابن اسحاق أن المراد من ذلك مابعث به عيسى عليه الصلام والسلام من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام وفى هذا نظر .

وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير أن الضمير فى وإنه عائد على القرآن بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام . فان السياق فى ذكره ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال تبارك وتعالى

---

(١) ج ٤ ص ١٣١

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيدا) ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لعلم للساعة) أى أمارة ودليل على وقوع الساعة . قال مجاهد : وإنه لعلم للساعة أى آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس وأبى العالية وأبى مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مقسطا .

ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

قال البخارى رحمه الله فى كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقى بالقبول (نزول عيسى ابن مريم عليه السلام) حدثنا إسحق بن ابراهيم حدثنا يعقوب ابن ابراهيم عن أبى صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) . وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلوانى وعبد بن حميد كلاهما عن يعقوب به ، وأخرجه البخارى ومسلم أيضا من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى به وأخرجاه من طريق الليث عن الزهرى به ، ورواه ابن مردويه من طريق محمد بن أبى حفصة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الدجال ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) موت عيسى ابن مريم ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات .

---

(١) ج ١ ص ٥٧٨ .

(طريق أخرى)

عن أبي هريرة قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا محمد بن أبي حفصة عن الزهري عن حنظلة بن علي الأسلمي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليهلن عيسى ابن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعا » .
وكذا رواه مسلم منفردا به من حديث سفيان بن عيينة والليث بن سعد ويونس ابن يزيد ثلاثتهم عن الزهري به .

وقال أحمد حدثنا يزيد حدثنا سفيان هو ابن حسين عن الزهري عن حنظلة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما » قال وتلا أبو هريرة (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال يؤمن به قبل موت عيسى فلا أدري هذا كله حديث النبي صلى الله عليه وسلم أو شيء قال أبو هريرة ، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي موسى محمد بن المثنى عن يزيد بن هارون عن سفيان بن حسين عن الزهري به .

(طريق أخرى)

قال البخاري حدثنا أبو بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم » تابعه عقيل والأوزاعي وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن عثمان بن عمر عن ابن أبي ذئب كلاهما عن الزهري به ، وأخرجه مسلم عن رواية يونس والأوزاعي وابن أبي ذئب به .

(طريق أخرى)

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا قتادة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل : فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » كذا رواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيي ، ورواه ابن جرير ولم يورد عند هذه الآية سواه عن بشر بن معاذ عن يزيد بن هارون عن سعيد بن أبى عروبة كلاهما عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم وهو مولى أم برثن صاحب السقاية عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وقال : يقاتل الناس على الإسلام .

وقد روى البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي » .

ثم روى عن محمد بن سنان عن فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن ابن أبى عمرة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » وقال إبراهيم بن طهمان عن موسى

ابن عقبة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(حديث آخر)

قال مسلم فى صحيحه حدثنى زهير بن حرب حدثنا يعلى بن منصور حدثنا سليمان بن بلال حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم . خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون : لا والله لا نخلى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ويفتتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم فى أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته » .

(حديث آخر)

قال أحمد حدثنا هشيم عن العوام بن حوشب عن جبلة بن سحيم عن مؤثر ابن غفارة عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب

الرصاص قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتي كافرا فتعال فاقتله قال . فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطئون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ففيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلا أو نهاراً » رواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد ابن هارون عن العوام بن حوشب به نحوه .

(حديث آخر)

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة قال أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم جمعه لنعرض عليه مصحفا لنا على مصحفه فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ثم أتينا بطيب فتطيبنا ثم جئنا المسجد فجلسنا الى رجل فحدثنا عن الدجال ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه فجلسنا فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكون للمسلمين ثلاثة أمصار مصر بملتقى البحرين ومصر بالحيرة ومصر بالشام ففزع الناس ثلاث فزعات فيخرج الدجال في أعراض الناس فيهزم من قبل المشرق فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين فيصير أهلها ثلاث فرق ، فرقة تقول : نقيم نشامه ننظر ما هو ، وفرقة تلحق بالأعراب ، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ، ومع الدجال سبعون ألفا عليهم التيجان وأكثر من معه من اليهود والنساء وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثون سرحا لهم فيصاب سرحهم فيشتد ذلك عليهم ويصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد حتى إن أحدهم ليحرق

وتر قوسه فيأكله فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من الشجر : يا أيها الناس أتاكم الغوث « ثلاثا » فيقول بعضهم لبعض : إن هذا لصوت رجل شبعان وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام عند صلاة الفجر فيقول له أميرهم يا روح الله تقدم صل فيقول : هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض فيتقدم أميرهم فيصلى حتى إذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته فذهب نحو الدجال فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص فيضع حربته بين ثندوته فيقتله ويهزم أصحابه فليس يومئذ شيء يوارى منهم أحدا حتى إن الشجرة تقول : يا مؤمن هذا كافر ، ويقول الحجر : يا مؤمن هذا كافر » تفرد به أحمد من هذا الوجه :

(حديث آخر)

قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه حدثنا على بن محمد حدثنا عبد الرحمن المحاربى إسماعيل بن رافع أبى رافع عن أبى زرعة الشيبانى يحيى ابن أبى عمرو عن أبى أمامة الباهلى قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثا حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال : « لم تكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج كل مسلم وإن يخرج من بعدى فكل حجيج نفسه وان الله خليفتى على كل مسلم وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيبعث يمينا ويبعث شمالا ، ألا يا عباد الله : أيها الناس فاثبتوا وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلى : إنه يبدأ فيقول أنا نبي فلا نبي بعدى، ثم يثنى فيقول أنا ربكم ، ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور وان ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ، وإن من فتنته أنه معه

جنة ونارا فناره جنة وجنته نارا فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على ابراهيم ، وإن من فتنته أن يقول لأعرابى: أرأيت إن بعثت لك أمك وأباك أتشهد أنى ربك ؟ فيقول : نعم فيتمثل له شيطان فى صورة أبيه وأمه فيقولان : يا بنى اتبعه فإنه ربك ، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمنشار حتى تلقى شقتين ثم يقول : أنظر الى عبدى هذا فإنى أبعثه الآن ثم يزعم أن له ربا غيرى ، فيبعثه الله فيقول له الخبيث : من ربك فيقول : ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك منى اليوم ، قال أبو حسن الطنافسى فحدثنا المحاربى حدثنا عبيد الله بن الوليد الرصافى عن عطية عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة » قال قال أبو سعيد : والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله .

قال المحاربى : ثم رجعنا إلى حديث أبى رافع قال : « وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت وإن من فتنته أن يمر بالحى فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتنته أن يمر بالحى فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر وأدره ضروعا ، وأنه لا يبقى شىء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينفى الخبث منها كما ينفى الكير خبث الحديد ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص » فقالت أم شريك بنت أبى العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ ؟ قال : « هم قليل وجلهم يومئذ ببيت المقدس

وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام الصبح فرجع ذلك الإمام يمشى القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يديه بين كتفيه ، ثم يقول : تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلى بهم أمامهم . فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء وينطلق هاربا ، فيقول عيسى : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها فيدركه عند باب اللد الشرقى فيقتله ويهزم الله اليهود فلا يبقى شىء مما خلقه الله يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشىء ولا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الفرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال : يا عبدالله المسلم : هذا يهودى فتعال اقتله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والشهر كالجمعة وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسى » فقيل له : كيف نصلى يا نبى الله فى تلك الأيام القصار ؟ قال : « تقدرون الصلاة كما تقدرون فى هذه الأيام الطوال ثم صلوا » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فيكون عيسى ابن مريم فى أمتى حكما عدلا وإماما مقسطا يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة فلا يسعى على شاة ولا بعير وترتفع الشحناء والتباغض وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده فى فى الحية فلا تضره وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله وتضع الحرب أوزارها وتسلب قريش ملكها وتكون الأرض لها نور الفضة وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ويكون الفرس بالدريهمات » قيل يا رسول الله وما يرخص الفرس ؟

قال: « لا تركب لحرب أبدا » قيل له: فما يغلى الثور؟ قال: « يحرث الأرض كلها وإن قبل خروج الدجال خلال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد ويأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها، ثم يأمر الله عز وجل السماء فى السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله » قيل: فما يعيش الناس فى ذلك الزمان؟ قال: « التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجرى ذلك عليهم مجرى الطعام » قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطنافسى يقول سمعت عبد الرحمن المحاربى يقول: ينبغى أن يدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان فى الكتاب. هذا حديث غريب جدا من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر: من ذلك ما رواه مسلم وحديث نافع وسالم عن عبد الله ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودى فتعال فاقتله »: وله من طريق سهيل ابن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله — إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » ولنذكر حديث النواس بن سمعان ههنا لشبهه بهذا الحديث.

قال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الطائى قاضى حمص حدثنى عبد الرحمن ابن جبير عن أبيه جبير بن نفير الحضرمى أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى (ح) وحدثنا محمد بن مهران الرازى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الرحمن

ابن يزيد بن جابر عن يحيى بن جابر الطائى عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جبير بن نفير عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فى وجوهنا فقال : (ما شأنكم ؟) قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال : (غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط عينه طافية كأنى أشبهه بعبد العزى قطن من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا) قلنا : يا رسول الله فما لبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم) قلنا : يا رسول الله وذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : (لا . أقدروا له قدره) قلنا : يا رسول الله وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : (كالغيث استدبرته الريح فيأتى على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك فتتبعه بكنوزها كيعا سيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ، ثم يأتى عيسى عليه السلام

قوما قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى أنى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للأرض أخرجى ثمرك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، فبينماهم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة) : ورواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به . وسنذكره أيضا من طريق أحمد عند قوله تعالى فى سورة الأنبياء (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) الآية .

(حديث آخر)

قال مسلم فى صحيحه أيضا حدثنا عبد الله بن معاذ العنبرى حدثنا أبى حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى يقول سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذى تحدث به

تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال : سبحان الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوها لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيما : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين — لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهراً أو أربعين عاما — فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة ابن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ؛ قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا[1] ورفع ليتا) قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله ، أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل ، أو قال الظل — نعمان الشاك — فتنبت منه أجساد الناس (ثم ينفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون) ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم (وقفوهم إنهم مسئولون) ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون . قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق ، ثم رواه مسلم والنسائى فى تفسيره جميعا عن محمد ابن بشار عن غندر عن شعبة عن نعمان بن سالم به .

---

(١) ليتا : خدا اه . شيخنا .

(حديث آخر)

قال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرازق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبد الله ابن عبيد الله بن ثعلبة الأنصارى عن عبد الله بن زيد الأنصارى عن مجمع ابن حارثة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد أو إلى جانب لد) . ورواه أحمد أيضا عن سفيان بن عيينة من حديث الليث والأوزاعى ثلاثتهم عن الزهرى عن عبد الله بن عبيد الله ابن ثعلبة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن حارثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يقتل ابن مريم الدجال بباب لد) . وكذا رواه الترمذى عن قتيبة عن الليث به وقال : هذا حديث صحيح قال : وفى الباب عن عمران ابن حصين ونافع بن عيينة وأبى برزة وحذيفة بن أسيد وأبى هريرة وكيسان وعثمان ابن أبى العاص وجابر وأبى أمامة وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وسمرة ابن جندب والنواس بن سمعان وعمرو بن عوف وحذيفة بن اليمان رضى الله عنهم . ومراده رواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال وقتل عيسى ابن مريم عليه السلام . فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً وهى أكثر من أن تحصى لانتشارها وكثرة روايتها فى الصحاح والحسان والمسانيد وغير ذلك .

(حديث آخر)

قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن فرات عن أبى الطفيل عن حذيفة ابن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال : (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ابن مريم والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم

حيث بانوا وتقيل معهم حيث قالوا) . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فرات القزاز به ورواه مسلم أيضا من رواية عبد العزيز بن رفيع عن أبى الطفيل عن أبى شريحة عن حذيفة بن أسيد الغفارى موقوفا والله أعلم .

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية أبى هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبى العاص وأبى أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله ابن عمرو بن العاص ومجمع بن حارثة وأبى شريحة وحذيفة بن أسيد رضى الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح وقد بنيت فى هذه الأعصار فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموى بيضاء من حجارة منحوتة عوضا عن المنارة التى هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وكان أكثر عمارتها من أموالهم وقويت الظنون أنها هى التى ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم فى الصحيحين . وهذا إخبار من النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وتقرير وتشريع وتسويغ له على ذلك فى ذلك الزمان حيث تنزاح عللهم وترتفع شبههم من أنفسهم ولهذا كلهم يدخلون فى دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلى يديه ولهذا قال تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية وهذه الآية كقوله : (وإنه لعلم للساعة) وقرىء (لعلم) بالتحريك أى أمارة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه كما ثبت فى الصحيح (إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء) ويبعث الله فى أيامه يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه وقد قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق) الآية .

صفة عيسى عليه السلام[1]

قد تقدم فى حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة : (فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل) وفى حديث النواس بن سمعان : (فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه مثل جمان اللؤلؤ ، ولا يحل لكافر أن يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث انتهى طرفه) . وروى البخارى ومسلم من طريق الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليلة أسرى بى لقيت موسى) قال : فنعته فإذا رجل قال أحسبه مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة) قال : (ولقيت عيسى) فنعته النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس) يعنى الحمام (ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به) الحديث . وروى البخارى من حديث مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأيت موسى وعيسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط) وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يوما بين ظهرانى الناس المسيح الدجال فقال : (إن الله ليس بأعور إلا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية) . ولمسلم عنه مرفوعا (وأرانى الله عند الكعبة فى المنام وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء واضعا يديه على منكبى رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟

---

(١) جـ ١ ص ٥٨٣

قالوا : هو المسيح ابن مريم ثم رأيت وراءه رجلا جعد قطط أعور العين اليمنى كأشبه من رايت بابن قطن واضعا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت: من هذا ؟ قالوا : المسيح الدجال) تابعه عبيد الله عن نافع ثم رواه البخارى عن أحمد بن محمد المكى عن إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال : لا والله ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعيسى أحمر ولكن قال : (بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يتهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء — أو — يهراق رأسه ماء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : ابن مريم ، فذهبت ألتفت فإذا الرجل أحمر جسيم جعد الرأس أعور عينه اليمنى كأن عينه عنبة طافية قلت : من هذا ؟ قالوا : الدجال ، وأقرب الناس به شبها ابن قطن) قال الزهرى رجل من خزاعة هلك فى الجاهلية .

هذه كلها ألفاظ البخارى رحمه الله ، وقد تقدم فى حديث عبدالرحمن بن آدم عن أبى هريرة أن عيسى عليه السلام يمكث فى الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون . وفى حديث عبدالله بن عمر عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه فى الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة فى الصحيح . وقد ورد ذلك فى حديث صفة أهل الجنة أنه على صورة آدم وميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة ، وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رفع وله مائة وخمسون سنة فشاذ وغريب بعيد ، وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى ترجمة عيسى ابن مريم عن بعض السلف أنه يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حجرته فالله أعلم وقوله تعالى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) قال قتادة يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عز وهذا كقوله تعالى فى آخر سورة المائدة (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس) إلى قوله (العزيز الحكيم).

تعقيب . . .

هذا ما قاله ابن كثير ، وهو كما رأينا وثيق الصلة وشديد التأثر بابن جرير الطبرى فهل ينقل عنه ويتفق معه . وإذا كان ابن جرير قد ضعف عود الضمير على أهل الكتاب فى قوله تعالى (قبل موته) وحكم بعوده على عيسى حتى لا يلزم من عود الضمير على الكتابى إيمان الكافر.

فالحق أن ابن كثير والطبرى من قبله وكذلك بقية المفسرين يرون أن آية : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) لا يرجع ضميرها إلى الكتابى فى قوله تعالى (قبل موته) وإنما يرجع إلى عيسى . وقد حدد هذا المرجع عندهم بعد ذكر غيره من أوجه رجوع الضمير ، أن الآية مجمل قطعى الثبوت وأن بيان مرجع الضمير هو ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث فى نزول سيدنا عيسى عليه السلام . وأما تعليل ابن كثير لعود الضمير إلى عيسى من جهة اللغة فأولى منه بالصحة تعليل الطبرى لأنه يبقى لفظ (قبل) على معناه الحقيقى دون نقل لمعنى آخر كما فعل ابن كثير وإن كان كلاهما بما ذكر من حديث قد وضح بيان المجمل القطعى وأصبحت الآية واضحة لا خفاء فيها ولا مجال لبحث عقلى يرد النزول ويدعى التأويل . ويرجع الضمير لغير ما يفقه السنة وإن جازت اللغة إذ فرق بين تجويز اللغة لعود الضمير إلى متعدد وبين بيان الشارع أى مرجع للضمير هو المقصود فاللغة تذكر أوجهها والدليل الشرعى يحدد المراد منها وهذا أحد أنواع بيان المجمل كما هو مقرر فى علم الأصول .

تنوير المقياس من تفسير ابن عباس

لأبى طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادى

المتوفى سنة ٨١٧ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أرادوا[١] يعنى اليهود قتل عيسى (ومكر الله) أراد الله قتل صاحبهم تطيانوس (والله خير الماكرين) أقوى المريدين ، ويقال : أفضل الصانعين (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك) مقدم ومؤخر ، يقول : إنى رافعك (إلىّ ومطهرك) منجيك (من الذين كفروا) بك (وجاعل الذين اتبعوك) اتبعوا دينك (فوق الذين كفروا) بالحجة والنصرة (إلى يوم القيامة) ثم متوفيك قابضك بعد النزول ، ويقال : متوفى قلبك من حب الدنيا (ثم إلىّ مرجعكم) بعد الموت (فأحكم بينكم) فأقضى بينكم (فيما كنتم فيه) فى الدين (تختلفون) تخاصمون .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم) وبقولهم[٢] (إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أهلك الله صاحبهم تطيانوس (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) ألقى شبه عيسى

---

(١) جـ ١ ص ٥٠ المطبعة المصرية ببولاق .

(٢) جـ ١ ص ٨٤

على تطيانوس فقتلوه بدل عيسى (وإن الذين اختلفوا فيه) فى قتله (لفى شك منه) من قتله (ما لهم به) بقتله (من علم إلا اتباع الظن) ولا الظن (وما قتلوه يقيناً) أى يقيناً ما قتلوه (بل رفعه الله إليه) إلى السماء (وكان الله عزيزاً) بالنقمة من أعدائه (حكيماً) بالنصرة لأوليائه نجى نبيه وأهلك صاحبهم .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى) رفعتنى[١] من بينهم (كنت أنت الرقيب عليهم) الحفيظ والشهيد عليهم (وأنت على كل شىء) من مقالتى ومقالتهم (شهيد) عليم .

(١) ج ١ ص ١٠٢

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من) وما من[1] (أهل الكتاب) اليهود والنصارى أحد (إلا ليؤمنن به) بعيسى أنه لم يكن ساحراً ولا الله ولا ابنه ولا شريكه (قبل موته) قبل خروج نفسه بعد نزول عيسى ثم يموت بعد كل يهودى يكون فى زمنهم (ويوم القيامة يكون) عيسى (عليهم شهيداً) بالبلاغ .

الزخرف ٦١

(وإنه) يعنى[2] نزول عيسى (لعلم للساعة) لبيان قيام الساعة ، ويقال : علامة لقيام الساعة إن قرئت بنصب العين واللام (فلا تمترن بها) فلا تشكن بها بقيام الساعة (واتبعون) بالتوحيد (هذا) التوحيد (صراط مستقيم) .

تعقيب . . .

هذا التفسير كما ترى من اسمه يقوم - كما يدعى صاحبه - على أساس ما نقل عن ابن عباس من مأثور فى التفسير لم نر فيه إنكاراً لرفع عيسى بجسده وروحه أو لنزوله كذلك ، وإنما رأينا إثباتاً قاطعاً لهما بكل ما أثر عن ابن عباس .

---

(١) جـ ١ ص ٨٤ .

(٢) جـ ١ ص ٣٥٨ .

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان

للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى

المتوفى سنة ٨٥٠ ﻫ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) يعنى[١] كفار بنى اسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر (ومكر الله) المكر فى اللغة السعى بالفساد فى خفية ومداجاة . قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، وقيل : أصله من إجماع الأمر وإحكامه ومنه امرأة ممكورة مجتمعة الخلق ، فلما كان المكر رأيا محكما قويا مصونا عن جهات النقص والفتور لاجرم سمى مكرا أما مكرهم بعيسى عليه السلام فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله بهم فهو أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال السوء إليه .

روى أن ملك اليهود أراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل لا يفارقه ساعة فأمره جبريل أن يدخل بيتا فيه روزنة فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره فمن وكل به ليقتله غيلة فأخذ وصلب ، وتفرق الحاضرون ثلاث فرق : فرقة قالت كان الله معنا فذهب ، وأخرى قالت كان الله ، وأخرى قالت كان عبد الله ورسوله . وقيـــل : إن الحواريين كانوا اثنى عشر وكانوا مجتمعين فى بيت فنافق واحد منهم ودل اليهود عليه فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى عليه السلام وذكر محمد ابن اسحاق أن

---

(١) ج ٣ ص ١٩٩ ؛ هامش الطبرى .

اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى فشمسوهم ولقوا منهم الجهد فسمع بذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل أنه قتل رجلا من بنى اسرائيل ممن يحب أمرك وكان غيرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفعل ما فعل فقال : لو علمت ذلك ما خليت بينه وبينهم ، ثم بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام فأخبروه فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ثم غزا بنى اسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ، وكان اسم هذا الملك طيارس وهو صار نصرانيا إلا أنه ما أظهر ذلك ، ثم انه جاء بعده ملك آخر يقال له طيطس وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك فى حاشية بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز، فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله ، وقيل انهم مكروا فى إخفاء أمره وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل أعداءهم اليهود (والله خير الماكرين) أقواهم مكرا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب ، واعلم أن المكر إن كان عبارة عن الإحتيال فى إيصال الشر فهو فى حق الله تعالى محال فاللفظ إذن من المتشابهات ، فيجب أن يؤول بأن جزاء المكر يسمى مكرا كقوله : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، أو بأنه تعالى عاملهم معاملة من يمكر وهو عذابهم على سبيل الاستدراج وإن كان المكر عبارة عن التدبير المحكم الكامل لم يكن اللفظ متشابها لأنه غير ممتنع فى حق الله تعالى إلا أنه قد اختص فى العرف بالتدبير فى إيصال الشر إلى الغير (إذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو مفعول اذكر (يا عيسى إنى متوفيك) أى متمم عمرك وعاصمك من أن يقتلك الكفار الآن بل أرفعك إلى سمائى وأصونك من أن يتمكنوا من قتلك، وقيل متوفيك أى مميتك كيلا يصل أعداءك من اليهود إلى مثلك ثم أرفعك

إلى وهـذا القول مروى عن ابن عباس ومحمد بن اسحاق ثم قال وهب : توفى ثلاث ساعات ثم رفع وأحيى وقال محمـد بن إسحاق : توفى سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه ، وقال الربيع بن أنس : أنه نومه ورفعه الى السماء نائما حتى لا يلحقه خوف ورعب أخذه من قوله : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها . وقيل : التوفى أخذ الشىء وافيا أى آخذك بروحك وجسدك جميعا فرافعك إلى دفعا لوهم من توهم أنه أخذ بروحه دون جسده ، وقيل : متوفيك قابضك من الأرض من توفيت مالى على فلان أى استوفيته ، وقيل : أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع الى السماء انقطع خبره وأثره عن الأرض فيكون من باب اطلاق الشىء على مايشابهه فى أكثر خواصه وصفاته ، وقيل : المضاف محذوف أى متوفى عملك ورافع طاعتك فـكأنه بشره بقبول طاعته وأن ما وصل إليه من المتاعب فى تمشية دينه وإظهار شريعته فهو لا يضيع أجره فهذا كقوله : إليه يصعد الـكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وقيل : فى نسق الـكلام تقديم وتأخير فإن الواو لا تقتضى الترتيب ، والمعنى : إنى رافعك إلى ومتوفيك بعد إنزالك الى الدنيا ، ويؤيده ما ورد فى الخبر أنه سينزل ويقتل الدجال ، ثم أنه تعالى يتوفاه بعد ذلك ، أما قوله : ورافعك إلى فالمشبهة تمسكوا بمثله فى إثبات المـكان لله تعالى وأنه فى السماء ولـكن الدلائل القاطعة دلت على أنه متعال عن الحيز والجهة فوجب حمل هذا الظاهر على التأويل بأن المراد إلى محل كرامتى ومقر ملائـكتى ، ومثله قول ابراهيم . إنى ذاهب إلى ربى ، وإنما ذهب من العراق الى الشام ، وقد سمى الحجاج زوارا لله ، والمجاورون جيران الله والمراد التفخيم والتعظيم أو المراد الى مكان لا يملك الحـكم عليه هناك غير الله فان فى الأرض ملوكا مجازية ، ولئن سلم أنه تعالى يمـكن أن يـكون فى مكان فليس رفع عيسى عليه السلام إلى ذلك المـكان سببا لبشارته مالم يتيقن الثواب والـكرامة والروح والراحة فلأن من صرف اللفظ عن

ظاهره وهو ان يقال المراد رفعه الى محل كرامته وإذا لم يكن بدون الاضمار فلم يبق فى الآية دلالة على إثبات المكان له تعالى ثم انه كما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه عبر لذلك عن معنى التخليص بلفظ التطهير فقال (ومطهرك من الذين كفروا) أى من خبث جوارهم وسوء عشرتهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) وليس هذا فوقية المكان بالاتفاق فالمراد أما الفوقية بالحجة والدليل وأما الفوقية بالقهر والاستعلاء وفيه اخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم الى يوم القيامة ولعمرى أنه كذلك فلا يرى ملك اليهود فى الدنيا ولا بلد لهم مستقل بخلاف النصارى على أن نقول المراد بمتبعى المسيح هم الذين كانوا يؤمنون به بأنه عبد الله ورسوله ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعده فصدقوه فى قوله : ومبشرا برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد ، أو المتبعون هم المسلمون الذين اتبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى ، واعلم أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره قال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) فأورد بعض الملحدة عليه اشكالات :

الأول : أنه يوجب ارتفاع الأمان عن المحسوسات ، فإنى إذا رأيت ولدى ثم رأيته ثانيا فحينئذ أجوز أن هذا الذى رأيته ثانيا ليس ولدى بل هو إنسان آخر ألقى شبهه عليه وكذا الصحابة الذين رأوا محمدا يأمرهم وينهاهم احتمل أن يكون محمد إنسانا آخر ألقى شبهه عليه وأنه يفضى الى سقوط الشرائع وكذا الى ابطال التواتر لأن مدار الأمر فى الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس وأنتم جوزتم وقوع الغلط فى المبصرات ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره ابطال النبوات .

الثانى : أن جبريل كان معه حيث سار ثم إن طرف جناح واحد منه يكفى

لأهل الأرض فكيف لم يكف فى منع هؤلاء اليهود ؟ وأنه صلى الله عليه وسلم كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء والقاء الفالج والزمانة عليهم حتى لا يتعرضوا له .

الثالث : أنه تعالى كان قادرا على تخليصه من الأعداء بأن رفعه الى السماء فما الفائدة فى إلقاء شبهه على الغير ؟ وهل فيه إلا إيقاع مسكين فى القتل من غير فائدة مع أن ذلك يوجب تلبيس الأمر عليهم حتى اعتقدوا أن المصلوب هو عيسى وأنه لم يكن عيسى والتمويه والتخليط لا يليق بحكمة الله تعالى .

الرابع : أن النصارى على كثرتهم فى المشارق والمغارب وافراطهم فى محبة عيسى أخبروا أنهم شاهدوه مصلوبا فإنكار ذلك انكار المتواتر والطعن فى المتواتر يوجب الطعن فى نبوة جميع الأنبياء .

الخامس: ثبت بالتواتر أن المصلوب بقى حيا زمانا طويلا فلو كان هو غير عيسى لأظهر الجزع وعرف نفسه ولو فعل ذلك اشتهر وتواتر .

والجواب عن الأول : أن كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر على خلق مثل زيد وهذا التجويز لا يوجب الشك فى وجود زيد فكذا فيما ذكرتم .

وعن الثانى والثالث : أن ذلك يفضى الى بلوغ الإعجاز حد الإلجاء وانه ينافى التكليف والتلبيس المذكور قد أزاله تلامذة عيسى الحاضرون منه العالمون بالواقعة .

وعن الرابع : أنه تواتر منقطع الأول لأنهم كانوا قليلين فى ذلك الوقت فلا يفيد العلم إذ شرط التواتر استواء الطرفين والوسط .

وعن الخامس : ما روى أن الذى ألقى عليه الشبه كان من خواص أصحابه فلهذا صبر .

على أنا نقول قد ثبت بالمعجزات القاطع صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى كل

ما أخبر عنه . فهذه الاحتمالات تمتنع أن تصير معارضة للنص القاطع والله ولى الهداية .

قال (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) وفيه بشارة لعيسى بأنه سيحكم بين المؤمنين وبين الجاحدين وتفسيره قوله (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا) فى الدنيا بالقتل والسبى والذلة وأنواع المصائب والرزايا التى لا ثواب عليها ، والآخرة بدخول النار خالدين فيها وما لهم من ناصرين (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين) الواضعين الشىء فى غير موضعه التكذيب فى مقام التصديق والعمل السيىء مكان العمل الصالح وذلك أن المحبة عبارة عن إيصال الخير إليه وهو وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لم يوصل الثواب إليه وقالت المعتزلة : المحبة والإرادة واحدة فالمعنى أنه لا يريد ظلم العالمين .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

قوله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) قالوا[1] على وجه الاستهزاء كقول فرعون (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أو أنه تعالى جعل الذكر الحسن مكان القبيح الذى كانوا يطلقونه عليه من الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة (وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) أى المقتول لهم لدلالة ذكر قتلنا على المقتول ، أو يكون شبه مسند إلى الجار والمجرور وهولهم أى وقع لهم التشبيه ولا يجوز أن يكون فى شبه ضمير المسيح لأنه المشبه به وليس بمشبه ، قال أكثر المتكلمين : إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله الى السماء فخاف رؤساء اليهود وقوع الفتنة فيما بين عوامهم فأخذوا

(١) ج ٦ ص ١٤ هامش الطبرى

إنسانا قتلوه وصلبوه، وألبسوا على الناس أنه هو المسيح والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلا بالإسم لأنه كان قليل المخالطة مع الناس، وقيل : ان اليهود لما علموا أنه فى البيت الفلانى مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل على عيسى ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه أخرج الله تعالى عيسى من سقف البيت ، وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى فخرج فظنوا أنه هو المسيح فصلبوه وقتلوه .

وقيل : وكل بعيسى عليه السلام رجلا يحرسه وصعد عيسى فى الجبل ورفع إلى السماء وألقى الله الشبه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول : لست عيسى .

وقيل : ان رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم « اللهم أنت ربى وبكلمتك خلقتنى اللهم العن من سبنى وسب والدتى ، فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير ، فأجمعت اليهود على قتله فلما هموا بأخذه وكان معه عشرة من أصحابه قال لهم : من يشترى الجنة بأن يلقى عليه شبهى ، فقال واحد منهم : أنا ، فألقى الله شبه عيسى عليه فأخرج وقتل ورفع الله عيسى .

وقيل : كان رجل يدعى أنه من أصحاب عيسى وكان منافقا فذهب إلى اليهود ودلهم عليه ، فلما دخل مع اليهود لأخذه ألقى الله شبهه عليه فقتل وصلب .

(وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه) قيل : ان المختلفين هم اليهود لما قتلوا الشخص المشبه ونظروا إلى بدنه ، قالوا : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ .

وقيل ان المختلفين هم النصارى وذلك أنهم بأسرهم متفقون على أن اليهود قتلوه ، إلا كبار فرق النصارى ثلاثة : النسطورية ، والملكانية ، واليعقوبية .

فالنسطورية : زعموا أن المسيح صلب من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ،

وهو قريب من قول الحكماء أن القتل والموت يرد على الهيكل لا على النفس المجردة . وعلى هذا فالفرق بين عيسى وبين سائر المصلوبين أن نفسه كانت قدسية علوية مشرقة قريبة من عالم الأرواح فلم يعظم تألمها بسبب القتل وتخريب البدن .

وقالت الملكانية : القتل والصلب وصل إلى اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة .

وقالت اليعقوبية : القتل والصلب وقعا للمسيح الذى هو جوهر متولد من جوهرين ، والشك فى الأحكام استواء طرفى نقيضه عند الذاكر وقد يطلق عليه الظن ولهذا ذم فى قوله : (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) ، وأما العمل بالقياس فليس من اتباع الظن فى شيء لأنه عمل بالطرف الراجح ولأن العلم بوجوب العمل قطعى ، ثم قال (وما قتلوه يقينا) وانه يحتمل عدم يقين القتل أى قتلا يقينا أى متيقنين ، واليقين عقد جازم مطابق ثابت الدليل ويحتمل يقين عدم القتل على أن يقينا تأكيد لقوله (وما قتلوه) أى حق انتفاء قتله حقا وهذا أولى لقوله : (بل رفعه الله إليه) . وقيل : هو من قولهم قتلت الشيء علما إذا تبالغ فيه علمه فيكون تهكما بهم لأنه نفى عنهم العلم أولا نفيا كليا ثم نبه بقوله (وكان الله عزيزا حكيما) على أن رفع عيسى إلى السماء بالنسبة إلى قدرته سهل وأن فيه من الحكم والفوائد ما لا يحصيها إلا هو .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

ثم قال (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)

فقوله[1] (إلا ليؤمنن به) جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف ، وإن هي النافية . التقدير : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به كقوله (وما منا إلا له مقام معلوم) والضمير في (به) عائد إلى عيسى ، وفي (موته) إلى أحد ، عن شهر بن حوشب قال لي الحجاج : آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها يعني هذه الآية ، وقال : إني أوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت . ان اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا : يا عدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبي ، وتقول للنصراني : أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن به أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه . قال : وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر الي وقال : ممن ؟ قلت : حدثني محمد بن علي بن الحنفية ، فأخذ ينكث الأرض بقضيبه ثم قال : لقد أخذتها من عين صافية أو من معدنها .

وعن ابن عباس أنه فسره كذلك فقال له عكرمة . فإن أتاه رجلا فضرب عنقه ؟ قال . لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه . قال : وإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع ؟ قال : يتكلم بها في الهواء ولا يخرج روحه حتى يؤمن به .

وفائدة هذا الاخبار الوعيد والزام الحجة والبعث على معاجلة الإيمان به

---

(١) ج ٦ ص ١٧ — ٢١ هامش الطبري

فى أوان الانتفاع لأنه إذا لم يكن بد من الإيمان به فلأن يؤمنوا به حال التكليف ليقع معتدا به أولى .

وقيل : الضميران فى (به) وفى (موته) لعيسى ، فالمراد بأهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله .

روى أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ويهلك الله فى زمان المسيح الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود والنمور مع الإبل والبقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه .

قال بعض المتكلمين : ينبغى أن يكون هذا عند ارتفاع التكاليف أو بحيث لا يعرف ، إذ لو نزل مع بقاء التكاليف على وجه يعرف أنه عيسى فإما أن يكون نبيا ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم أو غير نبى وعزل الأنبياء لا يجوز . وأجيب بأنه كان نبيا الى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وبعد ذلك انتهت مدة نبوته فلا يلزم عزله فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم .

قال فى الكشاف : ويجوز أن يراد أنه لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله تعالى يحييهم من قبورهم فى ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم .

وقيل : الضمير فى (به) يرجع الى الله تعالى . وقيل : الى محمد صلى الله عليه وسلم .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) يشهد على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله وكذلك كل نبى شاهد على أمته .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة)

ثم بين[1] مآل حال عيسى عليه السلام بقوله (وإنه) يعنى عيسى (لعلم للساعة) علامة من علامات القيامة كما جاء فى الحديث : أنا أولى الناس بعيسى ليس بينى وبينه نبي وانة أول نازل يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام . وقيل : إذا نزل عيسى رفع التكاليف . وقيل : إن عيسى كان يحيي الموتى فعلم به الساعة والبعث . وقيل : الضمير فى (وإنه) للقرآن أى القرآن يعلم مقه . وفيه ثبوت الساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن فيها (واتبعون) هذه حكاية قول النبى صلى الله عليه وسلم ، أو المراد واتبعوا رسولى وشرعى.

تعقيب . . .

وهكذا انهينا من قراءة تفسير النظام النيسابورى فلم نجد فيه رأيا يخالف إجماع المسلمين من عهد نبيهم إلى عهده . هذا الاجماع القائم على إثبات الرفع بالروح والجسد وكذلك إثبات النزول .

وقد بدا واضحا للقارىء مدى تأثير النيسابورى فى تفسيره بالرازى وبخاصة فى حديثه عن المشبهة وعن الملاحده ، وزاد النيسابورى بيان صلة رأى الفلاسفة فى الموت برأى وفكر النصارى .

---

(١) جـ ٢٥ ص ٦٣— ٦٤

الفتوحات الإلهية

بتوضيح تفسير الجلالين

للشيخ سليمان الجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ ﻫ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أى[1] كفار بنى اسرائيل بعيسى إذ وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله فقتلوه ورفع عيسى إلى السماء (والله خير الماكرين) أعلم بهم اذكر .

(قوله ومكر الله بهم) هذا من باب المقابلة إذ لا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر إلا لأجل ما ذكر معه من لفظ آخر مسند لمن يليق به وهذا كما تقدم هكذا قيل وقد جاء ذلك من غير مقابلة فى قوله أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله، والمكر فى اللغة أصله الستر يقال مكر الليل أى أظلم وستر بظلمته مافيه، وقالوا: واشتقاقه من المكر وهو شجر ملتف تخيلوا منه أن المكر يلتف بالممكور به ويشتمل عليه ، وامرأة ممكورة الخلق أى ملتفة الجسم وكذا ممكورة البطن ثم أطلق المكر على الخبث والخداع ولذلك عبر عنه بعض أهل اللغة بأنه السعى بالفساد، قال الزجاج : وهو مكر الليل وأمكر أى أظلم وعبر بعضهم عنه فقال : وهو صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان : محمود ، وهو أن يتحرى به فعل جميل ومن ذلك قوله : والله خير الماكرين . ومذموم : وهو أن يتحرى به

---

(١) جـ ١ ص ٢٧٨ المطبعة الميمنية .

. . . .

فعل قبيح نحو : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله اه سمين (قوله على من قصد قتله) أى على رجل من اليهود قصد أى ذلك الرجل قتله أى قتل عيسى وذلك أن عيسى لما تحقق منهم أنهم يقتلونه واجتمعوا على قتله بعث الله إليه جبريل فأدخله خوخة فى سقفها فرجة ورفعه الله من تلك الفرجة وأمر ملك اليهود رجلا منهم يقال ططيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله فيها فلما دخلها لم ير عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه قالوا له : أنت عيسى ، فقال : أنا صاحبكم ، فلم يلتفتوا الى قوله . فلما قتلوه قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فوقع بينهم قتال عظيم اه خازن (قوله والله خير الماكرين) أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب صاحبه اه أبو السعود وعبارة المكر فى قوله أعلمهم به أى بالمكر فيه إشارة إلى أن المكر لا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة أو الازدواج لأنه حيلة تجلب بها غير الى مفسدة ظاهرة انتهت .

(إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك) قابضك(*) (ورافعك إلى) من الدنيا من غير موت (ومطهرك) مبعدك من الذين كفروا (وجاعل الذين اتبعوك) صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى (فوق الذين كفروا) بك وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف (إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين .

قوله(*) (إنى متوفيك ورافعك) فيه وجهان: أظهرهما: أن الكلام على حاله من غير ادعاء تقديم وتأخير فيه بمعنى إنى مستوفى أجلك ومؤخرك وعاصمك من أن يقتلك الكفار الى أن تموت حتف أنفك من غير أن تقتل بأيدى الكفار ورافعك الى سمائى ، والثانى : أن فى الكلام تقديما وتأخيرا والأصل رافعك إلى ومتوفيك لأنه رفع الى السماء ثم يتوفى بعد ذلك ، والواو لمطلق الجمع ، فلا فرق بين التقديم والتأخير قاله أبو البقاء وبدأ به ولا حاجة الى ذلك مع إمكان إقرار كل واحد فى مكانه بما تقدم من المعنى ، إلا أن أبا البقاء حمل التوفى على الموت وذلك إنما هو بعد رفعه ونزوله الى الأرض وحكمه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ا . هـ . سمين . وعبارة البيضاوى يا عيسى إنى متوفيك أى متوفيك أى مستوفى أجلك ومؤخرك الى أجلك المسمى عاصما إياك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى،أو متوفيك نائما إذ روى إنه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت، وقيل:أماته الله سبع ساعات ثم رفعه الى السماء انتهت (قوله ورافعك إلى) الى محل كرامتى ومقر ملائكتى ا . هـ أبو السعود (قوله من الدنيا) أطلق الدنيا على الأرض لأنها بما فيها شاغلة عن الله وأما السماء فليس فيها الا محض العبادة فليست دنيا بهذا الاعتبار ا . هـ شيخنا (قوله من غير موت) راجع لمتوفيك ورافعك (قوله مبعدك) أى مخرجك من بينهم لأن كونه فى جملتهم بمنزلة التنجيس له بهم ا . هـ كرخى (قوله من الذين كفروا) أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس

. . . .

معاشرتهم ا . ه أبو السعود قوله (وجاعل الذين اتبعوك) ألخ ، فيه قولان اظهرهما: أنه خطاب لعيسى علية السلام، والثانى:أنه خطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيكون الوقف على قوله من الذين كفروا تاما والابتداء بما بعده وجاز هذا لدلالة الحال عليه وفوق الذين كفروا ثانى مفعولى جاعل لأنه بمعنى مصير فقط، وإلى يوم متعلق بالجعل . يعنى أن هذا الجعل مستمر الى ذلك اليوم، ويجوز أن يتعلق بالاستقرار المقدر فى فوق ، أى جاعلهم . قاهرين لهم الى يوم القيامة يعنى أنهم ظاهرين على اليهود وغيرهم من الكفار بالغلبة فى الدنيا فأما يوم القيامة فيحكم الله بينهم فيدخل الطائع الجنة والعاصى النار وليس المعنى على انقطاع ارتفاع المؤمنين على الكافرين بعد الدنيا وانقضائها لأن لهم استعلاء آخر غير هذا الاستعلاء ا . ه

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم) مفتخرين[1] (إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) فى زعمهم ، أى بمجموع ذلك عذبناهم ، قال تعالى تكذيباً لهم فى قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) المقتول والمصلوب وهو صاحبهم بعيسى ، أى ألقى الله عليه شبهه فظنوه إياه .

(قوله إنا قتلنا المسيح) قال أبو حيان : لم نعلم كيفية القتل ولا من ألقى عليه الشبه ولم يصح بذلك حديث اه شيخنا قوله (رسول الله) فيه إنهم كفروا به وسبوه وقالوا : هو ساحر ابن ساحرة ، فكيف يقولون فيه رسول الله والجواب إنهم قالوا ذلك تهكماً به على حد قول مشركى مكة فى حق محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، وقول فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، ويشهد لذلك قول الجلال فى نسخة فى زعمه بالإفراد ، وأجيب أيضاً بأن هذا من كلامه تعالى لمدحه وتنزيهه عن مقالتهم فيه فيكون الوقف على ما قبله ، كما قاله ابن جزى فيكون منصوباً بمحذوف ، أى أمدح رسول الله مثلا ، وقولهم : إنا قتلنا المسيح ، أى وصلبناه ، بدليل قوله : وما قتلوه وما صلبوه ، ففيه اكتفاء ، وجملة وما قتلوه وما صلبوه . . الخ حال أو معترضة اه شيخنا (قوله فى زعمهم) متعلق بقوله قتلنا ولكنه غير محتاج إليه لأن تكذيبهم فى القتل معلوم صريحاً ، ومن قوله وما قتلوه ، ولو قال كالبيضاوى وغيره فى زعمه بالإفراد ، ويكون

---

(١) جـ ١ ص ٤٤٢

. . . .

متعلقاً بقول رسول الله لكان أولى لأنه هو الذى يحتاج للتنبيه عليه ، ولو قدم ما ذكره بعد قوله قتلنا لكان ظاهراً فى مراده بخلاف تأخيره بعد رسول الله فيوهم غير المراد ا . ه شيخنا (قوله أى بمجموع ذلك عذبناهم) أشار بهذا إلى أن المجرورات المتقدمة وهى سبعة يتعلق جميعها بعامل واحد ولا يحتاج كل واحد منها إلى افراده بعامل وإلى أن ما قدره أولا بقوله لعناهم لا يتعين بخصوصه بل يصح تقدير كل ما يدل على هوانهم وحقارتهم فلذلك قدره بعضهم لعناهم وبعضهم فعلنا ما فعلنا وبعضهم عذبناهم وهذا الأخير أولى لأنه منطبق على جميع التقديرات والحاصل أنه أشار إلى خصوص المتعلق أولا وأشار ثانيا إلى أن تعميمه أولى تأمل . (قوله تكذيبا لهم فى قتله) أى وفى صلبه (قوله ولكن شبه لهم) روى النسائى عن ابن عباس ان رهطا من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء انتهى خطيب . وفى القرطبى فى آل عمران قال الضحاك : لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم إثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر إبليس جميع اليهود فركب أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين : أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يا نبى الله فألقى اليه مدرعته من صوف وعمامته من صوف وناوله عكازه وألقى الله عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار مع الملائكة ا . ه (قوله المقتول والمصلوب) بدل من الضمير المستتر وقيل نائب الفاعل هو لهم وعبارة الكرخى قوله المقتول والمصلوب أشار به إلى أن شبه مسند إلى ضمير المقتول لأن قولهم إنا قتلنا يدل عليه كأنه قيل ولكن شبه

. . . .

لهم من قتلوه ولا يصح جعله مسندا الى المسيح لأنه مشبه به وليس بمشبه ا . ه
(قوله وهو صاحبهم) أى واحد منهم كان ينافق مع عيسى فلما أرادوا قتله قال أنا
أدلكم عليه فدخل بيت عيسى فرفع عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا
عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى ا. ه أبو السعود (قوله بعيسى) متعلق بشبه
وقوله عليه أى على الصاحب وقوله شبهه أى شبه عيسى (قوله فظنوه إياه) ثم
انهم لما لم يجدوا صاحبهم ولا عيسى وقعوا فى الحيرة فقالوا إن كان هذا عيسى
فأين صاحبنا وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ا . ه شيخنا .

(وإن الذين اختلفوا فيه) أى * فى عيسى (لفى شك منه) من قتله حيث قال بعضهم لما رأوا المقتول ، الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده فليس به . وقال آخرون : بل هو هو (ما لهم به) بقتله (من علم إلا اتباع الظن) استثناء منقطع أى لكن يتبعون فيه الظن الذى تخيلوه (وما قتلوه يقينا) حال مؤكدة لنفى القتل (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا) فى ملكه (حكيما) فى صنعه .

(قوله*لفى شك منه) منه موضع جر صفة لشك أى لفى شك حادث من جهة قتله فتكون من لابتداء الغاية ولا تتعلق بشك إذ لا يقال شككت منه وان ادعى ان من بمعنى فى فليس بمستقيم عند البصريين قاله أبو البقاء وفى الآية إشكالان:أحدهما: ان الظاهر من قوله تعالى:وقولهم إنا قتلنا المسيح الخ أن جميع اليهود على اعتقاد انهم قتلوا عيسى وهذا القول ينافى قوله وإن الذين اختلفوا فيه الخ على ما فسره القاضى يدل على ان بعضهم فى التردد، والثانى: إن الذين اختلفوا فيه بعضهم فى التردد وبعضهم غير متردد بل جازم بقتله فكيف يصح اطلاق الحكم بأن الذين اختلفوا فيه لفى شك ؟ والجواب ان المراد بالشك ههنا ما يقابل العلم وكلهم فى الشك بقتله فى هذا المعنى إذ ليس لهم علم به وأما تردد بعضهم فى قتله فمعناه أنهم اعتقدوا اعتقادا راجحا فى قتله فاختلج فى قلوبهم الشبهة المذكورة ا . ه (قوله فليس به) أى فليس هذا المقتول به أى بعيسى أى ليس هو عيسى وفى بعض النسخ فالتبس به والأولى أوضح كما لا يخفى (قولهم ما لهم به من علم) يجوز فى علم وجهان : أحدهما : انه مرفوع بالفاعلية والعامل أحد الجارين اما لهم واما به ، وإذا جعل أحدهما رافعا له تعلق الآخر بما تعلق به الرافع من الاستقرار المقدر، ومن زائدة لوجود شرطى الزيادة، والوجه الثانى : أن يكون مبتدأ زيدت فيه من أيضا ، وفى الخبر احتمالان : احدهما : أن يكون لهم فيكون به ، إما حالا من الضمير المستكن فى الخبر والعامل فيها الاستقرار المقدر، وإما حالا من علم . وإن كان نكرة لتقدمها ولاعتماده على نفى والاحتمال

. . . .

الثانى : ان يكون يه هو الخبر ولهم متعلق بالاستقرار كما تقدم وهذه الجملة المنفية تحتمل ثلاثة أوجه أحدها : الجر على أنها صفة ثانية لشك أى غير معلوم . الثانى: النصب على الحال من شك وجاز ذلك وإن كان نكرة لتخصيصه بالوصف بقوله منه. الثالث: الاستئناف ذكره أبو البقاء وهو بعيد . ا . ه سمين (قوله إلا اتباع الظن) وفى هذا الاستثناء قولان : احدهما : وهو الصحيح الذى لم يذكر الجمهور غيره أنه منقطع ، لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم ، ولم يقرأ فيما علمت إلا بنصب اتباع على أصل الاستثناء المنقطع وهى لغة الحجاز . والثانى : قال ابن عطية : انه متصل ، قال : لأن العلم والظن يجمعهما مطلق الإدراك ا . ه سمين قوله : (استثناء منقطع) أى لأن الظن واتباعه ليس من جنس العلم الذى هو اليقين إذ الظن الطرف الراجح ا . ه شيخنا (قوله مؤكدة لنفى القتل) والمعنى انتفى قتلهم له انتفاء يقينا ، أى انتفاؤه على سبيل القطع ، ويجوز أن يكون حالا من وما قتلوه أى ما فعلوا القتل متيقنين أنه عيسى عليه السلام بل فعلوه شاكين فيه ا . ه خطيب وفى السمين قوله يقينا فيه خمسة أوجه : أحدها : أنه نعت مصدر محذوف أى قتلا يقينا . الثانى : أنه مصدر من معنى العامل قبله كما تقدم مجاز ، لأنه فى معناه أى وما تيقنوه يقينا . الثالث : أنه حال من فاعل قتلوه أى وما قتلوه متيقنين لقتله . الرابع : انه منصوب بفعل من لفظه حذف للدلالة عليه أى ما تيقنوه يقينا ويكون مؤكدا لمضمون الجملة المنفية قبله وقدر أبو البقاء العامل على هذا الوجه مثبتا فقال تقديره تيقنوا ذلك يقينا وفيه نظر الخامس : وينقل عن أبى بكر بن الانبارى أنه منصوب بما بعد بل من قوله: رفعه الله اليه وأن فى الكلام تقديما وتأخيرا ، أى بل رفعه الله إليه يقينا وهذا قد نص الخليل فمن دونه على منعه لأن بل لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فينبغى

. . . .

أن لا يصح عنه: وقوله (بل رفعه الله إليه) رد لما ادعوه من قتله وصلبه ا.هـ (قوله حال مؤكدة) أى فيلاحظ القيد بعد وجود النفى أى انتفى القتلى يقينا فهو من باب تيقن العدم لا من عدم التيقن كما قالوه فى سلب العموم وعموم السالب وبالجملة هو نفى للقيد والمقيد مما أى أنه ظهر لهم بعد الشك الأمر وتيقنوا عدم القتل لعدم وجود صاحبهم، أو المعنى قتلا يقينا وأما جعله متعلقا بما بعده فيرده ان ما بعد بل لا يعمل فيما قبلها كما تقدم ا. هـ شيخنا (قوله بل رفعه الله إليه) أى الى موضع لا يجرى فيه حكم غير الله تعالى نظير وإلى الله ترجع الأمور كما فى الفخر وهذا الموضع هو السماء الثالثة كما فى حديث الجامع الصغير: آدم فى السماء الدنيا تعرض عليه أعمال ذريته، ويوسف فى السماء الثانية، وابنا الخالة يحيى وعيسى فى السماء الثالثة الخ وفى بعض المعاريج: أنه فى السماء الثانية ا. هـ شيخنا (قوله عزيزا فى ملكه حكيما فى صنعه) أى فالمراد من العزة كمال الله ومن الحكمة كمال العلم ونبه بهذا على أن رفع عيسى عليه السلام الى السموات وإن كان كالمتعذر على البشر لكنه لا بعد فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته كقوله تعالى: سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام، فإن الإسراء وإن كان متعذرا بالنسبة إلى قدرة محمد إلا أنه سهل بالنسبة لقدرة الله تعالى ا. هـ كرخى؟

(ما دمت فيهم فلما توفيتنى) قبضتنى[1] بالرفع الى السماء (كنت أنت الرقيب عليهم) الحفيظ لأعمالهم (وأنت على كل شىء) من قولى وقولهم بعدى وغير ذلك (شهيد) مطلع عالم به .

(قولة قبضتنى بالرفع الى السماء) أى أخذتنى وافيا بالرفع إلى السماء والتوفى يستعمل فى أخذ الشىء وافيا أى كاملا والموت نوع منه قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ا.ه أبو السعود وهذا جواب عن سؤال هو أن عيسى حى فى السماء فكيف قال فلما توفيتنى مع أن السؤال إنما يتوجه على قول من يقول ان السؤال والجواب وجدا يوم رفعه الى السماء وأما من قال انهما يكونان يوم القيامة وعليه جرى الشيخ المصنف كالجمهور فلا اشكال ا . ه

---

(١) ج ١ ص ٥٤٨

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن) ما (من أهل الكتاب) أحد (إلا ليؤمنن به) بعيسى (قبل موته) أى الكتابى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه إيمان ، أو قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة كما ورد فى حديث (ويوم القيامة يكون) عيسى (عليهم شهيدا) بما فعلوا لما بعث إليهم .

(قوله وإن ما من) أشار الى أن إن هنا نافية والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه أي : وما أحد من أهل الكتاب وحذف أحد لأنه ملحوظ فى كل نفى يدخله الاستثناء نحو : ماقام إلا زيد أى ماقام أحد إلا زيد ا . ه كرخى وفى السمين : وإن من أهل الكتاب ان هنا نافية بمعنى وما من أهل صفة لمبتدأ محذوف والخبر الجملة القسمية المحذوفة وجوابها والتقدير وما أحد من أهل الكتاب إلا والله ليؤمنن به فهو كقوله : ومامنا إلا له مقام معلوم ، أى : مامنا أحد ، وكقوله : وإن منكم إلا واردها ، أى : ما أحد منكم إلا واردها هذا هو الظاهر (قوله إلا ليؤمنن به) أى بعيسى قبل موته أى الكتابى نفسه ، ويقول فى إيمانه أنه عبدالله ورسوله ؛ وعن ابن عباس أنه فسره كذلك ، فقال له عكرمة : فإن أتى الكتابى رجل فضرب عنقه فأين القول المذكور ؟ قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه . قال : فإن خر من فوق بيت أو احترق أكل سبع ؟ قال : يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به ا . ه أبو السعود (قوله حين يعاين ملائكة الموت) عن شهر بن حوشب قال اليهودى إذا حضره الموت

---

(١) ج ١٦ ص ٤٤٥

. . . .

ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا : يا عدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت بأنه عبد الله ورسوله ، ويقال للنصرانى : أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله وابن الله ، فيقول : آمنت بأنه عبد الله ، فأهل الكتاب يؤمنون به ، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان ا . ه خازن (قوله أو قبل موت عيسى الخ) تفسير ثان فى الضمير وعبارة الخازن ، وذهب جماعة من أهل التفسير الى أن الضمير يرجع الى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس ، والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى عيسى وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام . قال عطاء : إذا نزل عيسى الى الأرض لا يبقى يهودى ولا نصرانى ولا أحد يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وانه عبد الله وكلمته انتهت ، وفى السمين : ويروى فى التفاسير أن عيسى حين ينزل الى الأرض يؤمن به كل أحد حتى تصير الملة كلها اسلامية ا . ه (قوله ويوم القيامة) العامل فيه شهيدا وفيه دليل على جواز تقديم خبر كان عليها لأن تقديم المعمول يؤذن بتقديم العامل وأجاز أبو البقاء أن يكون منصوبا بيكون وهذا على رأى من يجيز لكان أن تعمل فى الظرف وشبهه والضمير فى يكون لعيسى وقيل لمحمد عليهما الصلاة والسلام ا . ه سمين (قوله شهيدا) أى : فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم اعتقدوا فيه أنه ابن الله ا . ه أبو السعود .

السراج المنير

الإمام الخطيب الشربيني

المتوفى سنة ٩٧٧ ﻫ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أى[1] كفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر به وذلك أن عيسى عليه الصلاة والسلام بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به ووكلوا به من يقتله غيلة وهى بالكسر أن يخدع غيره فيذهب به إلى موضع فإذا صار إليه قتله فذلك مكرهم ، إذ المكر من المخلوق الخبث والخديعة والحيلة ، وأما من الخالق وهو قوله تعالى (ومكر الله) أى بهم (والله خير الماكرين) أى أعلمهم به . فقال الزجاج : مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه فى مقابلته ، كقوله تعالى : « الله يستهزىء بهم وهو خادعهم » ومكر الله تعالى بهم فى هذه الآية بأن ألقى شبهه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى حتى قتل . روى أن عيسى استقبل رهطاً من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع ذلك عيسى دعا عليهم ولعنهم الله فمسخهم الله خنازير ، فلما رأى ذلك يهوذا رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ، وساروا إليه ليقتلوه ،

---

(١) ج ١ ص ١٨٠ المطبعة الخيرية .

الزخرف ٦١

(وإنه) أى عيسى[1] (لعلم للساعة) تعلم بنزوله (فلا تمترن بها) أى تشكن فيها حذف منه نون الرفع للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين .

(قوله وإنه لعلم) أى وإن نزوله فالكلام على حذف المضاف كما أشار له الشارع والعلم بمعنى العلامة واللام بمعنى على فى قوله للساعة على حذف مضاف أيضا أى على قربها والمعنى : وان نزوله علامة على قرب الساعة ا.هـ شيخنا .

تعقيب . . .

وهذا التفسير كسابقه لم تر فيه خروجا عما أجمع عليه الصحابة من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عهد مؤلفه وهو يثبت الرفع والنزول معا .

وهو كما ترى تعليق على تفسير الجلالين ، ولقد بدا منه سعة اطلاع صاحبه وإلمامه بكتب السابقين ، وبرزت فيه شخصيته المستقلة ، ولم ينقل فيه قولا واحدا يخالف ما عليه إجماع المسلمين على ما جاء فى كتابهم وذكر على لسان نبيهم من رفع عيسى حيا بروحه وجسده ونزوله علما من أعلام الساعة يؤمن به كل من على وجه الأرض عند نزوله ممن لم يكن قد آمن به من قبل .

---

(١) جـ ٤ ص ٩٣

فبعث الله تعالى إليه جبريل فأدخله فى خوخة فى سقفها كوة فرفعه الله تعالى إلى السماء من تلك الكوة ، فأمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه أن يدخل الخوخة ويقتله ، فلما دخل لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه ، فلما صلب جاءت أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله تعالى من الجنون تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى فقال لهما : على من تبكيان ؟ إن الله تعالى رفعنى ولم يصبنى إلا خير ، وأن هذا شبه لهم ، فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى : اهبط إلى مريم فإنه لم يبك عليك أحد بكاها ولم يحزن حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله تعالى إليها ، فاشتعل حين أهبط نور فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة ، ثم رفعه الله تعالى إليه ، وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى ، فلما أصبح الحواريون تحدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى عليه الصلاة والسلام إليهم . وروى أن الله تعالى أرسل إليه سبحانه سحابة فرفعته فتعلقت به أمه وبكت ، فقال لها : إن القيامة تجمعنا ، وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس وله ثلاث وثلاثون سنة . وقالت أهل التواريخ : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته لمضى خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل ، فأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وكانت نبوته ثلاث سنين ، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين ، وقوله تعالى (إذ قال الله) ظرف لخير الماكرين أو لمكر الله أو لمضمر مثل اذكر (يا عيسى إنى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومعناه إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أى قبضته أو متوفيك نائماً ، كما قال تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل »

أى ينميكم . إذ روى أنه رفع نائما أو مميتك عن الشهوات العائقة من العروج الى عالم الملكوت (ورافعك إلى) أى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى . إذ روى ان الله تعالى رفعه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا . وقال محمد بن اسحاق : النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه . وقال الضحاك : ان فى الآية تقديما وتأخيرا معناه إنى رافعك إلى (ومطهرك من الذين كفروا) أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم ومتوفيك بعد انزالك من السماء روى أبو هريره رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد . وروى الشيخان حديثا انه ينزل قرب الساعة ويحكم بشريعة نبينا ويقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية . وفى حديث مسلم : أنه يمكث سبع سنين . وفى حديث عن أبى داود الطيالسى : أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ، فيحمل على أن مجموع لبثه فى الأرض قبل الرفع وبعد أربعون . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد نزول عيسى فى القرآن . قال : نعم قوله تعالى : ويكلم الناس فى المهد وكهلا ، وهو لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه كهلا بعد نزوله من السماء انتهى . وهذا إنما يأتى على القول بأنه رفع شابا وأما على القول بأنه رفع بعد ثلاث وثلاثين فلا دليل فيه إذ الكهولة من الثلاثين الى الأربعين .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أى[1] بمجموع ذلك

---

(١) ج ١ ص ٢٨٢

عذبناهم (فان قيل) كانوا كافرين بعيسى أعداء لهم عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله (أجيب) بأنهم قالوه بزعم عيسى عندهم أو أنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال الزمخشرى: ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه الصلاة والسلام عما كانوا يذكرون به ا . ه . قال الله تعالى تكذيبا لهم فى قتله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أى المقتول والمصلوب . روى النسائى عن ابن عباس : أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم فمسخهم الله قردة وخنازير ، فاجتمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود ، فقال لأصحابه : أيكم يرضى أن يلقى الله عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب ، وقيل : كان رجلا ينافق عيسى أى يظهر له الإسلام ويخفى الكفر ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه فدخل فى بيت عيسى فرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ، وقيل : أنه عيسى ، وقيل: انهم حبسوا عيسى عليه الصلاة والسلام فى بيت وجعلوا عليه رقيبا ، فألقى الله شبه عيسى على الرقيب فقتلوه (وإن الذين اختلفوا فيه) أى فى شأن عيسى فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود : انه كان كاذبا فقتلناه حقا ، وتردد آخرون وقال بعضهم : إن كان هـــذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا ، وكان الله ألقى شبه وجه عيسى عليه ولم يلق على جسده . وقال من سمع من عيسى ، ان الله يرفعنى الى السماء : أنه رفعه الى السماء وقال قوم : صلب الناسوت أى الانسانية وصعد اللاهوت أى الألوهية (لفى شك منــه) أى من قتله (مالهم به) أى بقتله (من علم)

وقوله تعالى (إلا اتباع الظن) استثناء منقطع أى لكن يتبعون فيه ما الذى تخيلوه (فإن قيل) قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين ثم وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما فكيف يكونون شاكين ظانين (أجيب) بأن الشك كما يطلق على مالا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم فيشمل الاعتقاد (وما قتلوه) أى انتفى قتلهم له انتفاء (يقينا) أى انتفاؤه على سبيل القطع ويجوز أن يكون حالا من واو قتلوه أى ما فعلوا القتل متيقنين أنه عيسى عليه الصلاة السلام بل فعلوه شاكين فيه والحق أنهم لم يقتلوا إلا الرجل الذى ألقى عليه شبهه، قال البقاعى والوجه الأول أولى لقوله تعالى (بل رفعه الله إليه) أى الى مكان لا يصل اليه حكم آدمى . وعن وهب أنه أوحى اليه وهو ابن ثلاثين سنة ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين فكانت رسالته ثلاث سنين (وكان الله عزيزا) أى فى ملكه لا يغلب عما يريد (حكيما) فى صنعه لا يطمع أحد فى نقص شىء منه .

المائدة ١١٧

(ما دمت فيهم فلما توفيتنى) بالرفع[1] إلى السماء لقوله تعالى: إنى متوفيك ورافعك إلى ، والتوفى أخذ الشىء وافيا والموت نوع منه قال الله تعالى : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (كنت أنت الرقيب) أى الحفيظ (عليهم) أى لأعمالهم (وأنت على كل شىء) من قولى وقولهم وغير ذلك (شهيد) أى مطلع عالم به .

---

(١) ج ١ ص ٣٣٦ .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب) أي[1] وما من أهل الكتاب أحد (إلا ليؤمنن به) أي بعيسى عليه الصلاة والسلام هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم (قبل موته) اختلف في عود هذا الضمير فقال عكرمة ومجاهد والضحاك : يعود للكتابي أي أن الكتابي يؤمن بعيسى حين يعاين ملائكة الموت فلا ينفعه إيمانه سواء احترق أو غرق أو تردى أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل لابن عباس : أرأيت من خر من فوق بيت ؟ فقال : يتكلم به في الهواء. فقيل : أرأيت إن ضرب عنق أحدهم ؟ قال : يتلجلج بها لسانه وذهب قوم إلى عود الضمير الى عيسى أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام . روى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويقتل الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون . قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب الآية ثم أعادها أبو هريرة ثلاث مرات ولا يعارض هذا ما في مسلم في قصة الدجال : أن الله يبعث عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة لأن قوله : ثم لم يلبث الناس بعده أي بعد موته فلا معارضة أو لأن السبع محمول على مدة إقامته بعد

---

(١) جـ ١ ص ٢٨٢ .

نزوله ويكون ذلك مضافا الى مكثه فيها قبل رفعه الى السماء وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور . وروى عكرمة أن الهاء فى قوله تعالى : ليؤمنن به كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لا يموت كتابى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهاء راجعة إلى الله عز وجل يقول : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالله عز وجل قيل : عند موته عند المعاينة حين لا ينفعه إيمانه (ويوم القيامة يكون) أى عيسى على القول الأول (عليهم شهيدا) انه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه كما قال تعالى مخبرا عنه : وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم، وكل نبى شاهد على أمته قال تعالى : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا .

الزخرف ٦١

(وإنه) أى[(١)] عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) أى نزوله سبب للعلم بقرب الساعة التى هى تعم الخلائق كلهم بالموت فنزوله من أشراط الساعة يعلم به قربها قال صلى الله عليه وسلم : يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية وتهلك فى زمنه الملل كلها إلا الإسلام . وروى أنه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين يقتل الدجال ويأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر وروى فى صلاة الصبح، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، وقال الحسن

---

(١) ج ٣ ص ٤٦٢

وجماعة : وأنه أى القرآن لعلم للساعة يعلمكم قيامها ويخبركم أحوالها وأهوالها (فلا تمترن بها) حذف منه نون الرفع للجزم وواو الضمير لالتقاء الساكنين من المرية وهى الشك أى لا تشكن فيها وقال ابن عباس لا تكذبوا بها (واتبعون) أى أوجدوا تبعكم لى (هذا) أى كل ما أمرتكم به من هذا أو غيره (صراط) أى طريق واضح (مستقيم) أى لا عوج له وقرأ أبو عمرو بإثبات الياء فى الوصل دون الوقف والباقون بغير الياء وصلا ووقفا .

تعقيب . . .

هذا هو الخطيب الشربينى وقد قرأته وألحت به ، فهل وجدت فيه إثبات رفع عيسى بروحه وجسده ونزوله آخر الزمان ؟ وهل وجدت معى منذ بدأت قراءة التفسير حتى الآن غير أن عيسى علم من أعلام الساعة وشرط من أشراطها . إن هـذا لهو الحق الذى أنزله الله وأخبر به نبيه ، ولنتابع رحلتنا فى كتب التفسير وهى رحلة طالت .

تفسير أبى السعود

المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لقاضى القضاة أبى السعود

المتوفى سنة ٩٨٢ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أى[1] الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الأصل حيلة يجلب بها غيره الى مضرة لا يمكن إسناده إليه سبحانه إلا بطريق المشاكلة .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ملك بنى إسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه

وقيل أنه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة ، فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم ، فقال لهم : ما تجعلون لى إن دللتكم على

---

(١) جـ ١ ص ٢٤١

المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه ، فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام ورفعه الى السماء ، فأخذوا المنافق وهو يقول : أنا دليلكم فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه ، ثم قالوا : وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ فوقع بينهم قتال عظيم ، وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال علام تبكيان ؟ فقالتا : عليك ، فقال إن الله تعالى رفعني ولم يصبني إلا خير ، وان هذا شيء شبه لهم .

قال محمد بن اسحاق: ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته ، فقيل له : ان رجلا من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفعل وفعل، فقال: لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه ، ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم ، وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ، ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ططيوس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز ، قال أهل التواريخ : حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهي بنت ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أوري شلم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى إليه على رأس

الثلاثين سنة ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين (والله خير الماكرين) أقوام مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب وإظهار الجلالة فى موضع الاضمار لتربية المهابة ، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله (إذ قال الله) ظرف لمكر الله أو لمضمر نحو وقع ذلك (يا عيسى إنى متوفيك) أى مستوفى أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصما لك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أو متوفيك نائما . إذ روى أنه رفع وهو نائم . وقيل : مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن ، أو مميتك من الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت ، وقيل : أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه الى السماء وإليه ذهبت النصارى .

قال القرطبى : والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما . وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر بهم ابليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال واحد منهم : أنا يا نبى الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه ، وصلبوه ، وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى (إنى متوفيك) فطار مع الملائكة ، ثم ان أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة : كان الله فينا ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه وهم النسطورية .

وقالت فرقة أخرى منهم : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الإسلام منطمسا إلى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم (ورافعك إلى) أى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى (ومطهرك من الذين كفروا) أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) نظم[1] قولهم هذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ليس لمجرد كونه كذباً بل لتضمنهم لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) الخ ولأنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى مكان ذكرهم القبيح .

وقيل : هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحا درفعا لمحله عليه السلام وإظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك (وما قتلوه وما صلبوه) حال أو اعتراض (ولكن شبه لهم) روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء فقال

---

(١) ج ١ ص ٣٩٥ .

لأصحابه : أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب .

وقيل : كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم ورفع عيسى عليه السلام عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام .

وقيل : ان ططيانوس اليهودى دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام ، فأخذ وقتل ، وامثال هذه الخوارق لا تستبعد فى عصر النبوة .

وقيل أن اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا إنسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلا قليلا ، وشبه مسند إلى الجار والمجرور وكأنه ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو فى الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على ان ثم مقتولا (وإن الذين اختلفوا فيه) أى فى شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس . فقال بعض اليهود : إن كان كاذبا فقتلناه حتما . وتردد آخرون ، فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . وقال من سمع منه عليه السلام ، إن الله رفعنى إلى السماء : انه رفع إلى السماء .

وقال قوم : صلب الناسوت وصعد اللاهوت (لفى شك منه) لفى تردد والشك كما يطلق على مالم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم

ولذلك أكد بقوله تعالى : (مالهم به من علم إلا اتباع الظن) استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزما كان أو غيره ، فالاستثناء حينئذ متصل (وما قتلوه يقينا) أى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم : إنا قتلنا المسيح . وقيل معناه : وما علموه يقينا كما فى قول من قال :

كذاك تخبر عنها العالمات بها   وقد قتلت بعلمى ذلكم يقينا

من قولهم قتلت الشىء علما ونحرته علما إذا تبالغ علمك فيه ، وفيه تهكم بهم لاشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفى ذلك عنهم بالكلية (بل رفعه الله إليه) رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعة (وكان الله عزيزا) لا يغالب فيما يريده (حكيما) فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتنى) بالرفع[1] إلى السماء كما فى قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى) فإن التوفى أخذ الشىء وافيا والموت نوع منه قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها)

---

(١) ج ٢ ص ٧٥

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب) أى[1] من اليهود والنصارى ، وقوله تعالى (إلا ليؤمنن به قبل موته) جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف إليه يرجع الضمير الثانى والأول لعيسى عليه السلام ، أى : وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله ولات حين إيمان لانقطاع وقت التكليف ويعضده إنه قرىء : ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحداً فى معنى الجمع . عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه فسره كذلك فقال له عكرمة : فإن أتاه رجل فضرب عنقه ؟ قال : لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه . قال : فإن خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع ؟ قال : يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به .

وعن شهر بن حوشب قال لى الحجاج آية ما قرأتها إلا تخالج فى نفسى شىء منها ، يعنى هذه الآية . وقال : إنى أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك . فقلت : إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا : يا عدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبياً فكذبت به ، فيقول : آمنت أنه عبد نبى ، وتقول للنصرانى : أتاك عيسى عليه السلام نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله ، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه . قال : وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إلىّ وقال : ممن سمعت هذا ؟ قلت : حدثنى محمد بن على بن الحنفية ، فأخذ ينكث بقضيبه ثم قال : لقد أخذتها من

---

(١) جـ ٦ ص ٣٩٦ .

عين صافية والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء جدواه .

وقيل : كلا الضميرين لعيسى ، والمعنى : وما من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وروى أنه عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ، ويهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان مع الحيات ، ويلبث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه . وقيل : الضمير الأول يرجع إلى الله تعالى . وقيل : إلى محمد صلى الله عليه وسلم (ويوم القيامة يكون) أى عيسى عليه السلام (عليهم) على أهل الكتاب (شهيداً) فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الزخرف ٦١

(وإنه) وإن[1] عيسى (لعلم للساعة) أى أنه بنزوله شرط من أشراطها وتسميته علما لحصوله به أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة ، وقرىء : لعلم ، أى علامة . وقرىء : للعلم . وقرىء : لذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً كتسمية ما يعلم به علما . وفى الحديث أن عيسى عليه السلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى

---

(١) جـ ٥ ص ٤٨ .

عليه السلام ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به . وقيل : الضمير للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن فى وقوعها (واتبعون) أى واتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . وقيل : هو قول الرسول مأموراً من جهته تعالى (هذا) أى الذى أدعوكم إليه أو القرآن على أن الضمير فى أنه له (صراط مستقيم) موصل إلى الحق .

تعقيب . . .

هذا هو تفسير أبى السعود ، وهو كما يثبت السابقين جميعاً إثبات الرفع وإثبات النزول .

إنه ينقل كثيراً عن السابقين ، وأكثر تأثره بالبيضاوى ، فالرفع عنده ثابت ، وكذلك النزول اعتماداً على ما ورد فى الحديث النبوى المبين لمجمل آية النزول « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » من أن الضمير فى موته ، وإن كان يحتمل الرجوع إلى غير عيسى ، فإن ذكر البيان فى الحديث النبوى قد حدد مرجع الضمير بحيث لا تجوز تخطيه عند التأويل لمؤمن مسلم وتذعن لحكم الرسول الكريم .

تاج التفاسير لكلام الملك الكبير

محمد عثمان بن السيد محمد أبى بكر بن السيد عبد الله الميرغنى المحجوب

المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) الكفار[1] من اليهود بعيسى ليقتلوه (ومكر الله) بهم فأنجاه منهم ورد كيدهم عليهم (والله خير الماكرين) الغالب لمن مكر بأحبابه فيخذله (إذ قال الله يا عيسى) ابن مريم (إنى متوفيك) منيمك (ورافعك) فى منامك (إلىّ) فرفعه الله إلى السماء ونجاه منهم ، وسينزل حكما عدلا يحكم بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فى الأحاديث الصحاح (ومطهرك من الذين كفروا) من خبثهم ورجسهم وإذايتهم (وجاعل الذين اتبعوك) صدقوا بك من أمتك ومن أمة محمد صلى الله عليه وسلم (فوق الذين كفروا) أى اليهود (إلى يوم القيامة) فإن اليهود من ذلك الزمان إلى وقتنا هذا لم تكن لهم غلبة بملك بل هم فى الذلة والصغار (ثم إلىّ مرجعكم) يوم العرض عليه (فأحكم بينكم) أنت ومن تبعك من المؤمنين ومن كفر بك (فيما كنتم فيه تختلفون) فى دنياكم .

---

(١) جـ ١ ص ٦٤ .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم) في[1] مقام الافتخار (إنا قتلنا المسيح) روح الله وكلمته (عيسى بن مريم رسول الله) صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، وذلك زعم فاسد (وما قتلوه وما صلبوه) بل حي مرفوع في السماء (ولكن شبه لهم) برجل ألقى الله عليه شبهه فقتلوه ظناً منهم أنه هو وليس هو (وإن الذين اختلفوا) منهم (فيه) أي في أمر عيسى (لفي شك منه) فقال قوم : هو المقتول ، وقال آخرون غيره (مالهم) هؤلاء المختلفين (به) من حيث القتل (من علم) محقق (إلا اتباع الظن) الفاسد (وماقتلوه يقيناً) نفى الله القتل من غير شك (بل رفعه الله إليه) ورقاه إلى السماء الثانية (وكان الله عزيزاً) لا يغلبه شيء (حكيماً) بقدبيره كل شيء .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتني) رفعتني[2] إلى السماء ، والتوفي هو أخذ الشيء وافياً (كنت أنت الرقيب) الحفيظ (عليهم) وعلى ما يقولونه ويعملونه (وأنت على كل شيء شهيد) مما برز مني ومنهم .

---

(١) جـ ١ ص ١٠٩ (٢) جـ ١ ص ١٣١

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن) نافية[1] (من أهل الكتاب) أحد من اليهود والنصارى (إلا ليؤمنن به) الضمير لعيسى (قبل موته) قبل أن يموت، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته» رواه البخارى ومسلم (ويوم القيامة) يوم العرض على الله يكون عيسى الروح (عليهم شهيداً) بما وقع منهم.

الزخرف ٦١

(وإنه) الضمير[2] لعيسى (لعلم) وقرىء: لَعَلَم بفتح العين واللام (للساعة) فعلى الأولى علم يعلم بنزوله قرب الساعة، وعلى الثانية علامة على الأخرى. وفى مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا وليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» (فلا تمترن بها) تشكن فيها (واتبعون) حين آمركم وأنهاكم (هذا) الذى أدلكم عليه (صراط مستقيم) لا يضل متبعه.

(١) جـ ١ ص ١٠٩.
(٢) جـ ٢ ص ١٥١.

تعقيب . . .

وبعد . . ألست معى أيها القارىء الكريم بعد قراءتك لهذا التفسير أنه تفسير لطيف موجز موف الحق ، ومع ذلك لم نجد منه قولا واحداً يخالف ما جاء فى كتب التفاسير السابقة من إثبات الرفع وإثبات النزول .

والآن لنستقبل معا أضخم تفسير فى عصرنا الحديث أنه : روح المعانى لأبى الشفاء شهاب الدين محمود أفندى الألوسى .

روح المعانى

شهاب الدين السيد محمود الألوسى

المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أي[1] الذين أحس منهم الكفر إذ وكلوا به من يقتله غيلة (ومكر الله) بأن ألقى شبهه عليه السلام على غيره فصلب ورفعه إليه. قال ابن عباس: لما أراد ملك بنى إسرائيل قتل عيسى عليه السلام دخل خوخة وفيها كوة فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء فقال الملك لرجل منهم خبيث: ادخل عليه فاقتله. فدخل الخوخة فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وظنوا أنه عيسى.

وقال وهب: أسروه ونصبوا خشبة فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم فأخذوا رجلا يقال له يهودا — وهو الذى دلهم على عيسى — وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال: ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إليهم وقال: ما تجعلون لى ان دللتكم عليه؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام فأدخل

---

(١) ج ٣ ص ١٧٧ الطباعة المنيرية.

البيت ورفع ، وقال : أنا الذى دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى — فلما صلب شبه عيسى وأتى على ذلك سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى : اهبط على مريم ثم لتجمع لك الحواريين وبثهم فى الأرض دعاة فهبط عليها واشتعل الجبل نوراً فجمعت له الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة ثم رفعه الله سبحانه . وتلك الليلة هى الليلة التى تدخن فيها النصارى . فلما أصبح الحواريون قصد كل منهم بلدة من أرسله عيسى إليهم .... (إذ قال الله) ظرف — لمكر — أو لمحذوف نحو وقع ذلك ولو قدر اذكر — كما فى أمثاله — لم يبعد وتعلقه بالماكرين بعيد إذ لا يظهر وجه حسن لتقييد قوة مكره تعالى بهذا الوقت (يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر أى رافعك إلى ومتوفيك وهذا أحد تأويلات اقتضاها مخالفة ظاهر الآية المشهور المصرح به فى الآية الأخرى ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن عيسى لم يمت وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » .

وثانيها : أن المراد إنى مستوفى أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك فالكلام كناية عن عصمته من الأعداء ، وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام لأنه يلزم من استيفاء الله تعالى أجله وموته حتف أنفه ذلك .

وثالثها : أن المراد قابضك ومستوفى شخصك من الأرض — من توفى المال — بمعنى استوفاه وقبضه .

ورابعها : أن المراد بالوفاة هنا النوم لأنهما أخوان ويطلق كل منهما على الآخر . وقد روى عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم رفقا به ، وحكى هذا القول والذى قبله أيضا عن الحسن .

وخامسها : أن المراد أجعلك كالمتوفى لأنه بالرفع يشبهه .

وسادسها : أن المراد آخذك وافيا بروحك وبدنك فيكون (ورافعك إلى) كالمفسر لما قبله .

وسابعها : أن المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العائقة عن إيصاله بالملكوت .

وثامنها : أن المراد مستقبل حملت

ولا يخلو أكثر هذه الأوجه عن بعد لاسيما الأخير .

وقيل : الآية محمولة على ظاهرها . فقد أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال : توفى الله تعالى عيسى بن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه . وأخرج الحاكم عنه أن الله تعالى توفى عيسى سبع ساعات ثم أحياه ، وأن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة وأنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين وورد ذلك فى رواية ضعيفة عن ابن عباس — والصحيح — كما قاله القرطبى — أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم — وهو اختيار الطبرى — والرواية الصحيحة عن ابن عباس ، وحكاية أن الله تعالى توفاه سبع ساعات ذكر ابن إسحاق أنها من زعم النصارى ، ولهم فى هذا المقام كلام تقشعر منه الجلود ويزعمون أنه فى الإنجيل وحاشا الله ما هو إلا افتراء وبهتان عظيم (ومضى الألوسى يذكر أقوال النصارى وقد حذفتها) وأراد سبحانه بقوله (ورافعك إلى) رافعك إلى سمائى ، وقيل : إلى كرامتى . وعلى كل فالكلام على حذف مضاف إذ من المعلوم أن البارىء سبحانه ليس بمتميز فى جهة وفى رفعه إلى أى سماء خلاف : والذى اختاره الكثير من العارفين أنه رفع إلى السماء الرابعة ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه رفعه إلى السماء الدنيا فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبطه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس .

وفى الخازن : أنه سبحانه لمـا رفعه عليه السلام إليه كساه الريش وألبسه النور . وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسياً ملـكيا أرضيا سماويا ، وأورد بعض الناس ههنا إشـكالات وهى أن الله تعالى كان قد أيده بجبريل عليه السلام كما قال سبحانه (وأيدناه بروح القدس) ثم أن طرف جناح من أجنحة جبريل كان يكفى للعالم فـكيف لم يكف فى منع أولئك اليهود عنه؟ وأيضا أنه عليه السلام لما كان قادرا على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فـكيف لم يقدر على إماتتهم ودفع شوكتهم أو على إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له ؟ وأيضا لما خلصه من الأعداء بأن رفعه إلى السماء فما الفائدة فى إلقاء شبهه على الغير؟وأجيب على الـكل بأن بناء التـكليف على الاختيار،ولو أقدر الله تعالى جبريل أو عيسى عليهما السلام على دفع الأعداء أو رفعه من غير إلقاء شبهه إلى السماء لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء ، والقول — بأن فتح باب إلقاء الشبه يوجب ارتفاع الأمان عن المحسوسات وأنه يفضى إلى سقوط الشرائع وإبطال التواتر ، وأيضا إن فى ذلك الإلقاء تمويها وتخليطا وذلك لا يليق بحكمة الله تعالى — ليس بشىء ، أما أولا فلأن إلقـاء شبه شخص على آخر وإن كان ممـكنا فى نفسه إلا أن الأصل عدم الإلقاء واستقلال كل من الحيوان بصورته التى هى له نعم لو أخبر الصادق بإلقاء صورة شخص على آخر قلنا به واعتقدناه فحينئذ لا يرتفع الأمان عن المحسوسات بل هى باقية على الأصل فيهما لم يخبر الصادق بخلافه ، على أن إبطال التواتر بفتح هذا الباب ممنوع ، لأنه لم يشترط فى الخبر أن يكون عن أمر ثابت فى نفس الأمر بل يكفى فيه كونه عن أمر محسوس على ما قاله بعض المحققين ، وأما ثانيا فلأن التمويه والتلبيس إن كان على الأعداء فلا نسلم أنه مما لا يليق بالحـكمة، وإن كانت النجاة مما تمـكن بدون الإلقاء، وإن كان ذلك على

أوليائه فلا نسلم أن فى الإلقاء تمويها لأنهم كانوا عارفين يقينا بأن المطلوب الشبه لا عيسى عليه السلام كما ستعرفه إن شاء الله تعالى .

والقول — بأن المطلوب قد ثبت بالتواتر أنه بقى حيا زمانا طويلا فلولا أنه كان عيسى لأظهر الجزع وعرف نفسه ولو فعل ذلك لاشتهر وتواتر — ليس بشىء أيضا ، أما أولا فلأن دعوى تواتر بقاء المصلوب حيا زمانا طويلا مما لم يثبتها برهان ، والثابت أن المصلوب إنما صلب فى الساعة الثانية من يوم الجمعة ومات فى الساعة السادسة من ذلك اليوم وأنزل ودفن ، ومقدار أربع ساعات لا يعد زمانا طويلا كما لا يخفى . وأما ثانيا : فلأن عدم تعريف المصلوب نفسه إما لأنه أدركته دهشة منعته من البيان والإيضاح ، أو لأن الله تعالى أخذ على لسانه فلم يستطع أن يخبر عن نفسه صونا لنبيه عليه السلام أن يفصح الرجل عن أمره ، أو لأنه لصديقيته آثر المسيح بنفسه وفعل ذلك بعهد عهده إليه رغبة فى الشهادة ، ولهذا روى فى الجواب الذى نقلته النصارى فى القصة وقد وعد المسيح عليه السلام التلاميذ — بقولهم لو دفعنا إلى الموت معك لمتنا والشبه من جملتهم فوفى بما وعد من نفسه على عادة الصديقين من أصحاب الأنبياء عليهم السلام فهو من (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ومن ذهب إلى أن الشبه كان من الأعداء لا من الأولياء روى أنه جعل يقول لليهود عند الصلب : لست المسيح وإنما أنا صاحبكم لكنه لم يسمع ولم يلتفت إلى قوله وصلبوه ، والقول — بأنه لو كان ذلك لتواتر — لا يخفى ما فيه لمن أحاط بما ذكرناه خبرا فتأمل (ومطهرك من الذين كفروا) يحتمل أن يكون تطهيره عليه السلام بتبعيده منهم بالرفع ويحتمل أن يكون بنجاته مما قصدوا فعله به من القتل ، وفى الأولى جعلهم كأنهم نجاسة ، وفى الثانى جعل فعلهم كذلك والأول هو الظاهر — وإلى الثانى ذهب الجبائى .

والمراد من الموصول اليهود ، وأتى بالظاهر — على ما قيل — دون الضمير إشارة إلى علة النجاسة وهي الكفر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أن المراد من الموصول اليهود والنصارى والمجوس وكفار قومه (وجاعل الذين اتبعوك) قال قتادة والحسن وابن جريج وخلق كثير : هم أهل الإسلام اتبعوه على ملته وفطرته من أمته محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فوق الذين كفروا) وهم اليهود أو سائر من شمله هذا المفهوم فإن المؤمنين يعلونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أن المراد من الموصول الأول النصارى ، ومن الثاني اليهود وقد جعل سبحانه النصارى فوق اليهود فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود في شرق الدنيا وغربها ، وعلى هذا يكون المراد من الاتباع مجرد الادعاء والمحبة ولا يضر في غلبتهم على اليهود غلبة المسلمين عليهم وإذا أريد بالاتباع ما يشمل اتباع المسلمين ، وهذا الاتباع يصح أن يراد بالمتبعين ما يشمل المسلمين والنصارى مطلقا من آمن به قبل مجيء نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ونسخ شريعته ، ومن آمن بزعمه بعد ذلك — وقد يراد من الاتباع — الاتباع بالمعنى الأول فيجوز أن يراد من المتبعين المسلمون ، والقسم الأول من النصارى وتخصيص المتبعين بهذه الأمة وحمل الاتباع على المجيء بعد — مما لا ينبغي أن يخرج عليه الكتاب الكريم كجعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأن الوقف على (الذين كفروا) (إلى يوم القيامة) متعلق بالجعل أو بالاستقرار المقدر في الظرف ، وليس المراد أن ذلك ينتهي حينئذ ويتخلص (الذين كفروا) من الذلة بل المراد أن المتبعين يعلونهم إلى تلك الغاية فأما بعدها فيفعل الله تعالى ما يريد .

ومن الناس من حمل الفوقية على العلو الرتبي والفوقية بحسب الشرف وجعل التقييد بيوم القيامة للتأبيد كما في قولهم ما دامت السماء ، وما دار الفلك ،

بناء على ظن أن عدم انتهاء علو المؤمنين وذلة الكافرين إلى ذلك اليوم موجب لهذا الجعل — وليس بذلك (ثم إلى مرجعكم) أى مصيركم بعد يوم القيامة ورجوعكم، والضمير لعيسى عليه السلام والطائفتين، وفيه تغليب على الأظهر، و(ثم) للتراخى، وتقديم الظرف للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد ويحتمل أن يكون الضمير لمن اتبع وكفر فقط وفيه التفات للدلالة على شدة ارادة إيصال الثواب والعقاب لدلالة الخطاب على الاعتناء.

(فأحكم بينكم) اى فأقضى بينكم بأثر رجوعكم إلى ومصيركم بين يدى (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمور الدين، أو من أمر عيسى عليه السلام والظرف متعلق بما بعده وقدم رعاية للتواصل.

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم) على[1] سبيل التبجح (إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) ذكروه بعنوان الرسالة تهكما واستهزاء كما فى قوله تعالى حكاية عن الكفار (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) الخ. ويحتمل أن يكون ذلك منهم بناءا على قوله عليه الصلاة والسلام وإن لم يعتقدوه، وقيل: أنهم وصفوه بغير ذلك من صفات الذم فغير فى الحكاية، فيكون من الحكاية لا من المحكى، وقيل: هو استئناف منه مدحا له عليه الصلاة والسلام ورفعا لمحله واظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم فى تبجحهم (وما قتلوه وما صلبوه) حال. أو اعتراض (ولكن شبه لهم) روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما — أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخوا قردة وخنازير فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود فخاف فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا

---

(١) جـ ٦ ص ١٠

إليـه ليقتلوه فأدخله جبريل عليـه السلام بيتا ورفعه منـه إلى السماء ولم يشعروا بذلك فدخل عليه طيطانوس ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم وألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام فلما خرج قتلوه وصلبوه ، وقال وهب بن منبه فى خبر طويل رواه عنه ابن المنذر : « أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صيرهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى عليه السلام فقالوا لهم : سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى عليه السلام أو لنقتلنكم جميعا . فقال عيسى لأصحابه : من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى فقتلوه وصلبوه ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام » . وبه قال قتادة والسدى ومجاهد وابن اسحق وإن اختلفوا فى عدد الحواريين ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه عليه السلام ألقى على جميعهم بل قالوا : ألقى شبهه على واحد ورفع عيسى عليه السلام من بينهم . ورجح الطبرى قول وهب وقال : أنه الأشبه .

وقال أبو على الجبائى . ان رؤساء اليهود أخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على على موضع عال ولم يمكنوا أحدا من الدنو منهـا فتغيرت خليقته ، وقالوا : إنا قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذى به عيسى عليه السلام فلما دخلوه ولم يجدوه فخافوا أن يكون ذلك سببا لإيمان اليهود ففعلوا ما فعلوا .

وقيل : كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه وأخذ على ذلك ثلاثين درهما فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه ، وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام ، وقيل غير ذلك ، و (شبه) مسند إلى الجار والمجرور ، والمراد وقع لهم تشبيه بين عيسى عليه السلام ومن صلب ، أو فى الأمر — على قول

الجبائى — أو هو مسند إلى ضمير المقتول الذى دل عليه إنا قتلنا أى (شبه لهم) من قتلوه بعيسى عليه السلام ، أو الضمير للأمر و (شبه) من الشبهة أى القبس عليهم الأمر بناءا على ذلك القول ، وليس المسند إليه ضمير المسيح عليه الصلاة والسلام لأنه مشبه به لا شبه (وإن الذين اختلفوا فيه) أى فى شأنه عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس . فقال بعضهم : إنه كان كاذباً فقتلناه حقا ، وتردد آخرون فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . وقال من سمع منه — إن الله تعالى يرفعنى إلى السماء — أنه رفع إلى السماء ، وقالت النصارى الذين يدعون ربوبيته عليه السلام : صلب الناسوت وصعد اللاهوت ، ولهذا لا يعدون القتل نقيصة حيث لم يضيفوه إلى اللاهوت ، ويرد هؤلاء أن ذلك يمتنع عند اليعقوبية القائلين : أن المسيح قد صار بالاتحاد طبيعة واحدة إذ الطبيعة الواحدة لم يبق فيها ناسوت متميز عن لاهوت والشىء الواحد لا يقال : مات ولم يمت . وأهين ولم يهن .

وأما الروم القائلون : بأن المسيح بعد الاتحاد باق على طبيعتين ، فيقال لهم : فهل فارق اللاهوت ناسوته عند القتل ؟ فان قالوا : فارقه فقد أبطلوا دينهم فلم يستحق المسيح الربوبية عندهم إلا بالاتحاد ، وإن قالوا لم يفارق فقد التزموا ما ورد على اليعقوبية وهو قتل اللاهوت مع الناسوت ، وإن فسروا الاتحاد بالتدرع وهو أن الإله جعله مسكنا وبيتا ثم فارقه عند ورود ما ورد على الناسوت أبطلوا الهيئة فى تلك الحالة . وقلنا لهم : أليس قد أهين ؟ وهذا القدر يكفى فى إثبات النقيصة إذ لم يأنف اللاهوت لمسكنه أن تناله هذه النقائص فإن كان قادرا على نفيها فقد أساء مجاورته ورضى بنقيصته وذلك عائد بالنقص عليه فى نفسه وإن لم يكن قادرا فذلك أبعد له عن عز الربوبية ، وهؤلاء ينكرون إلقاء الشبه ، ويقولون : لا يجوز ذلك لأنه إضلال ، ورده أظهر من أن يخفى

ويكفى فى إثباته أنه لو لم يكن ثابتا لزم تكذيب المسيح ، وابطال نبوته بل وسائر النبوات على أن قولهم فى الفصل : أن المصلوب قال : إلهى إلهى لم تركتنى وخذلتنى وهو ينافى الرضا بمر القضاء وينافض التسليم لأحكام الحكيم ؟ وأنه شكى العطش وطلب الماء والإنجيل مصرح بأن المسيح كان يطوى أربعين يوما وليلة إلى غير ذلك مما هم فيه إن صح مما ينادى على أن المصلوب هو الشبه كما لا يخفى .

فالمراد من الموصول ما يعم اليهود والنصارى جميعا (لفى شك منه) أى لفى تردد ، وأصل — الشك — أن يستعمل فى تساوى الطرفين وقد يستعمل فى لازم معناه ، وهو التردد مطلقا وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو المراد ولذا أكده بنفى العلم الشامل لذلك أيضا بقوله سبحانه (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) والاستثناء منقطع ، أى لكنهم يتبعون الظن . وجوز أن يفسر الشك بالجهل ، والعلم بالاعتقاد الذى تسكن إليه النفس جزما كان أو غيره فالاستثناء حينئذ متصل ، وإليه ذهب ابن عطيه إلا أنه خلاف المشهور ، وما قيل : إن اتباع الظن ليس من العلم قطعا فلايتصور اتصاله بمدفوع بأن من قال به جعله بمعنى الظن المتبع (وما قتلوه يقينا) الضمير لعيسى عليه السلام كما هو الظاهر أى ماقتلوه قتلا يقينا أو متيقنين، ولا يرد أن نفى القتل المتيقن يقتضى بثبوت القتل المشكوك لأنه لنفى القيد ولا مانع من أنه قتل فى ظنهم فانه يقتضى أنه ليس فى نفس الأمر كذلك فلاحاجة إلى التزام جعل يقينا مفعولا مطلقا لفعل محذوف ، والتقدير تيقنوا ذلك يقينا ، وقيل : هو راجع إلى العلم وإليه ذهب الفراء . وابن قتيبة أى وما قتلوا العلم (يقينا) من قولهم : قتلت العلم والرأى ، وقتلت كذا علما إذا تبالغ علمك فيه ، وهو مجاز كما فى الأساس ، والمعنى ماعلموه يقينا وقيل : الضمير للظن أى ماقطعوا الظن (يقينا) ونقل ذلك عن ابن عباس

رضى الله تعالى عنهما والسدى ، وحكى ابن الأنبارى أن فى الكلام تقديما وتأخيراً ، وأن (يقينا) متعلق بقوله تعالى (بل رفعه الله إليه) أى بل رفعه سبحانه إليه يقينا ، ورده فى البحر بأنه قد نص الخليل على أنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها ، والكلام رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه عليه الصلاة والسلام ، وفيه تقدير مضاف عند أبى حيان أى إلى سمائه قال: وهو حى فى السماء الثانية على ماصح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث المعراج،وهو هنالك مقيم حتى ينزل إلى الأرض يقتل الدجال ويملؤها عدلا كما ملئت جورا ثم يحيا فيها أربعين سنة أو تمامها من سن رفعه وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنه ويموت كما تموت البشر ويدفن فى حجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو فى بيت المقدس . وقال قتادة : رفع الله تعالى عيسى عليه السلام إليه فكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا ، وهذا الرفع على المختار كان قبل صلب الشبه ، وفى إنجيل لوقا ما يؤيده ، وأما رؤية بعض الحواريين له عليه السلام بعد الصلب فهو من باب تطور الروح فإن للقديسيين قوة التطور فى هذا العالم وإن رفعت أرواحهم إلى المحل الأسنى ، وقد وقع التطور لكثير من أولياء هذه الأمة ، وحكاياتهم فى ذلك يضيق عنها نطاق الحصر (وكان الله عزيزاً) لا يغالب فيما يريده (حكيما) فى جميع أفعاله فيدخل فيه تدبيراته سبحانه فى أمر عيسى عليه السلام وإلقاء الشبه على من ألقاه دخولا أوليا .

المائدة ١١٩

(وكنت عليهم شهيداً) أى[1] رقيبا أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك من غير واسطة ومشاهداً لأحوالهم من إيمان وكفر ، و (عليهم)

(١) جـ ٧ ص ٦٩ .

كما قال أبو البقاء متعلق بشهيداً ، لعل التقديم لما مر غير مرة (مادمت فيهم) أى مدة دوامى فيما بينهم (فلما توفيتنى) أى قبضتنى بالرفع إلى السماء كما يقال توفيت المال إذا قبضته . وروى هذا عن الحسن وعليه الجمهور . وعن الجبائى أن المعنى أمتنى وادعى أن رفعه عليه السلام إلى السماء كان بعد موته وإليه ذهب النصارى وقد مر الكلام فى ذلك (كنت أنت الرقيب عليهم) أى الحفيظ المراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسول وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا ، وقيل : المراد بالرقيب المطلع المشاهد ، ومعنى الجملتين إنى ما دمت فيهم كنت مشاهداً لأحوالهم فيمكن لى بيانها فلما توفيتنى كنت أنت المشاهد لذلك لا غيرك فلا أعلم حالهم ولا يمكننى بيانها ، ولا يخفى أن الأول أوفق بالمقام ، وقد نص بعض المحققين أن الرقيب والشهيد هنا بمعنى واحد وهو ما فسر به الشهيد أولا ولكن تفنن فى العبارة ليميز بين الشهيدين والرقيبين لأن كونه عليه الصلاة والسلام رقيبا ليس كالرقيب الذى يمنع ويلزم بل كالشاهد على المشهود عليه ومنعه بمجرد القول وأنه تعالى شأنه هو الذى يمنع منع إلزام بالأدلة والبينات ، و (أنت) ضمير فصل أو تأكيد و (الرقيب) خبر كان . وقرىء (الرقيب) بالرفع على أنه خبر أنت ، والجملة خبر كان و (عليهم) فى القراءتين متعلق بالرقيب .

وقوله سبحانه (وأنت على كل شىء شهيد) تذييل مقرر لمضمون ماقبله وفيه — على ما قيل — إيذان بأنه سبحانه كان هو الشهيد فى الحقيقة على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم ، و (على) متعلقة بشهيد ، والتقديم لمراعاة الفاصلة .

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب) أى[1] اليهود خاصة كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، أوهم النصارى كما ذهب إليه كثير من المفسرين (وإن) نافية بمعنى ما ، وفى الجار والمجرور وجهان : أحدهما : أنه صفة لمبتدأ محذوف ، وقوله تعالى : (إلا ليؤمنن به قبل موته) جملة قسمية ، والقسم مع جوابه خبر للمبتدأ ولا يرد عليه أن القسم إنشاء لأن المقصود بالخبر جوابه وهو خبر مؤكد بالقسم ، ولا ينافيه كون جواب القسم لا محل له ، لأن ذلك من حيث كونه جوابا فلا يمتنع كونه له محل باعتبار آخر لو سلم أن الخبر ليس هو المجموع، والتقدير: وما أحدمن أهل الكتاب إلا والله ليؤمنن به، والثانى أنه متعلق بمحذوف وقع خبراً لذلك المبتدأ ، وجملة القسم صفة له لا خبر ، والتقدير: وإن أحد إلا ليؤمنن به كائن من أهل الكتاب ومعناه كل رجل يؤمن به قبل موته من أهل الكتاب وهو كلام مفيد ، فالاعتراض على هذا الوجه — بأنه لا ينتظم من أحد ، والجار والمجرور إسناد ، لأنه لا يفيد — لا يفيد لحصول الفائدة بلا ريب ، نعم المعنى على الوجه الأول : كل رجل من أهل الكتاب يؤمن به قبل موته ، والظاهر أنه المقصود ، وأنه أتم فائدة ، والاستثناء مفرغ من أعم الأوصاف ، وأهل الكوفة يقدرون موصولا بعد إلا ، وأهل البصرة يمنعون حذف الموصول وإبقاء صلته ، والضمير الثانى راجع للمبتدأ المحذوف أعنى أحد ، والأول لعيسى عليه السلام فمفاد الآية أن كل يهودى

---

(١) ج ٦ ص ١٠

ونصراني يؤمن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله تعالى ورسوله ، ولا ينفعه إيمانه حينئذ لأن ذلك الوقت لكونه ملحقاً بالبرزخ لما أنه ينكشف عنده لكل الحق ينقطع فيه التكليف ، ويؤيد ذلك أنه قرأ أبي — ليؤمنن به قبل موتهم — بضم النون وعود ضمير الجمع لأحد ظاهر لكونه في معنى الجمع ، وعوده لعيسى عليه السلام غير ظاهر .

وأخرج ابن المنذر ، وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الآية كذلك ؛ فقيل له : أرأيت إن خر من فوق بيت ؟ قال : يتكلم به في الهواء ، فقيل : أرأيت إن ضرب عنقه ؟ قال : يتلجلج بها لسانه .

وأخرج ابن المنذر أيضاً عن شهر بن حوشب قال : قال لي الحجاج : يا شهر آية من كتاب الله تعالى ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء قال الله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وإني أوتى بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئاً ، فقلت : رفعت إليك على غير وجهها إن النصراني إذا خرجت روحه — أي إذا قرب خروجها كما تدل عليه رواية أخرى عنه — ضربته الملائكة من قبله ومن دبره ، وقالوا : أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنه الله تعالى ، وأنه ابن الله سبحانه ، وأنه ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته ، فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه ، وأن اليهودي إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ودبره ، وقالوا : أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنك قتلته عبد الله وروحه فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان ، فإذا كان عند نزول عيسى آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم ، فقال : من أين أخذتها ؟ فقلت : من محمد بن علي قال : لقد أخذتها من معدنها ، قال شهر : وأيم الله تعالى ما حدثنيه إلا أم سلمة ، ولكني أحببت أن أغيظه والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض إلى المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه

مع انتفاء جدواه . وقيل : الضمير إن لعيسى عليه السلام ، وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أيضاً . وأبى مالك . والحسن وقتادة وابن زيد واختاره الطبرانى ، والمعنى أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمنن به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها دينا واحد وأخرج أحمد عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل . ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما » قال وتلا أبو هريرة رضى الله تعالى عنه (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وقيل : الضمير الأول لله تعالى ولا يخفى بعده وأبعد من ذلك أنه لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وروى هذا عن عكرمة، ويضعفه أنه لم يجر له عليه الصلاة والسلام ذكر هنا ولا ضرورة توجب رد الكتابة إليه لا أنه كما زعم الطبرى — لو كان صحيحا لما جاز إجراء أحكام الكفار على أهل الكتاب بعد موتهم لأن ذلك الإيمان إنما هو فى حال زوال التكليف فلا يعتد به (ويوم القيامة يكون) أى عيسى عليه السلام (عليهم) أى أهل الكتاب (شهيداً) فيشهد على اليهود بتكذيبهم إياه وعلى النصارى بقولهم فيه : إنه ابن الله تعالى والظرف متعلق — بشهيداً — وتقديمه يدل على جواز تقديم خبر كان مطلقا ، أو إذا كا ظرفا أو مجروراً لأن المعمول إنما يتقدم حيث يصح تقديم عامله ، وجوز أبو البقاء كون العامل فيه يكون .

الزخرف ٦١

(وإنه) أى[1] عيسى عليه السلام (لعلم للساعة) أى أنه بنزوله شرط من أشراطها أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة وأياما كان فعلم الساعة مجاز عما تعلم به والتعبير به للمبالغة وقرأ أبى : لذكر ، وهو مجاز كذلك ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفارى وزيد بن على وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش والكلبى قال ابن عطية وأبو نصرة : لعلم ، بفتح العين واللام أى لعلامة ، وقرأ عكرمة قال ابن خالويه وأبو نصرة : لا لعلم معرفا بفتحتين والحصر إضافى ، وقيل باعتبار أنه أعظم العلامات . وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزلن ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد . وفى رواية : وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فليقاتل الناس على الإسلام وفيه ويهلك المسيح الدجال : وفى أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، وفى رواية : فأمكم منكم . قال ابن أبى ذئب : تدرى ما أمكم منكم قال : تخبرنى قال : فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس فى صلاة الصبح ويتأخر الإمام وهو المهدى فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه ، ويقول : إنما أقيمت لك .

---

(١) ج ٢٥ ص ٨٧

وقيل : بل يتقدم هو ويؤم الناس ، والأكثرون على اقتدائه بالمهدى فى تلك الصلاة دفعا لتوهم نزوله ناسخا ، وأما فى غيرها فيؤم هو الناس لأنه الأفضل ، والشيعة تأبى ذلك . وفى بعض الروايات : أنه عليه السلام ينزل على ثنية يقال لها أفيق بفاء وقاف بوزن أمير ، وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ، ويمكث فى الأرض على ما جاء فى رواية ابن عباس أربعين سنة ، وفى رواية سبع سنين قيل : والأربعون إنما هى مدة مكثه قبل الرفع وبعده ، ثم يموت ويدفن فى الحجرة الشريفة النبوية ، وتمام الكلام فى البحور الزاخرة للسفارينى : وعن الحسن وقتادة وابن جبير أن ضمير (أنه) للقرآن لما أن فيه الإعلام بالساعة لجعله عين العلم مبالغة أيضا ، وضعف بأنه لم يجر للقرآن ذكر هنا مع عدم مناسبة ذلك للسياق . وقالت فرقة: يعود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال عليه الصلاة والسلام : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وفيه من البعد ما فيه وكان هؤلاء يجعلون ضمير أم هو وضمير إن هو له صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا وهو كما ترى (فلا تمترن بها) فلا تشكن فى وقوعها .

تعقيب . . .

وبعد جولتك هذه فى تفسير الألوسى على طولها بعد أن حذفت منه ما تعلق بمناقشته للنصارى فى دعواهم الصلب إلا أننى هنا لست فى مناقشتى لأصحاب الديانات الأخرى وكل ما يعنينى أيها القارىء هو إثبات عقيدتك وتبيانها لك وها أنت قد لاحظت مجهود الألوسى فى تجميع الروايات السابقة عليه وتوضيحها بعد جمعها ، فهو فى حقيقته تفسير جامع لكل ما قاله السابقون مع بيان الروايات ونسبتها إلى أصحابها ومدى صحة النسبة وضعفها ، ومع كل ما جمع وناقش هل وجدت فيه غير إثبات الرفع وإثبات النزول.

أما قول من قال : أمتنى فى معنى توفيتنى وهو الجبائى فمع أنه لم يقصد بموته إلا أنها على التقديم والتأخير . أو على ما رواه أصحاب الأجرين عن الكتب السابقة من أن الله أمات سيدنا عيسى عليه السلام عدة ساعات حتى رفعه كيلا يزعجه الموت يرفض الألوسى هذا القول لأنه قول النصارى مع الجبائى فى آية النساء قد أثبت الرفع وأكده والألوسى نفسه ينقل عنه ذلك كما نقله عنه الطبرسى من قبل .

ومع كل هذا فآية المائدة تصور لما هو واقع يوم القيامة بين سيدنا عيسى ومن ادعوا ألوهيته وألوهية أمه . ومعلوم أن يوم القيامة لا يكون إلا بعد الموت . ومع ذلك فإن الألوسى يرفضه لأنه شبيه بقول النصارى .

وبعد تفسير روح المعانى للألوسى الذى لقى ربه سنة ١٢٧٠ هـ تصبح أمام تفسير مراح لبيد لمحمد نووى جاوى المتوفى سنة ١٣١٦ هـ .

التفسير المنير لمعالم التنزيل

للشيخ محمد نووى

المتوفى سنة ١٣١٦ هـ

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا) أي[1] أراد اليهود قتل عيسى (ومكر الله) أى أراد الله قتل صاحبهم تطيانوس وقيل : مكرهم بعيسى همهم بقتله ومكر الله تعالى بهم رفع عيسى إلى السماء وذلك أن يهوذا ملك اليهود اراد قتل عيسى عليه السلام وكان جبريل لا يفارقه ساعة فأمره جبريل أن يدخل بيتا فيه روزنة فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل من تلك الروزنة وكان قد ألقى شبهه على غيره فأخذ وصلب (والله خير الماكرين) أى أقوى المريدين ويقال : أفضل الصانعين .

روى عن ابن عباس أن ملك بنى إسرائيل إسمه يهوذا لما قصد قتل عيسى أمره جبريل أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة الى السماء فقال الملك لرجل خبيث عنهم يقال له ططيانوس : أدخل عليه فاقتله ، فدخل البيت فلم ير عيسى ، فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه، ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هـذا عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فوقع بينهم قتال عظيم (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك) أى مستوفى أجلك المسمى وعاصمك من أن يقتلك الكفار (ورافعك إلى) من الأرض إلى محل كرامتى

---

(١) جـ ١ ص ٩١ المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٥ هـ .

وإلى محل ثوابك (ومطهرك من الذين كفروا) بك أى منجوك منهم (وجاعل الذين اتبعوك) أى الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله والذين صدقوا بنبوتك وادعوا محبتك كالنصارى (فوق الذين كفروا) بك وهم اليهود بالحجة والسيف والقهر والسلطان والاستعلاء والنصرة (إلى يوم القيامة) .

النساء ١٥٧ — ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم) وصلبناه [(١)] (رسول الله) أى فى زعم عيسى نفسه فإن وصفهم له بوصف الرسالة استهزاء به ، أو أن الله وضع الذكر الحسن بقوله رسول الله مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم فإنهم قالوا هو ساحر ابن ساحرة أو أن الله وصف له من عند الله تعالى مدحا له وتنزيها له عن مقالتهم الذى لا يليق به قال الله تعالى إبطالا لافتخارهم بقتل النبى والاستهزاء به (وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم) قال كثير من المتكلمين : ان اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم لما أنهم اجتمعوا على قتله لأن الله مسخ من سبوه وسبوا أمه قردة وخنازير بدعائه عليهم فأخذوا إنسانا يقال له ططيانوس اليهودى وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس أنه المسيح والناس ما كانوا يعرفونه إلا بالاسم لأنه كان قليل المخالطة للناس . ثم إن تواتر النصارى ينتهى الى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب . وقال الضحاك : لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون فى غرفة وهم اثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبر إبليس جميع اليهود فركب أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل يقال

---

(١) ج ١ ص ١٧٢

له سرجس : أنا يا نبي الله ، فألقى إليه مدرعته من صوف وعمامته من صوف وناوله عكازه وألقى الله عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه ، وأما المسيح فكساه الله تعالى الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار مع الملائكة (وإن الذين اختلفوا فيه) أي شأن عيسى (لفي شك منه) أي من قتله (ما لهم به) أي بقتله (من علم إلا اتباع الظن) أي لكنهم يتبعون الظن فإن فسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن اليه النفس فالاستثناء متصل أي لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود إنه كان كاذبا فقتلناه حقا . وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا فليس هذا المقتول بعيسى ، وقال آخرون : بل هو هو . وقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ (وما قتلوه يقينا) أي قتلا يقينا كما قالوا إنا قتلنا المسيح (بل رفعه الله إليه) أي إلى موضع لا يجرى فيه حكم غير الله تعالى ولا يصل اليه حكم آدمي وذلك الموضع هو السماء الثالثة (وكان الله عزيزا) أي كامل القدرة (حكيما) أي كامل العلم فرفع عيسى من الأرض إلى السماء لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته .

المائدة ١١٧

(فلما توفيتني) أي[١] رفعتني من بينهم الى السماء .

---

(١) ج ١ ص ٢١٢

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أي[1] وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله ورسوله فلا ينفعه إيمان لانقطاع وقت التكليف كما نقل محمد بن علي بن أبي طالب بن الحنفية أن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا: ياعدو الله أتاك عيسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت بأنه عبدالله ورسوله، ويقال للنصراني: أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه هو الله وابن الله فيقول آمنت أنه عبد الله وابنه ، فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن لاينفعهم ذلك الإيمان (ويوم القيامة يكون) أي عيسى عليه السلام (عليهم) أي أهل الكتاب (شهيدا) فيشهد على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه وعلى النصارى أنهم أشركوا به وكل نبي شاهد على أمته .

الزخرف ٦١

(وإنه لعلم للساعة) أي[2] وان عيسى لشرط من أشراط الساعة ، والمعنى أن نزول عيسى من السماء علامة على قرب الساعة، وقرأ ابن عباس (لعلم) بفتح العين واللام أي علامة، وقرىء للعلم وقرأ أبي (لذكر) ، وفي الحديث: (إن عيسى ينزل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن به .

---

(١) جـ ١ ص ١٧٢

(٢) جـ ٢ ص ٢٨٠

تعقيب

وبمراح لبيد ننهى رحلتنا مع كتب التفسير والمفسرين وصاحبه محمد نووى جاوى المتوفى سنة ١٣١٦ هـ فهل وجدت فيه خلافا عن الكتب السابقة ، وهل حتوى على غير إثبات الرفع وإثبات النزول قولا أو رأيا لأى من المسلمين؟ .

إنه تفسير دقيق فى تناوله للآيات ولم يثبت إلا رفع عيسى ونزوله .

بمراح لبيد ننهى رحلتنا مع كتب التفسير حتى إذا بدا رأى مخالف نكون على بينة من أنه على مدار ما يزيد على ثلاثمائة وألف عام لم ينكر أحد من العلماء رفع عيسى بجسده وروحه ولا نزوله ولم يثبت الإنكار قولا لأحد من رجال الأمة الإسلامية وعلمائها من عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى بداية القرن الرابع عشر لهجرة أشرف الخلق .

مع التفسير ...

بعد أن قرأنا كل ما مضى من كتب التفسير فإننا نلاحظ ما يأتى :

أولا : إنه لم يقع خلاف بين جميع الآراء التى تعرضت لرفع سيدنا عيسى فى أن الله تعالى رفعه ، ولا خلاف بينهم فى أنه حى الآن ، وإنما الخلاف الذى وقع هو : هل رفع حال يقظته ؟ وهذا ما أجمع عليه المسلمون ، أو رفع حال نومه؟ وهذا الرأى ذهب إليه قليل جداً من المسلمين منهم : الربيع بن أنس ، أو أن الله تعالى أماته حتى يرفعه كى لا ينزعج بالرفع وهو الذى رواه أصحاب الأجرين من أهل الكتاب الذين أسلموا بناء على قراءتهم السابقة فى كتبهم التى درسوها قبل أن يسلموا ، ومن هؤلاء : وهب بن منبه وكعب الأحبار ، وكلاهما قد أجمع أهل الحديث الذين تناولوا الجرح والتعديل على توثيقهم وقبول رواياتهم عما يذكروه من كتبهم السابقة ، فالتوثيق لهم ثابت ، وما أخبروا به عن الكتب السابقة قد قرءوه حقا ، فصدقهم فيه ثابت . أما قبول هذا المروى أو رفضه فشيء آخر لا يمس ثقتهم ولا عدالتهم ولا صدقهم فى صحة ما نقلوه عن الكتب السابقة .

ثانيا : قد تبين لك أن المفسرين كلهم قد أجمعوا على عدم وقوع القتل على سيدنا عيسى ، وأن كلمة : « يقينا » ، فى قوله تعالى : « وما قتلوه يقينا » مثبت تأكيد نفى القتل ، ولقد قرأت قول الرازى : واعلم أن هذا اللفظ يحتمل وجهين :

أحدهما : يقين عدم القتل .

والآخر : يقين عدم الفعل .

وأن الخازن قد أثبت فى الوجه السادس أن معنى التوفى أخذ الشىء وافيا . ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذى رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لا هوته يعنى روحه وبقى فى الأرض ناسوته يعنى جسده ، رد الله عليهم بقوله : « إنى متوفيك ورافعك إلى » فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعا . ولسنا نستطرد فى ذكر ما جاء فى التفاسير ، فقد مرت بك جميعاً وأصبحنا فى غنية عن إعادة ما تبيناه معا أيها القارىء .

ثالثاً : الرواية التى نقلت عن ابن عباس من طريق على بن أبى طلحة فى قوله تعالى : «إنى متوفيك» قال : «إنى مميتك» قد تبين لك عند قراءة كتب التفسير مقصود ابن عباس من هذا المعنى : « إنى مميتك » أى : إنى منيمك ، أو مميتك ثلاث ساعات أو سبع ساعات ، كما ورد فى روايات الكتب السابقة التى نقلها أصحاب الأجرين من أهل الكتاب . وهذه الرواية ضعيفة لم تثبت صحتها عن ابن عباس وإنما ثبت عنه خلافها . ومنها ما أثبته على بن أبى طلحة نفسه عن ابن عباس فى قوله : «وما قتلوه يقينا » قال : يعنى لم يقتلوا ظنهم يقينا والموت مترتب على القتل والسبب لم يقع وشك فى علمه فلم يقع المسبب وهو الموت والروايات التى نقلت الرفع عن ابن عباس حال اليقظة متعددة لا تقوم أمامها رواية على بن أبى طلحة . فالبغوى يذكر رفعه حال يقظته عن ابن عباس فى رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . وهذا طريق أول . ويأتى بعده ابن كثير ويذكر الطريق الثانى وهو عن ابن حاتم، حدثنا أحمد بن سنان حدثنا معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه النسائى عن أبى كريب بنحوه . ورواه ابن بشار ، قال حدثنا عبدالرحمن

عن سفيان عن أبى عقيل عن سعيد[1] بن جبير وقال العوفى[2] عن ابن عباس بذلك . ورواه القرطبى على أبى بـكر بن أبى شيبة بنفس سند ابن كثير عن أبى معاوية عن الأعمش ، ولذا حكم القرطبى بصحة هذه الرواية ، ومعنى أن رواية الرفع هى الصحيحة فى حكم القرطبى ضعف غيرها وعدم قبوله ، ويؤيد ذلك أيضا أن القول بموته ينافى ما قاله ابن عباس فى رفعه وهو الثابت عنه فى كل الروايات ، وكذلك ينافى قراءته لقوله تعالى : «وإنه لعلم للساعة فإن ابن عباس قرأها « لعلم للساعة » بفتح العين واللام ومعناها : الأمارة ، والمفسرون يثبتون رجوع الضمير عند ابن عباس الى عيسى فى قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » فها أنت ترى أن جميع الروايات المنقولة عن ابن عباس وقراءته لقوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة » بفتحتين تثبت أن ابن عباس لم يخرج عن ما أجمع عليه المفسرون وأن رواية ابن أبى طلحة لاتنهض أمام كل ماثبت لك من روايات عن ابن عباس . وكذلك ماثبت عن ابن عباس فى الطريقة التى رفع بها سيدنا عيسى ، وأن ابن عباس فى رواياته كلها يثبت الرفع حال اليقظة ويقطع بالنزول .

وبعد كل ما بيناه لك من عوامل ضعف رواية على بن أبى طلحة فاعلم أن العلماء قد ردوها وحكموا بضعفها لأن على بن أبى طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس ولم يره . قال دحيم : لم يسمع على التفسير عن ابن عباس . وقال عنه ابن حبان : روى عن ابن عباس ولم يره[3] .

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام الأسدى روى عن ابن عباس أنظر تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١١

(٢) هو عطية بن سعد بن جنادة بضم الجيم بعدها نون خفيفة روى عن ابن عباس أنظر تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٢٢٤

(٣) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٣٩ حرف العين .

وثبت أن أصحاب الروايات المخالفة له قد التقوا بابن عباس وروروا عنه . ومنهم معبد بن جبير بن هشام الأسدى ذكوان أبو صالح[1] السمان الزيات المدنى .

رابعا : انه لم يقع خلاف بين أى فرقة من الفرق الإسلامية فى رفع سيدنا عيسى ونزوله .

وقد قرأت تفسير الطبرسى وهو من الشيعة ، وقرأت تفسير الكشاف وهو للزمخشرى أحد زعماء المعتزلة وخطيبهم ، وقرأت رأى الجبائى فى تفسير الطبرسى والألوسى .

ويقول القاضى عبد الجبار فى كتابه (متشابه القرآن) :

[وقوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » لا يمكنهم حمله على ظاهره ؛ لم يذكر الكفر ، وإنما ذكر تطهيره من الكفار ، وذلك إنما يكون بتخليصه منهم .

ويجوز أن يكون المراد بذلك أنه مطهره من أعمال الذين كفروا وأحكام كفرهم ، بأن يعزه وقد أذلهم ، ويعظمه وقد استخف بهم وهذا ظاهر][2] .

فهذا النص يعطيك أن الرفع ليس من مواضع المتشابه عند القاضى عبد الجبار وإنما المتشابه هو معنى التطهير فى قوله : « ومطهرك من الذين كفروا » ، وبين أن ذلك إنما يكون بتخليصه — أى سيدنا عيسى — منهم وتخليصا منهم ليس له طريق إلا الرفع وإثبات الحياة كما ذكر القرآن . إذ إثبات أى شىء آخر غير ذلك من موت أو صلب ينافى تخليصه منهم وإنما يثبت تخليصهم منه ، وهو إتمام لمقصودهم الحقيقى من محاولة قتله بالصلب التى نفاها الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أبو صالح هو ذكوان أبو صالح السمان الزيات المدنى روى عن ابن عباس تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٢١٩

(٢) متشابه القرآن جـ ١ ص ١٤٦ ط دار التراث

أو لكان قوله تعالى : « وإن الذين اختلفوا فيه » الآية عبث إذ أن الاختلاف وتوابعه إنما هو نتيجة لعدم موته بالصلب ، فلو حصل الموت على أى صورة لما كان اختلاف وكذلك لو فرّ منهم خوفا على نفسه لانتفى مقصود الرسالة وثبت بفراره جبنه المنافى لعصمته ، وأخلاق الرسل وثبت كذبه ثم تخليصهم منه وحاشاه من ذلك . ولو كان التوفى من مواضع المتشابه عند القاضى عبد الجبار لتناوله وبينه . إذن فليس موضع شك أن التوفى عند القاضى عبد الجبار مقصود به حقيقته وهو أخذ عيسى وافيا بروحه وبدنه ورفعه حتى يتم التطهير له من الذين كفروا بتخليصه منهم ، وهذا المعنى هو ما أثبته شيخه الجبائى ، وقد مر بك فى تفسير الطبرسى والألوسى وكذلك أخذه منه الرازى فى الصفة الثالثة من صفات عيسى فى قوله تعالى : « ومطهرك من الذين كفروا والمعنى : مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة فى إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى] .

وقد وضح لك الآن أيها القارىء الكريم أن المتشابة عند القاضى عبد الجبار شيخ المعتزلة وصاحب موسوعتهم وعند شيخه أبى على الجبائى، إنما وقع فى لفظ التطهير دون لفظى التوفى والرفع ولأن التوفى والرفع ليسا من مواضع المتشابه عند القاضى عبد الجبار لم يذكر فى كتابه (متشابه القرآن) شيئا عند قوله تعالى فى سورة النساء « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم » الآيتين ،

وكذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : « فلما توفيتنى » وليس من المتشابه عنده ماجاء متعلقا بالنزول ومنه آية النساء «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وآية الزخرف « وإنه لعلم للساعة » مما يجعلنا نقطع بأن القاضى عبد الجبار يدين بالرفع والنزول وأنهما ليسا عنده من المتشابه ، بل هما عنده كما عند غيره من المحكم المقطوع به ، فإنه عند قوله تعالى « وإن من أهل

الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » لم يتعرض لنفى النزول ولم يتعرض له فى قوله تعالى : «فلما توفيتنى» ولم يتعرض له كذلك فى قوله «وإنه لعلم للساعة» ولم يؤثر عن أحد من المعتزلة ولا غيرهم من الفرق الإسلامية القول بنفى الرفع أو إنكار النزول . فالرفع قضية مسلمة لاجدال فيها إذ إنكارها إنكار للنص القطعى ، وهو القرآن وإنكاره كفر .

وأما النزول فقد ثبت بالخبر المتواتر فإنكاره أيضا كفر حكم بذلك العلماء كما سيتبين عند دراستنا للموضوع فى كتب السنة والأحاديث الواردة فى النزول هى كما رأيت من بيان المجمل لذا عمد المفسرون بعد بيانه لتعدد مرجع الضمير من الجهة اللغوية النص على أن أولى الأقوال بالصحة أو أرجحها هو القول برجوع الضمير إلى عيسى وهذا ما تفرضه القاعدة الأصولية فى بيان المجمل إذا كان للضمير أكثر من مرجع وأتى نص يبين المرجع يصبح هو المحدد من جهة الشرع .

خامسا : أنه قد تبين لك من قراءتك للفخر الرازى وغيره أنه ليس المعنى فى قول المفسرين، ذهب أهل الظاهر وذهب أهل التأويل إلى أن المراد فى التأويل تأويل المعنى ، ولكن مرادهم من ذلك من أجرى الآيات على ظاهرها دون تقديم أو تأخير فى اللفظ وهم الذين استعملوا الألفاظ فى معانيها الحقيقية وهو أن التوفى أخذ الشيء وافيا .

وأما الذين أولوا وذهبوا إلى التقديم والتأخير فإن مرادهم بكلمة : التوفى ، هو معناها المجازى وهو الموت ، وغالبية النحويين ذهبوا إلى أن فى الكلام تقديما وتأخيرا فى قوله تعالى : « إنى متوفيك ورافعك إلى » فمعناه عندهم : إنى رافعك ومتوفيك بعد ذلك ، وأن التقديم والتأخير عند حمل اللفظ على المعنى المجازى ضرورى ، إذ نقل اللفظ إلى معناه المجازى دون تقديم أو تأخير إنكار للرفع الذى أثبته القرآن فى هذه الآية من آل عمران وفى آيتى النساء وإنك

قد تبينت فى قراءتك للطبرسى ان هذا هو رأى النحويين فإنهم ذهبوا الى التقديم والتأخير ، فمن عارض فى ذلك وقال : لا يصح التقديم والتأخير ، فقد أنكر الثابت الواقع والمتكرر فى القرآن فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « فكيف كان عذابى ونذر » ومن المعلوم أن المنذرين وإنذارهم كان قبل إتيان العذاب كما بين الله سبحانه وتعالى ذلك « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما »

عشنا معا أيها القارىء الكريم رحلة التفسير على ما يزيد على ثلاثمائة وألف عام ، فهل وجدت فى إثبات الرفع والنزول مخالف ، اللهم لا .

نسأل الله أن يرزقنا الاتباع ويجنبنا الابتداع .

وكل خير فى اتباع من سلف ‏ ‏ ‏ وكل شر فى ابتداع من خلف

كما قال اللقانى :

وبعد هذه الحقبة الطويلة من إجماع الأمة — مفسرين ومحدثين ومؤرخين وعلماء عقيدة كما ترى — على رفع سيدنا عيسى ونزوله ظهر معنى اللقانى :

...... ‏ ‏ ‏ وكل شر فى ابتداع من خلف

فنبتت بعد بداية القرن الرابع عشر الهجرى نابتة ، نريد أن نتعرف على رأيها ثم نذكر أصولها التى أخذوا منها ولا نستطرد فى تتبع الذين تأثروا بها بعد ذلك لأنه إذا ثبت مخالفة أصلهم للكتاب والسنة وإجماع الأمة من عهد نبيها إلى وقتنا الحاضر ثبت فساد أصلها وما تفرع منه فلا نشغل أنفسنا بالفرع بعد فساد الأصل .

تفسير المنار لمحمد رشيد رضا

بأقوال الشيخ محمد عبده

آيات الرفع

آل عمران ٥٤ — ٥٥

(ومكروا ومكر الله) أى[1] ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه ، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة ، كذا قال الجمهور . وأقرهم الأستاذ الإمام. ولكن ورد فى سورة الأعراف إضافة المكر إلى الله تعالى من غير مقابلة بمكر الناس . قال (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ٧ : ٩) والمكر فى الأصل : التدبير الخفى المفضى بالممكور به إلى مالا يحتسب ، ولما كان الغالب أن يكون ذلك فى السوء لأن من يدبر للانسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره ، غلب استعمال المكر فى التدبير السيء وإن كان فى المكر الحسن والسيء جميعا قال تعالى :

(استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ٣٥ : ٤٣) ووجه الحاجة إلى المكر الحسن ان من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله فيحتاج مربيه أو متولى شئونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله إلى مالا يصح أن يعرفه قبل الوصول ؛ إذ يوجد فى الماكرين الأشرار والأخيار (والله خير الماكرين) فإن تدبيره الذى يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه أو إتمام حكمه وكلها خير فى نفسها وإن قصر كثير من الناس فى الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم .

وقال الأستاذ فى تفسير : (خير الماكرين) بناء على أن المكر فى نفسه شر :

(١) ج ٣ ص ٢٥٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م

أى إن كان فى الخير ومكر، فمكره سبحانه وتعالى موجه إلى الخير ومكرهم هو الموجه إلى الشر .

(إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) أى مكر الله بهم ، إذ قال لنبيه : (إنى متوفيك) الخ ، فإن هذه بشارة بإنجائه من مكرهم وجعل كيدهم فى نحرهم قد تحققت ، وإن لم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة ، والتوفى فى اللغة : أخذ الشىء وافيا تاما ، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ٣٩ : ٤٢) وقال : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ٣٢ : ١١) فالمتبادر من الآية : إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى كما قال فى إدريس عليه السلام : (ورفعناه مكانا عليا ١٩ : ٥٧) ، والله تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال فى الشهداء : (أحياء عند ربهم ٣:١٦٩) وقال : (إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ٥٤ : ٥٥) وأما تطهيره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرمونه منه ويريدونه به من الشر . هـــذا ما يفهمه القارىء الخالى الذهن من الروايات والأقوال ؛ لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده وهاك ما قاله الأستاذ الإمام فى ذلك :

يقول بعض المفسرين : (إنى متوفيك) أى منومك ، وبعضهم : إنى أنجيك من هؤلاء المعتدين ، فلا يتمكنون من قتلك ، وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك إلى ، ونسب هذا القول الى الجمهور وقال : للعلماء ههنا طريقتان إحداهما — وهى المشهورة — : أنه رفع حيا بجسمه وروحه ، وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى . ولهم فى حياته الثانية على الأرض

كلام طويل معروف، وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن فى تقديم الرفع على التوفى بأن الواو لا تفيد ترتيبا . أقول : وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكلام البليغ إلا لنكتة ، ولا نكتة هنا لتقديم التوفى على الرفع ؛ إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة .

(قال) : والطريقة الثانية ان الآية على ظاهرها ، وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر وهو الاماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ، ولا بدع فى إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه ، فإن الروح هى حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار فإنه يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان لأن روحه هى هى (قال) : ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان :

أحدهما : أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعى ، لأن المطلوب فيها هو اليقين ، وليس فى الباب حديث متواتر .

وثانيهما : تأويل نزوله وحكمه فى الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب فى تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها ، وهو حكمتها وما شرعت لأجله ، فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر الفاظ شريعة موسى عليه السلام ، ويوقفهم على فقهها والمراد منها ، ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب ، أى ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا

ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه ، وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها كان لا بد لهم من اصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقى ، وكل ذلك مطوى فى القرآن الذى حجبوا عنه بالتقليد الذى هو آفة الحق وعدو الدين فى كل زمان . فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر .

هذا ما قاله الأستاذ الإمام فى الدرس مع بسط وإيضاح ولكن ظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث : والناقل المعنى ينقل مافهمه ، وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال : إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها . وإن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينة لذلك فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك ، وسنعود إلى مبحث ما جرى للمسيح عليه السلام مع الماكرين الذين أرادوا قتله وصلبه فى تفسير سورة النساء إن شاء الله تعالى .

(وجاعل الذين اتبعوك) بالأخذ بما جئت به من الهدى (فوق الذين كفروا) بك ولم يهتدوا بهديك ، فوقية روحانية دينية وهى كونهم أحسن أخلاقا وأكمل آدابا وأقرب إلى الحق والفضل وأبعد عن الباطل والاعتداء ، أو فوقية دنيوية وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم ولكن هذا الوجه لم يتحقق فى زمن المسيح لأشد الناس اتباعا له ، بل كانوا مغلوبين لليهود ، فتعين أن يكون الوجه الأول هو المراد ووجهه ظاهر ، فإن اتباع المسيح هو عين الأخذ بتلك الفضائل والمواعظ التى جاء بها وليس عندنا شىء عن الأستاذ الإمام فى هذا . ولا يشكل عليه قوله .

(إلى يوم القيامة) فإن فوقية الفضائل والآداب هي التي كانت وستبقى كذلك ما دامت السموات والأرض (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) أقول : فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب، وبذلك يشمل المسيح والمختلفين معه ويشمل الاختلاف بين أتباعه الكافرين به . والله هو الذى يبين لهم جميعا يوم الحساب الحق فى كل ما اختلفوا فيه بما يزيل شبهة المشتبهين ورياء الجاحدين .

النساء ١٥٧ ـ ١٥٨

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) أى[1] ويسبب قولهم هذا فإنه قول يؤذن بمنتهى الجرأة على الباطل ، والضراوة بارتكاب الجرائم والاستهزاء بآيات الله ورسله ووصفه هنا بصفة الرسالة للايذان بتهكمهم به عليه السلام واستهزائهم بدعوته ، وهو مبنى على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية كما تزعم النصارى على أن أناجيلهم ناطقة بأنه كان موحدا لله تعالى مدعيا للرسالة كقوله فى رواية إنجيل يوحنا (١٧ : ٣ وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته) ويجوز أن يكون قوله (رسول الله) منصوبا على المدح أو للاختصاص للاشارة إلى فظاعة عملهم ودرجة جهلهم وشناعة زعمهم (وما قتلوه وما صلبوه) أى والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحوا بالجريمة وما صلبوه كما أدعوا وشاع بين الناس (ولكن شبه لهم) أى وقع لهم الشبهة أو الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وإنما صلبوا غيره ، ومثل هذا الشبه أو الاشتباه يقع فى كل زمان كما سنبينه قريبا (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) أى وإن

---

(١) ج ٦ ص ١٦ - ١٧

الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى شك من حقيقة أمره ، أى فى حيرة وتردد ما لهم به من علم ثابت قطعى لكنهم يتبعون الظن ، أى القرائن التى ترجح بعض الآراء الخلافية على بعض . فالشك الذى هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم ، هذا إذا كان — كما يقول علماء المنطق — لا يستعمل إلا فيما تساوى طرفاه بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر ، والذين يتبعون الظن فى أمره هم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض بالقرائن أو بالهوى والميل والصواب أن هذا معنى اصطلاحى للشك . وأما معناه فى أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل ، وعدم استبانة ما يجول فى الذهن من الأمر قال الركاض الدبيرى :

يشك عليك الأمر ما دام مقبلا وتعرف ما فيه إذا هو أدبرا

فجعل المعرفة فى مقابلة الشك . وقال ابن الأحمر :

وأشياء مما يعطف المرء ذا النهى تشك على قلبى فما أستبينها

وفى لسان العرب: إن الشك ضد اليقين . فهو إذن يشمل الظن فى اصطلاح أهل المنطق وهو ما ترجح أحد طرفيه ، فالشك فى صلب المسيح هو التردد فيه . أكان هو المصلوب أم غيره : فبعض المختلفين فى أمره الشاكين فيه يقول : انه هو ، وبعضهم يقول : انه غيره وما لأحد منهما علم يقينى بذلك وإنما يتبعون الظن . وقوله تعالى : (إلا اتباع الظن) استثناء منقطع كما علم من تفسيرنا له . وفى الأناجيل المعتمدة عند النصارى ان المسيح قال لتلاميذه : (كلكم تشكون فى فى هذه الليلة) أى التى يطلب فيها للقتل (متى ٢٦ : ٣١ ومرقس ١٤ : ٢٧)

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة بأنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به يشكون فيه فى ذلك الوقت — وخبره صادقا قطعا — فهل يستغرب اشتباه

غيرهم وشك من دونهم فى أمره وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الإسناد ؟!

(وما قتلوه يقينا) أى وما قتلوا عيسى بن مريم قتلا يقينا أو متيقنين أنه هو بعينه ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة . وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذى أسلمه الى الجند هو يهوذا الأسخريوطى ، وأنه جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو يسوع المسيح، فلما قبله قبضوا عليه . وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الاسخريوطى نفسه ظنا أنه المسيح لأنه ألقى عليه شبهه فالذى لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية ، وقيل : أن الضمير فى قوله تعالى : (وما قتلوه يقينا) للعلم الذى نفاه عنهم ، والمعنى : ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن ، وما قتلوا العلم يقينا وتثبيتا به بل رضوا بتلك الظنون التى يتخبطون فيها . يقال : قتلت الشىء علما وخبرا ـ كما فى الأساس ـ إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب . وروى عن ابن عباس انه راجع إلى الظن الذى يتبعونه قال : (لم يقتلوا ظنهم يقينا) رواه ابن جريج ، أى انهم يتبعون ظنا غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح والحكم التى توصل إلى العلم ، وقد اختلف رواية المفسرين بالمأثور فى هذه المسأله ؛ لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى . وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقينى . ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة كجمع المسيح لحوارييه (أو تلاميذه) وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم وقوله لبعضهم : إنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات . ومن بيعه بدلالة أعدائه عليه فى مقابلة مال قليل .وكون الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له . ولكن بعضهم قال : إن شبهه ألقى على من دلهم عليه وبعضهم قال : بل ألقى

شبهه على جميع من كانوا معه ، وروى ابن جريج القولين عن وهب بن منبه والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدى مريدى قتله فقتلوا آخر ظانين أنه هو .

وأما قوله تعالى : (بل رفعه الله إليه) فقد سبق نظيره فى سورة آل عمران وذلك قوله تعالى : (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ٣ : ٥٥) وروى عن ابن عباس تفسير التوفى هنا بالاماتة كما هو الظاهر المتبادر ، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها وهو الأخذ والقبض ، والمراد منه ومن الرفع انقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذى اصطفاه وقربه إليه . قال ابن جرير بسنده عن ابن جريج « فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا » أى ليس المراد الرفع إلى السماء لابالروح والجسد فقط . وعلى القول بأن التوفى الاماتة لا يظهر للرفع معنى إلا رفع الروح . والمشهور بين المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء ، ويستدلون على هذا بحديث المعراج ؛ إذ فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، ولو كان هذا يدل على أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء لدل أيضا على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السماوات ولم يقل بهذا أحد .

وذكر الراوى أن المشبهة يستدلون بالآية على إثبات المكان لله تعالى ، وذكر للرد عليهم وجوها (منها) أن المراد بـ (رافعك إلى) الى محل كرامتى ، وجعل ذلك رفعا للتفخيم والتعظيم ، ومثله قوله تعالى حكاية عن ابراهيم : (إنى ذاهب إلى ربى ٣٧ : ٩٩) وإنما ذهب من العراق إلى الشام (ومنها) ان المراد رفعه إلى مكان لا يملك فيه عليه غير الله .

وقد فسرنا آية آل عمران فى الجزء الثالث وذكرنا ما قاله الأستاذ الإمام

فيها وفى مسألة نزول عيسى فى آخر الزمان كما ورد فى الأحاديث . وقد أنكر بعض الباحثين ما أوردناه فى ذلك وهو محتاج إلى تمحيص وبيان ليس التفسير بمحل له ؛ لأن القرآن لم يثبت لنا هذه المسألة .

(وكان الله عزيزا حكيما) فبعزته وهو كونه يَقهر ولا يُقهر ، ويَغلب ولا يُغلب أنقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين ، والروم الحاكمين ، وبحكمته جزى كل عامل بعمله ، فأحل باليهود ما أحل بهم وسيوفيهم جزاءهم فى الآخرة .

المائدة ١١٧

قال : (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) ولم[١] يقل : ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به ، أدبا مع الله تعالى ومراعاة لما ورد فى السؤال (أأنت قلت)

(وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) أى وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة دوام وجودى بينهم (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) أى فلما توفيتنى إليك كنت أنت المراقب لهم وحالك إذ انتهت مدة رسالتى فيهم ومراقبتى لهم وشهادتى عليهم ، فلا أشهد على ما وقع منهم وأنا لست فيهم وأنت شهيد عليهم وشهيد بينى وبينهم ، بما أنك شهيد على كل شىء فى ملكك وأنت أكبر شهادة ممن تجعلهم شهداء من خلقك (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ٦ : ١٩)

---

(١) ج ٧ ص ٢٢٣

آيتا النزول

النساء ١٥٩

(وإن من أهل الكتاب) أى [1] ومامن أهل الكتاب أحد (إلا ليؤمنن به) أى ليؤمنن بعيسى إيمانا صحيحا ، وهو أنه عبد الله ورسوله وآيته للناس (قبل موته) أى قبل موت ذلك الأحد الذى هو نكرة فى سياق النفى فيفيد العموم وحاصل المعنى أن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق فى أمر عيسى وغيره من أمر الإيمان فيؤمن بعيسى إيمانا ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق غير دعى ولا كذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله فلا هو إله ولا ابن الله (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يشهد عليهم بما تظهر به حقيقة أمره معهم ، ومنه ماحكاه الله عنه فى آخر سورة المائدة (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ٥ ـ ١١٧) وقد يشهد المؤمن منهم فى حال الاختيار والتكليف بإيمانه ، وعلى الكافر بكفره ، بأنه مبعوث إليه ، وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ٤ ـ ٤١)

وذهب بعضهم إلى أن المراد أن كل أحد من أهل الكتاب يؤمن بعيسى قبل موت عيسى ، وهذا مبنى على القول بأن عيسى لم يمت وأنه رفع إلى السماء قبل وفاته وهم الذين أولوا قوله تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى ٣ ـ ٥٥) وهم على هذا يحتاجون الى تأويل النفى العام هنا بتخصيص بمن يكون منهم حيا عند

---

(١) ج ٦ ص ١٨

نزوله فيقولون: المعنى وما من أحد من أهل الكتاب الذين ينزل المسيح من السماء إلى الأرض وهم أحياء إلا ليؤمنن به ويتبعنه ، والمتبادر من الآية المعنى الأول. وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وهو مبني على شيء لا نص عليه في القرآن حتى يكون قرينته له ، والأخبار التي وردت فيه لم ترد مفسرة للآية .

أما المعنى الأول، الذي هو الظاهر المتبادر من النظم البليغ فيؤيده ما ورد من اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة ، ومن كونهم يبشرون برضوان الله وكرامته أو بعذابه وعقوبته . ففي حديث عبادة بن الصامت في الصحيحين : « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وأن الكافر اذا حضر ـ بضم الحاء : أي حضره الموت ـ بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى أحمد والنسائي من حديث أنس وغيرهما من حديث عبادة ابن الصامت . وعن عائشة زيادة في حديث : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » الذي في الصحيحين وغيرهما ، وهي أنه قالوا يا رسول الله كلنا نكره الموت فقال : « ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن اذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر اليه فليس شيء أحب اليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه . وإن الفاجر اذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر اليه من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه » وروى ابن مردويه وابن منده بسند ضعيف عن ابن عباس «ما نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار » . وروى مثله ابن أبي الدنيا عن رجل لم يسم عن علي مرفوعا . فهذه الأحاديث تؤيد ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير الآية من كون الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح ، مع الانكار الشديد والتقبيح ، ومما يؤيد هذه الحقيقة النص في سورة يونس على تصريح فرعون بالإيمان حين أدركه الغرق . ولها دلائل أخرى كالأحاديث الواردة في عدم قبول التوبة عند الغرغرة والله أعلم .

مع المنار :

وبعد قراءتنا لهذا التفسير لنا عليه ملاحظات نبديها فى الآية الأولى على الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده حسب نصيب كل واحد منهما فى التفسير .

أولا : على الشيخ رشيد رضا ، فيما قدم به للاية من أن [التوفى فى اللغة : أخذ الشىء وافيا تاما ، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة][1] . ا . هـ

ففى لغة العرب ، لم يكن لفظ التوفى مستعملا فى الموت ، وإنما هو مستعمل فى أخذ الشىء وافيا تاما . وهذا هو المعنى الذى يفهمه العربى القرشى الموجود عند نزول القرآن ، فلم يكن يفهم منه الموت . ثم يقول الشيخ رشيد رضا : [ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة] ا . هـ وهذا هو المعنى الثانى ، والذى لم يكن يفهمه القرشى إلا بذكر القرينة الدالة على إرادته والصارفة إليه . ولذلك لما أراد القرآن من التوفى الموت وهو غير المتبادر من اللفظ ، وضع ما يدل عليه وهو قوله تعالى « حين موتها » فى قوله تعالى «الله يتوفى الأنفس حين موتها» و «ملك الموت» فى قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت » لتحديد المعنى المراد غير المتبادر إلى الذهن عند ذكر لفظ التوفى ، وإلا لكان ذكر «حين موتها فى قوله تعالى «الله يتوفى الأنفس حين موتها » وذكر « ملك الموت » فى قوله تعالى «قل يتوفاكم ملك الموت » فى لفظ دلالته القاطعة والمتبادرة الى الذهن هى الموت حشوا وعبثا فى القرآن ، وحاشا كتاب الله من ذلك .

وعلى هذا فإن قوله [لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م

الآيات ، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده](1) ، مغالطة لغوية حمل فيها المعنى المجازى – الشائع فى عصرنا حتى نسى حقيقة اللفظ – على أنه المعنى الحقيقى المراد ، مع أنه يعلم أن اللفظ يحكم عليه بمعناه الحقيقى المستعمل فيه عند نزول اللفظ ، والتوفى قد نزل بمعناه فى لغة قريش على قريش ، ولم يفهموا منه إلا حقيقته وهو أخذ الشىء وافياً تاماً ، وعرفوا وفهموا منه أن الرفع قد تم لعيسى بالروح والجسد وقال به العلماء وأثبتته الروايات ، فتحويل اللفظ عن معناه الأصلى عند النزول إلى ما شاع فى عصرنا مغالطة علمية وإيهام مقصود ، وإليك ما يقوله أحد أئمة اللغة والبلاغة ، وهو الزمخشرى ، فى كتابه « أساس البلاغة » الذى اهتم فيه بذكر المعانى الحقيقية والمجازية للألفاظ عند مادة وفى .

[و ف ى – درهم واف ، وكيل واف ، وله شَعَر واف ، ووفَى جناح الطائر ، وله جناح واف : ضاف ، ووزن له بالوافية ، بالصنجة التامة ، وصار هذا وفاء لذلك تماماً له . ويقال : مات فلان وأنت بوفاء ، أى بتمام عمرك وطوله دعاء له بالبقاء . ووفى بالعهد وأوفى به ، وهو وفىّ من قوم أوفياء ووفاة ، ووفاه حقه وأوفاه « وأوفوا الكيل » واستوفاه الله وتوفاه : استكمله ، ووافيته فى الميعاد : مفاعلة من الوفاء ، ووافيته بمكان كذا : أتيته وفاجأته ، ووفانى كتابك ، وقال بشر :

كأنما الأتحمية قام فيها   لحسن دلالها رشأ موافى

مفاجىء . وقال آخر :

وكأن ما وافاك يوم لقيتها   من وحش وجرة عاقد مترتب

---

(1) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٦٠

ووافى على شرف عن الأرض : أشرف .

ومن المجاز : أوفى على المائة إذا زاد عليها . ووافيت العام : حججت . وتوفى فلان ، وتوفاه الله تعالى ، وأدركته الوفاه][1]

فالموت إذن استعمال مجازى للتوفى لا يصار إليه إلا بقرينة صارفة عنه إرادة المعنى الحقيقى ، وكما استعمل لفظ التوفى فى الموت مجازا ، استعمل كذلك فى النوم بقرينة « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » ، « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » . ولأن استعمال التوفى فى الموت مجاز لم تكن المقابلة بين التوفى والحياة ، لأن المقابلة لا تكون إلا بين المعانى الحقيقية ، فلم تقابل الحياة فى القرآن إلا بالموت «وهو الذى أحياكم ثم يميتكم » ، « خلق الموت والحياة » ، « وأنه أمات وأحيا » .

واقرأ القرآن، فلن تجد الموت مقابلا إلا للحياة ، ولا مستعملا إلا مضافا لله ، بعكس لفظ التوفى فإنه كما أضيف إلى الله أضيف إلى خلقه .

ولو أننا قبلنا من أصحاب تفسير المنار هذا القلب للحقائق من دعواهم أن المراد بالتوفى الموت ، وهو كما علمت ليس متبادرا إلى ذهن العربى القرشى عند نزول القرآن لـكانت معانى الألفاظ لا قيمة لها ولا وجود ، بل يترتب عليه نفى حقيقة الموت ، وأنه ليس أكثر من النوم كما ورد فى حديث البخارى ومسلم والنسائى وأحمد والبيهقى : (كان صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : باسمك اللهم أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا

(١) أساس البلاغة للزمخشرى ص ٥٠٥ مطبعة دار الـكتب المصرية سنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م

استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[١]

ثانيا : الشيخ محمد عبده،وهو بعد أن ذكر الرفع قال: [وبعضهم إنى أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف أنفك ثم أرفعك ونسب هذا القول إلى الجمهور][٢] اهـ

وهذه مغالطة علمية ، فقد قرأت كتب التفسير التى قدمناها لك ، فهل وجدت فيها هذا القول لواحد فقط ، فضلا عن أن ينسب إلى الجمهور ؟ !

اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وأما قوله عند إنكاره على من ذهب إلى أن فى الآية تقديما وتأخيرا ، وأن الواو لاتفيد ترتيبا [أقول : وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكلام البليغ إلا لنكتة ولا نكتة هنا ، لتقديم التوفى على الرفع ؛ إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفع المكانة][٣] ا.هـ

فكأن الشيخ لم يقرأ كتب التفسير ، وقد مرت بك النكتة اللطيفة التى بينوا فيها أن تقديم التوفى على الرفع لطمأنته على أنهم لن يصلوا إليه بسوء وأنه سوف يؤخذ وافيا تاما بروحه وجسده للرفع ، ولذلك قدم التوفى على الرفع .

وأما قوله [والطريقة الثانية . . . الخ] فهى مغالطة لغوية من الشيخ محمد عبده ، قد مر بك بيانها فلا نطيل بإعادتها . ولكن حرصا على نفعى ونفعك أيها القارىء الكريم أنقل لك ما قاله الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى

---

(١) فيض القدير جـ ٥ ص ٩١ ط . المطبعة التجارية سنة ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٨ م
(٢) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٠ ط . الهيئة المصرية للكتاب ١٣٧١ م
(٣) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٠

فى كتابه : عقيدة الإسلام : [وليعلم أن قوله تعالى « إنى متوفيك » مستقلّ بنفسه وبين فى نفسه لا يحتاج إلى البيان ، أى كنت نعمة لهم على وزان حديث على ما ذكره فى النهاية يصف النبى صلى الله عليه وسلم شهيدك يوم الدين وبعيثك نعمة ، أى مبعوثك الذى بعثته إلى الخلق ، أى أرسلته ، فعيل بمعنى مفعول انتهى . والآن أنا متوفيك أى آخذك إلى لا أنه مبهم بينه بقوله « ورافعك إلىّ » بل هو أهم منه لأنه يدل على ختم المعاملة معهم وأنه حرمهم من تلك النعمة ، ولذا قدمه ، لأنه المبحوث عنه والمسوق له وهو أصل المعاملة ، كطلب السفراء عن الدول واسترجاعهم ، قد يكون لأمور أنفسهم ، وقد يكون لختم المعاملة بين الدولتين ، وقد يكون لنقل السفير إلى منزلة أعلى ، والتخليص قد يكون لحفظه فى نفسه ، لا لإعلان ترك المسالمة ، والتوفى يدل على استيفائه لحضرة الرب كما ذكره الرازى من السجدة بخلاف لفظة الموت ، والحاصل أن استرجاعه عليه السلام لم يكن لإنجائه فقط ، بل لقطع المعاملة معهم أيضاً ، بخلاف الرفع والتطهير ، فإنه يتعلق بمعاملة عيسى عليه السلام نفسه ، ولو كان رفعا بدون التوفى ، أى بدون سلب نعمته عنهم لأمكنت شهادته عليهم بوجه آخر من اعلام الله إياه ، فلا يدل الرفع على أنه صار كأنه ليس نبيا لهم ، فقد رفع نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وهو نبينا إذ ذاك أيضاً ، وهذا بناء على أن من معاملات النبى مع أمته الشهادة عليهم تنتهى بالتوفى .

والواقع أنهما وعدان : ذكر التوفى فى المائدة لأنه سلب نعمة بعثته إليهم وحرمانهم من التبليغ كأنه استرده منهم ، ولم يقل هناك : فلما رفعتنى ، لأنه فى مقابلة القتل أى فى الحس والعيان ولا يدخل فى الغرض هناك ، وذكر فى النساء الرفع فإنه المقابل للقتل فى الشاهد مخلصا لا بدلا فقط ، فإن السياق فى آل عمران لذكر المخلص ، وكذا السياق هناك لإعلان المقاطعة ، ومعلوم أنها

إنما تتم لو قبضه منهم حيا ، وإما بالموت فينتفي الموضوع فماذا يكون بعده ؟ ! . وأيضا : أن الموت لا يعلل بأنه لذلك الغرض مثلا ، هـذا بالنظر إلى قومه ، وأما بالنظر إلى نفسه عليـه السلام فإن التوفى هو أخـذ حق كان له تعالى وكأنه استرداد شيئه إليـه ، وإذا رجع شيئه إليـه لم يبق مراقبـة ومحاسبة له لما بعد ، كإرجاع السلطان من ولاّه على الولايات فيراقبه إلى حضرته فتنتهي، ويظهر هذا بالتأمل في قوله تعالى : « هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » فلم يذكر المراقبة في حال التوفى ، وإنما تـكون مراقبته عليه السلام حين الارسال لوظيفة الشهادة والبلاغ ونحوه ، فإذن قوله تعالى « إنى متوفيك » هو دعامة هذا الـكلام وعمدته لا عصا الخطيب ومخصرته . وقد فسره الله تعالى في المائدة بمقابلة قوله « ما دمت فيهم » بقوله « فلما توفيتنى » وبضدها تتبين الأشياء . فهو قبضه منهم وعدم تركه فيهم ، ولم يقل : ما دمت فيهم حيا ، لأنه حى الآن أيضا وإنما يحتاج اليه في قوله الآخر « ما دمت حيا » فقيده هناك لا هنا ، وأرسله عن قيد فيهم ، لأنه ليس بملائم هناك][1]

وأما قوله أن الرفع بالروح فقط لأنها حقيقة الانسان فهو يناقض حقيقة معنى التوفى المتبادر الى الذهن عند القرشى الذى نزل القرآن بلغته في عصر نزوله ، وأيضا يذهب حقيقة الإعجاز ، إذ هو يذكر هنا رفعا خاصا بعيسى يقتضى الإعجاز مخالفته لأى رفع آخر ثابت للغير .

فالقول بأن الرفع بالروح فقط لا يختص بعيسى وحده بل يشاركه فيه كل ميت ، فلو كان المقصود هو رفع الروح فقط لـكان اختصاص عيسى بذكر الرفع بعد التوفى ـ وقد وضح لك معناه ـ نوعا من اللعب لا يمت للاعجاز بصلة . ولما كان رفع أصلا حتى ينص القرآن عليه . .

---

(١) عقيدة الاسلام فى حياة عيسى عليه السلام : محمد أنور الـكشميرى ص ٧١ ط . قاسمى ديوبند .

ولهذا لم يقل به أحد من المفسرين كما قد عرفت .

وقول الشيخ محمد عبده [ولصاحب هذه الطريقة انكار الرفع بالروح والجسد فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان :

أحدهما : أنه حديث آحاد ... الخ][1]

فتلك دعوى لا تمت الى العلم والبحث الجاد بصلة . وسوف نقدم لك بعد نهايتنا من التفسير تواتر أحاديث النزول بمنهجين .

الأول : تقديم نصوص الأحاديث الوارردة فى ذلك، حتى تحكم بنفسك أيها القارىء الكريم بتواترها .

الثانى : تقديم أقوال رجال الحديث فى إثبات التواتر :

وقوله : [وثانيهما]

وبقراءتك لهذا التأويل من الوجهة العلمية تتبين فيه ما يلى :

١ — أن الإسلام خلا من الرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة [دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها] وانه سيظل كذلك حتى آخر الزمان والله أعلم متى يأتى آخره ! ! !

وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يضع هذه الأسس من وقت أن جاء بالاسلام ، ولم يعلم الناس الرحمة والمحبة والسلم .

اللهم عفوك .

وكأننا منتظرون حتى تسيطر علينا الروح العيسوية ليصلح أمرنا ، وهى

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٢٦٠ — ٢٦١

نفس الدعوى التى يدعيها المسيحيون ويرددها المستشرقون ، ويكذبون على الاسلام بأنه خلا من المحبة والسلام اللذين دعت اليهما المسيحية .

(ب) ينهى النص بقوله [فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الاسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر]

فالنص يشتمل كما ترى الى دعوة صريحة الى عدم التمسك بظواهر الدين وقشوره وعدم التقيد بالرسوم والظواهر . وما هى الظواهر والرسوم فى الاسلام التى وصفها بالقشور ، وأعلن إصلاح السرائر من غير تمسك بها ؟ ليس فى الاسلام رسوم وظواهر غير الصلاة والزكاة والصوم والحج وأحكام المواريث والطلاق والنكاح والمعاملات . فعدم التقيد بالرسوم دعوة الى تركها واجتنابها ، وما الدين فى حقيقته ومظهره إلا أداء هذه الظواهر واستشعار العبودية بها وفيها لله رب العالمين . فترك التقيد بها ترك للعبودية لله رب العالمين . دفعه إليه تقريبه بين الأديان ، وهذا يجعلنا نقرب من تصديق المرحوم الشيخ يوسف النبهانى فى قوله عن الشيخ محمد عبده :

قال الشيخ يوسف النبهانى فى ديوانه : المدائح النبوية ، عند شرحه لقوله :

[وقد كنت فى لبنان يوما صحبته   لقرب غروب الشمس من ضحوة كبرى]

قد دعانى رجل من أهل جبل لبنان سنة ألف وثلاثمائة وخمسة هجرية إلى بيته فتوجهت معه فوجدت هناك الشيخ محمد عبده فتصاحبنا من الصباح إلى المساء لم أفارقه نهارا كاملا فصليت الظهر والعصر وهو لم يصل ظهرا ولا عصرا ولم يكن به علة ولا عذر إلا خوفه من أنه إذا صلى بحضورى يقول : أولئك

الحاضرون الذين كان لا يصلى أمامهم إنه مرائى فى هذه الصلاة لأجلى فغلب عليه شيطانه وأصر على عدم الصلاة وإلا فقد بلغنى عنه انه كان يصلى تارة ويترك تارة والترك أكثر][1] .

وهذا التأويل الذى ذهب اليه الشيخ محمد عبده فى معنى نزول عيسى لعب مردود عند علماء الأصول لأنه لادليل عليه من كتاب أو سنة فضلا عما اشتمل عليه من دعوة الى الخروج عن الدين . يقول الشيخ زكريا الأنصارى فى كتابه : غاية الأصول شرح لب الأصول ، ص ٨٣ ط . عيسى الحلبى [والتأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوع فإن حمل عليه لدليل فصحيح الحمل أو لما يظن دليلا وليس دليلا فى الواقع ففاسد أو لا لشىء فلعب لا تأويل]

وما قاله الشيخ محمد عبده ليس معه عليه دليل لأن المراد بالدليل هنا النص من الكتاب أو السنة ، وهذا كله ينطبق على ما قاله عن الدجال [إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها][2] ولو أخذنا بهذا التأويل هل نكون قد قدرنا قول الله حق قدره أم فتحنا لكل ذى ضلال ليتكلم فى أمور لا ترجع الى العقل وإنما الى النص .

أما قول الشيخ رشيد رضا فى التعليق على ما ذكره الشيخ محمد عبده [هذا ما قاله الأستاذ الامام فى الدرس مع بسط وإيضاح ؛ ولكن ظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك تأباه ، ولأهل هذا التأويل أن يقولوا : إن هذه الأحاديث

---

(١) ديوان المدائح النبوية المسمى العقود اللؤلؤية فى المدائح المحمدية لسيدى يوسف بن إسماعيل النبهانى ص٣٧١ مطبعه صبرا بيروت ١٣٢٩ هـ

(٢) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٦١

قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث ، والناقل للمعنى ينقل ما فهمه][1]

فقول يلبس الحق بالباطل . فقوله : ظواهر تأباه ، قول حق ، أما قوله : ان الأحاديث قد نقلت بالمعنى ، فهذا فيه افتراء على الحديث والمحدثين وتوهين للحديث في نفوس المسلمين وهو أمر طبيعي من الشيخ رضا ، فقد دأب وكتب طويلا في إنكار حجية السنة وعصمة النبي اغترارا بعقل جعله مقياس الحق فنأى به عنه .

ومن أمثال ذلك :

قوله في مجلة المنار المجلد ١٢ لعام ١٣٢٧ هـ وهو يشمل من يناير ١٩٠٩ إلى يناير ١٩١٠ ص ٦٩٧ [ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع والمشاهد كرواية السؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب ؟ والجواب عنها بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع الخ . وقد سألنا عنه بعض أهل العلم من تونس ولما نجب عنه لأننا لم نجد جوابا مقنعا للمستقل في الفهم ، فالشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علما قطعيا لا شبهة فيه ، فإذا قلنا أنها يصدق عليها مع ذلك أنها ساجدة تحت العرش لأنها خاضعة لمشيئة الله تعالى ، ولأن كل مخلوق هو تحت عرش الرحمن — إن لم تكن التحتية فيه حسية لأن الجهات أمور نسبية لا حقيقية فهي معنوية — إذا قلنا هذا أو أنه تمثيل لخضوعها في طلوعها وغروبها وهو أقرب ، فهل ينطبق على السؤال والجواب انطباقا ظاهرا لا مراء فيه ؟ اللهم لا . ولكن هذا النوع من الحديث على ندرته في الصحيح قد يخرج بعضه على أنه من باب الرأي في أمور

---

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٦١

العالم ، والأنبياء لاتتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمور المخلوقات على حقيقتها ولم يقل أئمة الدين أنهم معصومون فيها كما يدل عليه الحديث الصحيح فى تأبير النخل ، ولكن يستثنى الاخبار عن عالم الغيب فهم معصومون فيه] .

وحديث سجود الشمس متفق عليه رواه البخارى ومسلم وهو(١) :

(حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن الأعمش عن ابراهيم القيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى ذر حين غربت الشمس : تدرى أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم »)

وليس هنا محل البيان لهذا الحديث ، ولكن من أراده فليرجع إلى شراح البخارى ومسلم وسوف يجد الحكم الكفر على منكر هذا الحديث وأمثاله .

أما آية النساء فى تفسير المنار ، فإن النظر فيها يقتصر على الشيخ رشيد رضا ، فلم يصل اليها الشيخ محمد عبده فى تفسيره ، وإنما مات قبلها وبعد تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء «ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا» .

[يقول محمد رشيد رضا : الآية كانت آخر ما فسره شيخنا الأستاذ الإمام

---

(١) رواه البخارى ك بدء الخلق ب صفة الشمس والقمر بحسبان عن أبى ذر ج ٤ ص ١٣١ ، ك التفسير سورة يس ج ٦ ص ١٥٤ ، ك التوحيد ب وكان عرشه على الماء ج ٩ ص ١٥٣ . مطابع الشعب ١٣٩٨ هـ . ورواه مسلم ك الايمان ب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الايمان عن أبى ذر ج ١ ص ٩٦ ط العامرية .

الشيخ محمد عبده فى الجامع الأزهر . فرضى الله عنه وجزاه عن نفسه وعنا خير الجزاء وسنستمر فى التفسير على هذه الطريقة التى اقتبسناها منه إن شاء الله تعالى، وإن كنا محرومين فى تفسير سائر القرآن من الفوائد والحكم التى كانت تهبط من الفيض الإلهى على عقله المنير إلا فى الجزء الثلاثين ، فإنه كتب له تفسيرا مختصرا مفيدا . وكان فراغه من تفسير هذه الآية فى منتصف المحرم ١٣٢٣ هـ ، وقد توفى فى شهر جمادى الأولى منها رحمة الله تعالى ونفعنا به . وكتبت تفسير هذه الآيات فى مدينة بمبى أو (بومباى) من ثغور الهند فى غرة ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ والله أسأل أن يوفقنى لإتمام هذا التفسير ، إنه على ما يشاء قدير][1]

فما هنا من مغالطات علمية هى مسئولية الشيخ رشيد رضا وحده ، وأولها : إدخاله الشك المنطقى ليموه به على معنى الشك اللغوى وكأن الله قد أنزل كتابه بلغة أرسطو وابن سينا لا بلغة قريش كما رأيت بعد قراءتك تفسيره . ويقول الشيخ رشيد رضا عن المفسرين : (ويستدلون على هذا بحديث المعراج ، إذ فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، ولو كان هذا يدل على أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء لدل أيضا على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السماوات ولم يقل بهذا أحد)[2] . وما يقوله الشيخ رشيد رضا فى هذا المضمار لا يمت بصلة إلى الواقع فإنه لم يستدل أحد من المفسرين ولا من العلماء القدماء والمحدثين على الرفع بالمعراج كما عرفت من قراءتك لكتب التفسير السابقة فان القرآن قد نص على الرفع وهو الدليل على كل شىء فكيف يستدل عليه ؟ ولكن ما حدث من بعض العلماء المعاصرين أنه لما جاء الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا بتلك الفرية التى لم تكن موجودة قبلهما فى أرض

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٥٩ — ٣٦٠
(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٣٦ .

الإسلام وادعيا أن العقل والعلم يستبعدان الرفع والنزول، بدأ العلماء المعاصرون يبينون للمسلمين أن الرفع والنزول قد أثبتهما القرآن وبينتهما السنة وهو أمر ممكن غير مستبعد وله نظير مشابه وقع بعده هو المعراج المحمدى . ولذا فإن ماذكره من الأنبياء الآخرين مشاغبة مابعدها مشاغبة إذ لا استدلال على النص القطعى عند العلماء ولكن بباعد وقوع الرفع لعيسى ببيان وقوع غيره وهو المعراج الذى وقع للرسول. وقد نبه العلماء حقيقة ذلك عند حديثهم عن معراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد فليقرأ ما جاء فى السنة عن عروجه صلى الله عليه وسلم الى السماوات فكما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه وجسده وقع مثله قبله لعيسى ابن مريم ، أما ما ذكره من سائر الأنبياء فهو مغالطة كبرى إذ لم يرد فى حقهم نص بالرفع فما شغل به لا يمر على مسلم ولا يشغل عاقل وكذلك دأب الشيخ رشيد على اجتزاء نصوص من موطنها حتى لا يظهر مقصود أصحابها منها ويتمكن من تأويلها حسب هواه .

فهو يقول (وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها وهو الأخذ والقبض ، والمراد منه ومن الرفع انقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذى اصطفاه وقربه . قال ابن جرير بسنده عن ابن جريج « فرفعه إياه وتطهيره من الذين كفروا » أى ليس المراد الرفع الى السماء لا بالروح والجسد ولا بالروح فقط . وعلى القول بأن التوفى الاماتة لا يظهر للرفع معنى إلا رفع الروح)[1] .

هذا هو مايذكره تفسير المنار عن ابن جريج وتعليقنا عليه شيء واحد ، هو أن نعيد عليك أيها القارىء الكريم ما رواه الطبرى والقرطبى عن ابن جريج لتقفك على حقيقة المنار وتلمس ذلك بنفسك .

---

(١) تفسير المنار ج٦ ص ١٨

قال الطبرى فى تفسيره آية « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك . . . » . . .
عن ابن جريج قوله إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا .
قال : فرفعه إياه إليه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا .

وقال القرطبي فى تفسيره للآية : وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته.

فانظر الفرق بين ما ذكره الطبرى وما نسبه المنار إلى الطبرى لتعلم إلى أى حد وصل التدليس العلمى بالحذف تارة كما فى النص الأول المنقول عن ابن جريج، وبالترك أخرى كما رأيت فى ترك المنار لقول ابن جريج الآخر وهو موجود بالطبرى أيضا . فإذا أضفنا إلى ذلك قول الطبرى عند تفسير قوله تعالى من سورة النساء « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم » الآية قال الطبرى بعد أن ذكر السند قال ابن جريج : بلغنا أن عيسى بن مريم قال لأصحابه : أيكم ينتدب ويلقى عليه شبهى فيقتل فقال رجل من أصحابه : أنا يانبى الله ، فألقى عليه شبهه فقتل ورفع الله نبيه إليه .

فانظر إلى قوله (إنما ليس المراد الرفع إلى السماء) تجده حمل لفظ ابن جريج على معنى لم يرده ابن جريج من اللفظ ولم يرم إليه، فقد أراد الرفع الذى قدم به التوفية والتطهير، وما حمل رشيد على ذلك إلاهواه افتراء على الناس ليجد له سندا، ومثل ذلك ما ذكره عن الرازى .

يقول تفسير المنار : [وذكر الرازى أن المشبهة يستدلون بالآية على إثبات المكان لله تعالى وذكر للرد عليهم وجوها (منها) : أن المراد به (رافعك إلى) إلى محل كرامتى ، وجعل ذلك رفعا للتفخيم والتعظيم ، ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « إنى ذاهب إلى ربى ٣٧ : ٩٩ » وإنما ذهب من العراق إلى الشام (ومنها) أن المراد رفعه إلى مكان لا يملك معه عليه غير الله] .

فالنقلة التى يستشهد بها الرازى لابراهيم حسية كما أن الرفع حسى وهو رد على المجسمة الذين يقولون : إن الله فى جهة العلو لأنه إذا اقتضى إثبات الرفع كون الله فى السماء كما يزعمون فليثبتوا أيضا أنه فى جهة السفل فى الأرض كما تقتضيه آية « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » فكما أنه لا متعلق لهم بها كذلك لا متعلق لهم بآية الرفع فالمقام رد على المشبهة وهو وحده كاف لإثبات أن الرازى مثبت للرفع إذ لو كان منكرا كما ادعوا عليه لما كان هناك داع للرد على المشبهة الذين تمسكوا بهذه الآية لاثبات ما ادعاه وهو أن الله موجود فى جهة العلو فما قاله الرازى ردا على المشبهة هو نفسه إثبات للرفع ولا نعلق على هذا بأكثر من شىء واحد هو أن نطلب منك أيها القارىء الكريم الرجوع إلى ما سبق لك قراءته من تفسير الفخر الرازى عند قوله تعالى : « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك » وتحدد لك ما تقرأه إنه (الصفة الثانية) من الصفات التى ذكرها الله تعالى لعيسى وسوف تتبين بنفسك أن ما قاله تفسير المنار افتراء على الرازى كان يجب الترفع عنه .

وكل ما فى تفسير الرازى وخاصة هذه الصفة الثانية مثبت رفع عيسى ببدنه وروحه ومنزه لله عن المكان والجسمية . وهذا الذى وقع فى تفسير المنار تدليس رفضه العلماء ولذلك نهوا عن اجتزاء النص وقالوا (إن لكل كلمة مع صاحبتها مقام) .

وما قالوه عن الرازى فرية سوف نبين لك مصدرها عند الحديث عن مصادر فكرهم فى إنكار الرفع والنزول .

ويقول الشيخ رشيد رضا عن المفسرين [ويستدلون على هـــذا بحديث المعراج ، إذ فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه هو وابن خالته يحيى فى السماء

الثانية ، ولو كان هذا يدل على أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء لدل أيضا على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء فى سائر السماوات ، ولم يقل بهذا أحد][1] .

وما يقوله الشيخ رشيد رضا فى هذا المضمار لا يمت إلى الواقع بصلة ، فإنه لم يستدل أحد من المفسرين ولا من العلماء القدماء والمحدثين على الرفع بالمعراج كما عرفت من قراءتك لكتب التفسير السابقة ، فإن القرآن قد نص على الرفع وهو الدليل على كل شىء ، فكيف يستدل عليه . ولكن ما حدث من بعض العلماء المعاصرين أنه لما جاء الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا بتلك الفرية التى لم تكن موجودة قبلهما فى أرض الاسلام — إلا على يد القاديانية — وادعيا أن العقل والعلم يستبعدان الرفع والنزول ، بدأ العلماء المعاصرون يبينون للمسلمين أن الرفع والنزول قد أثبتهما القرآن . . . . والسنة وهو أمر ممكن غير مستبعد وله نظير مشابه وقع بعده هو المعراج المحمدى ، ولذا فإن ما ذكره من الأنبياء الآخرين شغب ما بعده شغب إذ لا استدلال على النص القطعى عند العلماء ، ولكن بيان قدرة الله على رفع عيسى ببيان وقوع قدرة الله فى أمر مشابه له وهو المعراج الذى وقع للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نبه العلماء على حقيقة ذلك عند حديثهم عن معراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أراده فليقرأ ما جاء فى السنة عن عروجه صلى الله عليه وسلم إلى السموات . فكما رفع رسول الله بروحه وجسده وقع مثله قبله لعيسى بن مريم . أما ما ذكره عن سائر الأنبياء فهو مغالطة كبرى إذ لم يرد فى حقهم نص بالرفع ، فما شغب به لا يمر على مسلم ، ولا يشغل فكر عاقل ، ولا يدين به من يعتقد قدرة الله . هذا ما حدث من العلماء فى الاستدلال بالمعراج ، والحق أنه يستدل به لأن ما ثبت عند لقاء سيدنا عيسى

---

(١) تفسير المنار ج ٦ ص ١٨

برسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل لهذا اللقاء مزية عن غيره . فى كشف الأستار عن زوائد البزار للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى عند قوله (باب منه فى الإسراء) حديث طويل عن سيدنا أبى هريرة يرفعه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خاطب كل نبي مثنيا على ربه بما من عليه من الفضائل قال : (ثم ان عيسى صلى الله عليه وسلم أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى علمنى التوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذنه ، ورفعني فطهرنى من الذين كفروا وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، ولم يجعل للشيطان علينا سبيلا)[1]

وجاء فى المستدرك للحاكم : (أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى ثنا سعيد بن مسعود ثنا يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثنى جبلة بن سحيم عن مؤثر بن عفازة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقى ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة متى هى ؟ فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم فسألوا موسى فلم يكن عنده منها علم ، فردوا الحديث إلى عيسى فقال : عهد الله إلى فيهما دون وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل فذكر خروج الدجال وقال : فأهبط فأقتله ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون لا يمرون بماء إلا شربوه ولا بشيء إلا أفسدوه فيجأرون إلى فأدعو الله فيميتهم فتجوى الأرض من ريحهم فيجأرون إلى فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسامهم فى البحر ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم فعهد الله إلى أنه إذا كان ذلك إن الساعة من الناس

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار جـ ١ كتاب الايمان باب الاسراء ص ٤٠ ط أولى سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م مؤسسة الرسالة بيروت .

كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أونهارا . قال العوام ، فوجدت تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل ثم قرأ : «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتابعه الذهبي على ذلك وقال : صحيح)[١] .

فهذه الأحاديث تثبت مزية لسيدنا عيسى عند لقائه برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أنه لقاء حى لم يدركه الموت ، رفع الى السماء حيا ببدنه وروحه كما رأيت ، وتثبت الصحبة بهذا اللقاء لسيدنا عيسى لأنه لم يكن مجرد لقاء أرواح بل لقاء بالبدن والروح من غير سابق موت . ولذا حكم المتكلمون بصحبة عيسى عليه السلام . قال عبد السلام عند قول صاحب الجوهرة : (وصحبه) [أى أصحابه صلى الله عليه وسلم والصحابى من لقيه صلى الله عليه وسلم مميزا مؤمنا به ومات على الإسلام فيدخل ابن أم مكتوم ونحوه من العميان وعيسى والخضر وإلياس عليهم الصلاة والسلام لحصول اللقاء ولأنه لا يشترط فيه التعارف إذ لاتنافى بين مقام الصحبة والنبوة والملكية فعيسى عليه السلام آخر الصحابة موتا)[٢] وذكر مثله البيجورى فى شرحه على الجوهرة[٣] عند نفس الموضع .

وأما ماذكره الشيخ رشيد رضا فى تفسير قوله تعالى «وإن من أهل الكتاب»

---

(١) المستدرك على الصحيحين فى الحديث ج ٤ كتاب الفتن والملاحم . مذاكرة الأنبياء فى أمر الساعة ص ٤٨٨ ط أولى دائرة المعارف بالهند ١٣٤٢ هـ . ورواه الامام أحمد فى مسند عبد الله بن مسعود ج ١ ص ٣٧٤

(٢) حاشية الأمير على عبد السلام على الجوهرة فى علم الكلام ص ١٩ ط ثانية المطبعة الأزهرية المصرية ١٢٢٤ هـ .

(٣) حاشية البيجورى (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) ص ١١ ط ثانية المطبعة العامرة المليجيه ١٣٣٦ هـ .

الآية ، وقول الشيخ رشيد رضا فى رد تخصيص رجوع الضمير فى « موته » إلى عيسى بقوله : [وهذا التخصيص لا دليل عليه وهو مبنى على شىء لا نص عليه فى القرآن حتى يكون قرينة له . والأخبار التى وردت فيه لم ترد مفسرة للآية .]

فهذا قول مثير للدهش ، فإذا كانت السورة من أولها إلى هنا تتحدث عن عيسى وهو يعلم هذا ، ولا مجال للانكار ، والآية التى معنا تتحدث عن إيمان معين لقوم معينين بعيسى فى وقت خاص فكيف لا تختص بعيسى . أما دعواه أن الأخبار الواردة لم تكن مفسرة للاية ، فهو أمر يدعو للتأمل ! ! !

فمن المعلوم أنه لم تكن له صلى الله عليه وسلم دروس خاصة للتفسير كما كان للشيخ محمد عبده ، وإنما كان كل ما يصدر عنه من قول أو فعل بيان للقرآن « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » فما ورد من الأحاديث مبينا للنزول ، فهو بيان للقرآن الذى هو قطعى الدلالة . وإذا جاءت السنة وبينت ووضحت المجمل قطعى الدلالة (وهو القرآن) لم يعد للعقل مجال للتأويل أو للمعارضة وإلا خرج عن الجادة وكفر . فالسنة قد بينت مجمل القرآن القطعى فاستقوت به وازدادت قوة على قوتها ويقينا على يقينها .

وبعد . . فإن ماسبق لك قراءته من كتب التفسير يغنيك عن طول الكتابة عما فى تفسير المنار من زيف ، فارجع إلى الطبرى عند قوله تعالى «وإن من أهل الكتاب » الآية ، ومن أتى بعده من المفسرين ثم احكم بنفسك ، واقرأ ابن كثير فيها تجد أن الشيخ رشيد رضا فى قوله : [أما المعنى الأول . . . الخ] قد سرق حقيقة ذكرها ابن كثير فى مقام الاثبات ووضعها فى شبهة الإنكار فأفسدها وأضاع معناها .

وانتهى الأمر به إلى التناقض فأثبت الرفع والنزول وهو عين ما أنكره في كل ما سبق .

يقول تفسير المنار عند رده على القاديانية : (والحق أنه ليس في القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم في الأرض . وأما الأحاديث الواردة في ذلك فهي تخالف دعوى القادياني ، فإن منها أنه ينزل في دمشق لا في الهند ، ومنها أنه يقتل الدجال الذي يظهر قبله ، ومنها أنه يحكم ويملأ الأرض عدلا ، ولا نزال الظلم والجور وسفك الدماء مالئا الأرض وناهيك بما هو جار منها في بلاد البلقان في هذه الأيام فإن دول البلقان النصرانية ما ظهروا على العثمانيين في مكان إلا وأسرفوا في قتل الكبار والصغار والنساء والأطفال ، ونسف ديارهم بالديناميت أو إحراقهم بالنار ، بعد سلب الأموال وهتك الأعراض ، وكل هذا يعمل باسم الصليب ورفع شأنه ، فأين هو مما ورد من كسر المسيح للصليب ؟ وما كان القادياني إلا خاضعا لدولة من دول الصليب ، ولكن من شئون البشر أنه لا يدعوهم أحد إلى شيء مهما كان بعيدا عن المعقول والمنقول إلا ويجد فيهم من يصدقه ويستجيب له فنسأل الله التأييد بالهداية ، والحفظ من الغواية آمين)[1] .

نسأل الله الحفظ من الزلل والسلامة من الزيغ والتوفيق لمرضاته واتباع نبيه.

---

(١) تفسير المنار ج٦ ص ٤٨

المنار والقديانية

القاديانية وأثرها فى فكر منكرى الرفع والنزول

إن القارىء لأفكار القاديانية ، تلك الفرقة الضالة التى حكم جميع المسلمين بكفرها وخرجها عن الملة ، يجد التقاء فكريا واضحاً بينها وبين من نشأت على أيديهم فى مصر فكرة إنكار الرفع والنزول ، وهذا يستدعى الحديث فى لمحة خاطفة عن :

أولا : فكر القاديانية .

ثانيا : إثبات الصلة الثقافية بين الاثنين .

ثالثا : الالتقاء الفكرى فى إنكار الرفع والنزول .

القاديانية فى سطور :

أنشأ القاديانية غلام أحمد المولود فى قاديان سنة ١٢٥٢ هـ ، ومات سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م .

أفكار القاديانية :

١ — ادعى أنه رسول الله ، يقول : [هو الإله الحق الذى أرسل رسوله فى قاديان][(١)] .

٢ — أنكر رفع عيسى ونزوله .

---

(١) موقف الاسلام من القاديانيه ط الأزهر ١٩٧٦ م

٣ — أعلن إلغاء فريضة الجهاد .

٤ — سالم الإنجليز ووداعهم ودعى إلى نصرتهم .

الصلة بين القاديانية وأصحاب تفسير المنار :

وجد الشيخ محمد عبده فى عصر القاديانى ، وكانت الهند ومصر آنذاك مستعمرتين لانجلترا . . وقد أرسل غلام أحمد برسائله إلى العالم الإسلامى كله بما فيه مصر .

يقول غلام أحمد : [أنا لم أقتصر فى جهودى فى الهند لإخضاع المسلمين للحكومة الإنجليزية الصادقة ، بل ألفت عديداً من الكتب باللغة العربية والفارسية والأردية ووزعتها على سكان البلاد الإسلامية][1] .

ووصلت هذه الرسائل إلى مصر ، ومنها ما وصل إلى الشيخ رشيد رضا فى حياة الشيخ محمد عبده . ومن المقطوع به أن التلميذ يطلع أستاذه على كل شىء . يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : [وظهر فى الهند رجل آخر سلمى (بالطبع) ادعى أنه هو المسيح الموعود به وهو (غلام أحمد القاديانى) الذى نقلنا عن بعض كتبه نبأ التجاء المسيح عيسى بن مريم إلى الهند ، وهو إنما عنى ببيان ذلك ليجعله من مقدمات إثبات دعوته ، وقد كان قبل موته أرسل إلىّ الكتاب الذى نقلت عنه ما ذكر وغيره من كتبه التى يدعو بها إلى نفسه ، فرددت عليه فى المنار ، فهجانى فى كتاب آخر وتوعدنى بقوله عنى : (سيهزم فلا يرى) وادعى أن هذا نبأ وحى جاء من الله جل وعلا ، وقد كان هو الذى انهزم ومات][2] .

(١) موقف الأمة الاسلامية من القاديانيه ص ١٠٨

(٢) تفسير المنار جـ ٦ ص ٤٨

وقد عرفت أيها القارىء الكريم قبل ذلك عند بيان نهاية تفسير الشيخ محمد عبده وبداية تفسير الشيخ رشيد رضا للمنار زيارة الشيخ رشيد رضا للهند فى قوله [كتبت تفسير هذه الآيات فى مدينة بومبى أو بومباى من ثغور الهند فى غرة ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ] والهند موطن القاديانية وأرضها .

إذن فالصلة وثيقة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها بين القاديانية وبين مدرسة المنار فى مصر .

القاديانية

وأثرها فى فكر مفكرى الرفع والنزول

(ا) رأينا أن إنكار الرفع قد قام على مغالطات لغوية عند مفسرى المنار ، وأنهم قد جعلوا من أنفسهم مقياس اللغة حيث قلبوا معنى التوفى إلى الموت وجعلوه هو الحقيقة كما سبق بيانه .

ويذكر الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى فى كتابه : عقيدة الاسلام فى حياة عيسى عليه السلام ط الهند ص ٥٥ عن غلام أحمد [إذ ورد عليه أقوال كبار أئمة اللغة كالزجاج وغيره فى التفسير تعلل بأنه خلاف اللغة فكان الشقى عنده إذا فسروا القرآن سلبوا إمامة اللغة] .

(ب) وقالوا عن أحاديث النزول المحكوم بتواترها من المحدثين كابن حجر وابن كثير وغيرهما كثير من القدماء والمحدثين — كما ستعرف تفصيله بعد ذلك فى القسم الخاص بالسنة النبوية ـ قالوا عنها : أخبار آحاد .

ويذكر الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى فى كتابه : التصريح بما تواتر فى نزول المسيح، ص٣٦ ط حلب ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م عن غلام أحمد القاديانى : [وهذا ديدنه يفعل المحرفات ويجعل المتواتر الصريح بلا فصل لعقيدة حياة

عيسى عليه السلام فى الاسلام أنه لا وجود له ، وهذا فعل من سلب الايمان وحرم التوفيق] .

(ج) اجتزاؤهم النصوص وتلفيقها وعدم النظر فى جميع أقوال المنقول عنه مجتمعة . لتتضح ويجمع من خلالها فكره فى القضية كلها ، من التوفى ومعناه ، والرفع وإثبات الحياة ، والنزول وإثبات الموت بعده عنه كما رأيت فى تفسير المنار عند ذكره لابن جريج والرازى، فهذا أيضا صنيع القاديانية . ومنه التقديم والتأخير فى قوله تعالى « إنى متوفيك ورافعك إلى » .

يقول محمد أنور شاه الكشميرى فى كتابه : عقيدة الاسلام ص ٧٤ [... وكأن التوفى وهو الأخذ منهم من مقدمات الرفع أيضا إذ الرفع إنما يكون بعد الأخذ منهم وانتهاؤه على موته عليه السلام بعد النزول ثم بقاؤه فاعتبره ، فإن هذا هو الوجه فى اختلاف السلف فى تفسيره من الأخذ والرفع أو الاماتة بل عن واحد منهم مرة كذا ومرة كذا كترجمان القرآن حبر الأمة وبحرها ابن عباس، فقد جاء عنه أنه الإماتة ، وصح عنه أنه الرفع أيضا . فى الدر المنثور : أخرج عبد بن حميد والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه ا.هـ (إلى أن قال) : ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء ا.هـ وللنسائى تفسير مفرد رواه حمزة عنه قال ابن كثير بعد ما ذكر إسناد ابن أبى حاتم : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنه . ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه ا.هـ وقد أخذ ذلك الشقى اختلافهم اللفظى صلبه فى رد الاجماع الباب المتصل ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وشغب بأن التوفى بمعنى الإماتة وتأخيره عن الترتيب الذكرى تحريف[1] ففضحه الناظرون بأن التطهير عندك تبرئة عليه

(١) قارن بين ما هنا وبين ما جاء فى المنار من رفض للتقديم والتأخير .

السلام على لسان خاتم الأنبياء عن فرية اليهود عليه وعلى أمه فصار مؤخرا من قوله تعالى « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » فإنه وقع قبل ذلك ، وإن أخذت التطهير بمعنى الإنجاء كان الرفع وهو عند الموت الطبعى مؤخرا عنه بنحو سبع وثمانين سنة عندك فضاع الترتيب على كل حال ولم يبق فى أيديك إلا الخزى والنكال وكفى الله المؤمنين القتال] .

ويوضح الصلة أكثر من هذا أننا نجد فى النص الذى اجتزأه رشيد رضا من الرازى عند رده على المجسمة مأخوذ من علام أحمد القاديانى .

يقول الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى فى كتابه عقيدة الإسلام ، : [ومنها نسبته – أى القاديانى – إلى الإمام الرازى أنه قائل بالرفع الرتبى له عليه السلام لا الرفع المكانى . ونقل فيه عبارة الإمام : واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله « ورافعك إلى » هو الرفعة بالدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة ا.هـ وقد سبق بيان مافيها لك ورأيت التدليس من المنار وأن الآية لا تعطى إلا إثبات الرفع .

(د) أما تأويلهم نزول عيسى وحكمه فى الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس الذى قال به أصحاب تفسير المنار فهو مأخوذ من القاديانية يقول الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى فى كتابه : عقيدة الإسلام ص ١٨ ، : [وبعضهم منهم – يعنى القاديانية – الآن على أن المراد بنزوله ظهور العلوم الروحانية لا ظهوره وكل ما قاله التابع والمتبوع فقد سرقاه من تفسير القرآن للسار أحمد خان] .

ويقول أبو الحسن على الحسنى الندوى فى كتابه : القاديانى والقاديانية ، ط الدار السعودية للنشر الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ ص ٦٥ – ٦٦ [ولم يزل

يجول ويبدأ ويعيد فى موضوع وفاة المسيح حتى قرر أخيرا بأنه توفى فى كشمير ودفن هناك ، وأتى فى هذا البحث بالعجائب كعادته فقرر أن كشمير ينطق بها فى اللغة الكشميرية « كشير » ويظهر أن هذه الكلمة فى الأصل عبرية مركبة من الكاف التى للمماثلة والتشبيه و«أشير» التى معناها فى العبرية الشام يعنى مثل الشام . ولما هاجر عيسى عليه السلام من فلسطين إلى كشمير التى تشبه بلاد الشام كثيرا فى طيب المناخ وبرودة الطقس – سماها تعالى كشمير تسلية لعيسى بن مريم وادخال السرور عليه وسقطت الألف بكثرة الاستعمال وأصبحت كشمير (براهين أحمدية ص٢٧٧) .

ثم قرر أن القبر المشهور بقبر يوذاسف فى حارة خان يارهو قبر المسيح عليه السلام الذى هاجر الى كشمير قبل ألفى سنة ، وكان يعرف بالنبى ابن الملك (ص٦٦) وجاء فى الرسالة العربية ص٢٢:«ثم مات ودفن فى أرض قريبة من هذه الأقطار وقبره موجود فى سرى نكر الكشمير الى هذا الزمان ومشهور بين العوام والخواص والأعيان ويزار ويتبرك به . فاسأل أهلها العارفين إن كنت من المرتابين »] .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار ج٦ ص ٣٥ – ٣٦ :

[القول بهجرة المسيح إلى الهند

وموته فى بلدة (سرى نكرا) فى كشمير]

يوجد فى بلدة سرى نكرا ونقر (والهنود تكتب نكر بالكاف المفخمة وهى كالجيم المصرية) مقبرة فيها مقام عظيم يقال هناك : انه مقام نبى جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسعمائة سنة يسمى يوز آسف ، ويقال : إن إسمه الأصلى عيسى صاحب (وكلمة صاحب فى الهند لقب تعظيم كلقب افندى عند الترك ومستر

ومسيو عند الإفرنج) وإنه نبي من بني إسرائيل ، وإنه ابن ملك . وأن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم وتذكر في بعض كتبهم . وان دعاة النصرانية الذين ذهبوا الى ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا : إن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله .

ذكر ذلك بالتفصيل غلام أحمد القادياني الهندي في كتابه الذي سماه : (الهدى والتبصرة لمن يرى) وذكر فيه أنه اكتفى بالإجمال وأن تفصيل هذه المسألة يوجد في كتاب معروف هناك اسمه : (إكمال الدين) وذكر أكثر من سبعين إسما من أسماء أهل ذلك البلد الذين قالوا : إن ذلك القبر هو قبر المسيح عيسى بن مريم . ورسم صورة المقبرة بالقلم ، وأما قبر المسيح فوضعه في الكتاب بالرسم الشمسي (الفوتوغرافي) مكتوبا عليه (مقبرة عيسى صاحب) .

وغلام أحمد هذا يفسر الإيواء في قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ٢٣ : ٥٠) بالهجرة الى الهند والتجأ الى تلك البلدة في كشمير ، فإن الإيواء يستعمل في مقام الانقاذ والتفجية من الهم والكرب والمصائب والمخاوف ، واستشهد بقوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى ٩٣ : ٦ » وقوله: «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ٨: ٢٦ » وقوله حكاية عن ولد نوح : «سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ١١ : ٤٣ » والربوة المكان المرتفع ، وبلاد كشمير من أعلى بلاد الدنيا وهي ذات قرار مكين ، وماء معين ، والمشهور عند المفسرين أن هذه الربوة هي رملة فلسطين أو دمشق الشام، ولو آوى الله المسيح وأمه إليهما لما خفي مكانهما فيهما ، لا سيما إذا كان ذلك بعد محاولة صلبه وتألب اليهود عليه ، كما يدل عليه لفظ الإيواء الذي لم يستعمل في القرآن إلا في الانقاذ من المكروه ، كما علم من الأمثلة المذكورة آنفا ، ومثله قوله تعالى في الأنصار

رضي الله عنهم : « والذين آووا ونصروا ٨ : ٧٢ » وفى يوسف عليه السلام « آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ١٢ : ٦٩ » وفى آية أخرى : « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ١٢ : ٣٩ » ولم يكن المسيح قبل تألب اليهود عليه والسعى لقتله وصلبه فى مخافة يحتاج فيها إلى الايواء فى مأمن منه . ففراره إلى الهند وموته فى ذلك البلد ليس ببعيد عقلا ولا نقلا .]

فهل بعد هذا من أثر يرى الشيخ رشيد رضا أن كل ما قال به المسلمون مردود ولا يحجبه إجماع المفسرين على الرفع ، وينتهى به المطاف الى السير وراء ضلالات ومخرفة هذا الكافر الضال مدعى الوحى والنبوة فيصدقه قوله ويعلن عليه مقررا فى نهاية بيانه لرأى غلام أحمد [ففراره الى الهند وموته فى ذلك البلد ليس ببعيد عقلا ولا نقلا] ولا تظن أن هذا التعليق من جملة قول غلام أحمد لأن الوحى الذى يزعم أنه يأتيه لا يتناسب معه الترجيح ولست أدرى أى عقل اعتمد عليه الشيخ رشيد رضا إنه ليس إلا عقله وعقل من تابعه فى سيره وَراء رأى مدعى النبوة لأنه عقل سمح لنفسه بمخالفة القرآن وَترك السنة وَالطعن عليها كما تقدم لك وَسمح لنفسه بمتابعة دجال كذاب . فإذا قرر أنه ليس ببعيد عقلا وَلا نقلا ، قلنا له : عندك أنت وَالقاديانى وأحمد خان وهو أشهر من أن يعلق على رأيه وفساد فكره ومن لف لفكم ودار فى فلككم أما عند المسلمين فلا ... نسأل الله لنا وللمسلمين أجمعين الحفظ والهداية .

(و) ويقول الشيخ رضا :[والحق أنه ليس فى القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم فى الأرض . وأما الاحاديث الواردة فى ذلك فهى تخالف دعوى القاديانى ، فإن منها أنه ينزل فى دمشق لا فى الهند ، ومنها أنه يقتل الدجال الذى يظهر قبله ، ومنها أنه يحكم ويملأ الارض عدلا ، ولا يزال الظلم والجور وسفك الدماء

مالئا الأرض وناهيك بما هو جار منها فى بلاد البلقان فى هذه الأيام . فإن دول البلقان النصرانية ماظهروا على العثمانيين فى مكان إلا وأسرفوا فى قتل الكبار والصغار ، والنساء والأطفال ، ونسف ديارهم بالديناميت أو احراقهم بالنار بعد سلب الاموال وهتك الاعراض ، وكل هذا يعمل باسم الصليب ورفع شأنه ، فأين هو مما ورد من كسر المسيح للصليب ؟ وما كان القاديانى إلا خاضعا لدولة من دول الصليب ، ولكن من شئون البشر أنه لا يدعوهم أحد إلى شىء مهما كان بعيدا عن المعقول والمنقول إلا ويجد فيهم من يصدقه ويستجيب له .](1)

فالشيخ رشيد رضا هنا يرد على القاديانية بغير معتقده ، إذ كيف يعتقد مالم يرد فيه نص من قرآن ولم يثبت فيه خبر نبوى بزعمه وهو الرفع والنزول . إنه قد اهتدى بفكر قاديان، ولكن لما كان القاديانى قد ادعى النبوة فقد حاول بتلك الكلمات أن ينفى عن نفسه التهمة فتخبط ووقع من حيث لا يشعر ونسى أن منطلقه هذا كان منطلق القاديانى من قبله .

ينقل أبو الحسن الندوى فى كتابه : القاديانى والقاديانية هامش ٢ ص ٥٩ اعترض عليه بأنه قرر نزول المسيح فى كتابه براهين أحمدية فاعتذر أنه ذكر ذلك كعقيدة إسلامية مشهورة يؤمن بها أكثر المسلمين . ولم يكن قد تلقى بعد إلهاما من ذلك وإرشاداً من الله فكان ذلك اتباعاً للآثار المروية قبل انكشاف الحقيقة (إزالة أوهام ص ٩٧) ويقول فى براهين أحمدية جـ ٥ ص ٨٥ « وبقيت عينى مطبقة حتى فتحها الله » .

وأخيرا فإن القاديانى كما يقول أبو الحسن الندوى [وافتتح القاديانى كتابه

---

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٤٨

« توضيح مرام » بعبارة صريحة سافرة بل صارخة وهذه ترجمتها حرفيا : « إن المسلمين والنصارى يعتقدون باختلاف يسير ـ أن المسيح بن مريم قد رفع الى السماء بجسده العنصرى وأنه سينزل من السماء فى عصر من العصور وقد أثبت فى كتابى يعنى « فتح إسلام » أنها عقيدة خاطئة وقد شرحت أنه ليس المراد من النزول هو نزول المسيح بل هو اعلام على ـ طريق الاستعارة بقدوم مثيل المسيح وأن هذا العاجز هو مصداق هذا الخبر حسب الاعلام والالهام «توضيح مرام ص ٢ »(١)

فهل قال أصحاب المنار شيئا غير هذا ؟ ، فضلا عن ارجاعهم الرفع والنزول فى الفكر الإسلامى الى مصادر يهودية ونصرانية كما رسم لهم غلام أحمد القاديانى .

يقول الشيخ محمد أنور شاه الكشمير فى كتابه: عقيدة الإسلام فى حياة عيسى عليه السلام ص ١٨٠ [تحذير بلغنى أن الملحد اللاهورى يقول : أن مسألة حياته عليه السلام أخذها المسلمون وتعلموها من النصارى ، وإلا فليس لها فى أصل الإسلام أصل ، وهذه كذبة يستنزل الرجل بها اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين ، فقد تواترت الأحاديث عن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بنزوله عليه السلام وانعقد الإجماع عليه من كافة الأمة المحمدية إجماعا بلا فصل . نعم القول بالنزول المثالى ، أعنى به ظهور مثيل له عليه السلام هو الذى ذهب إليه بعض نصارى أوربا فى الاعصار القريبة فراجع دائرة المعارف للبستانى من تاريخ الألفيين وسويدنبرغ ، بل هذا يوجد فى الرسائل باللسان الهندية التى تشيعها

---

(١) القاديانى القاديانية : أبو الحسن على الحسنى الندوى ط الثالثة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧م الدار السعودية للنشر جدة ص ٩ وهامشها .

كنائس النصارى (أوريجانوس ومرتنش) فأخذه منهم هؤلاء الملاحدة لا إنه انكشف على ذلك الشقى كما يذكره رئيه اللاهورى قاتلهم الله ، بل أول ما انكشف على كفار النصارى فى الأزمان القريبة فاسترق بعض الشياطين منهم السمع فأتبعه شهاب ثاقب (ويقول ان انكشاف حقيقة المسيح عليه دليل كونه مسيحا ، وأقول : وكذا قد انكشف عليه حقيقة الدجال على زعمه فليكن مسيحا دجالا) وبعضهم منهم الآن على أن المراد بنزوله ظهور العلوم الروحانية لاظهور شخص وكل ماقاله التابع والمتبوع فقد سرقاه من تفسير القرآن للسار أحمد خان وكان يريد التوفيق والصلح بين النصرانية والاسلام وأنكر المعجزات رأسا وأنكر كثيرا من المتواترات كوجود الملائكة ونعيم الجنات وأنكر الحديث والحد فى الآيات وحرف القرآن بما شاء ، فلو كان مثل هذا نبوة فالفضل للمتقدم وليتخذوه نبيا والعياذ بالله]

ولقد تأثر أصحاب تفسير المنار بالقاديانية وأحمد خان . أما القاديانية فقد بانت لك وأما أحمد خان فقد لمست ذلك بنفسك وبخاصة فى التحذير الأخير للشيخ محمد أنور شاه الكشميرى . وإذا أردت مزيدا فارجع إلى كتاب «زعماء الإصلاح» لأحمد أمين عند كتابته عن أحمد خان والشيخ محمد عبده .

الخاتمة

بعد كل دراستنا السابقة فى كتب التفسير فإننا نلاحظ أن المفسرين جميعا لم يحملوا معنى (متوفيك) إلا على معناها الحقيقى وهو أخذ الشىء وافيا . وأن من حملها منهم على المعنى المجازى حكم بالتقديم والتأخير ، وأنهم جميعا اتفقوا على أن قوله تعالى لسيدنا عيسى « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك » مرتبطة بقوله تعالى « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فحين أراد اليهود صلبه مكر الله بهم إذ أخبر سيدنا عيسى بحقيقة ما سيحدث له من الرفع والأخذ وافيا ف (إذ) بيان للوقت الذى أخبر الله فيه عيسى بما سيصنعه به تخليصا له من مكرهم، فهى ظرفية وهو الغالب فى استعمالها ، ومنه قوله تعالى «فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا » . وكاف الخطاب فى (رافعك) تدل أن المرفوع المخاطب بالصورة التى هو عليها أثناء الخطاب وإلا لكان الخطاب نوعا من العبث ، إذ كيف يخاطبه بالرفع بعد قوله (متوفيك) التى هى أخذ الشىء كاملا وافيا وهو لا يعنى إلا روحه ، ومن المعلوم أن رفع الروح يشاركه فيه غيره فلا يصلح أن يكون مزية يخصه القرآن بها إلا أن قالوا بعدم رفعه الأرواح كلها إلا روح عيسى وهو باطل لثبوته بالنص . وأجمعوا على أن (يقينا) فى قوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » الآية ، حال من الضمير فى (قتلوه) فهى مؤكدة .

وذهب بعضهم إلى أن (يقينا) تأكيد للرفع ، وقد اعترض عليه بأن هذا وإن كان جائزا من جهة المعنى إلا أنه غير جائز من جهة الصناعة فما بعد (بل) لا يعمل فيما قبلها إلا على شذوذ[1] . وهذه الآية لا مجال فيها المناقشة فإن (بل)

---

(١) أنظر تفسير الجمل .

قطعت كل طريق للعقل يلج فيه غير طريق الرفع وإلا لخرج عن الملة كذلك وآية آل عمران من قبلها

وإليك ما قاله صاحب المغنى فى (بل) :

[بل ، حرف اضراب ، فإن تلاها جملة كان معنى الاضراب أما الابطال نحو « وقالوا اتخذا الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون» أى بل هم عباد ، ونحو « أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق » ، وأما الانتقال من غرض إلى آخر ، ووهم ابن مالك إذ زعم فى شرح كافيته أنها لا تقع فى التنزيل إلا على هذا الوجه ، ومثاله (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا) ونحو (ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ، بل قلوبهم فى غمرة) وهى فى ذلك كله حرف ابتداء ، لا عاطفة ، على الصحيح ، ومن دخولها على الجملة قوله :

بل بلد ملء الفجاج قتمة لا يشترى كتانة وجهرمه

إذ التقدير بل رب بلد موصوف بهذا الوصف قطعته ، ووهم بعضهم فزعم أنها تستعمل جارة . وإن تلاها مفرد فهى عاطفة ثم ان تقدمها أمر أو إيجاب (كاضرب زيدا بل عمرا ! وقام زيد بل عمو) فهى تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه ؛ فلا يحكم عليه بشىء ، وإثبات الحكم لما بعدها ، وإن تقدمها نفى أو نهى فهى لتقرير ما قبلها على حالته ، وجعل ضده لما بعده ، نحو (ما قام زيد بل عمرو ، ولا يقم زيد بل عمرو) وأجاز المبرد وعبد الوارث أن تكون ناقلة معنى النفى والنهى إلى ما بعدها وعلى قولهما فيصح (ما زيد قائما بل قاعدا ، وبل قاعد) ويختلف المعنى ، ومنع الكوفيون أن يعطف بها بعد غير النفى وشبهه ، قال هشام : محال ضربت زيدا بل إياك ، ا . ﻫ . ومنعهم ذلك مع سعة روايتهم

دليل على قلته[1] فعلى أى حال اعتبرت بل يمكنك أن تقول بشىء غير الرفع . وأما تحديد جهة الرفع إلى السماء فهذا التحديد ضرورة علمية إذ أن من عنده أقل القليل من علم الفلك أو من درس مبادىء علم الجغرافيا يعلم أن كل هذه الكواكب تدور فى مدار أفقى حول نفسها وحول غيرها من الكواكب يعرف ذلك الطفل من دراسته لظاهرتى الكسوف والخسوف فلا يوجد أعلى ينطبق عليه اسم الرفع إلا السماء ، ولذلك كان التعبير القرآنى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) لأن الكواكب كلها تسير فى مدار أفقى تحت السماء فهى زينتها كشكل زينة تحت السقف (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) .

ورأيت إجماع المفسرين على تفسير قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) بالأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لأن هذه الأحاديث بيان للمجمل القطعى وهو القرآن .

وهذا المجمل واقع فى ضمير الهاء من كلمة (موته) فإن المجمل تردد الضمير فى عوده على مختلف ثم يأتى البيان فيحدد أى المختلفين يعود عليه الضمير[2] . ويصبح لا جدال فيه . وهذا هو الشأن فى الهاء فإنها قد عادت إلى مختلف ، فكما رأيت يمكن عودها على الكتابى ويمكن عودها على سيدنا عيسى ويمكن — على ضعف — عودها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكل هذا جائز لغوياً ولكن بعد أن أتى البيان المحمدى بنزول سيدنا عيسى تكون السنة قد بينت المجمل القطعى وأظهرت فى تحديد دقيق جهة عود الضمير . وهنا يجب أن ننتبه إلى أمرين :

---

(١) مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام ص ١١٢ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

(٢) أنظر فى هذا الموضوع : غاية الوصول شرح لب الاصول الشيخ زكريا الانصارى طبع عيسى الحلبى ص ٨٥

الأول : أن الآية قطعية فهى قرآن وأن السنة مهما بلغ تواترها لا تلحق فى قطعيتها قطعية القرآن .

الثانى : أن السنة بينت المجمل القطعى فقط واستفادت منه ببيانها له القطعية فأصبحت الأحاديث قاطعة فى النزول لبيانها القطعى وهو قوله تعالى : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وأصبح القطعى بها مبينا ما فيه من إجمال فلا يلتبس عليك أيها القارىء الكريم قطعية القرآن ببيان السنة له فالسنة بيان القرآن لأن القرآن حكم بهذا « ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتذكرون » .

فذكر المفسرين لهذه الأحاديث تحديد المعنى الشرعى المطلوب بعد ذكر أوجه العود المحتملة للضمير .

وأحب أيضا أن أنبهك أيها القارىء الكريم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يجلس بين أصحابه ليفسر لهم القرآن ويقول لهم معنى قوله تعالى كذا كذا وإنما كان يذكر ما يتعلق بدينهم ويتحدث عنه فإذا عرضوه على القرآن وجدوه فيه وهم يعلمون يقينا أن المبين للقرآن هو الرسول صلى الله عليه وسلم . فما ذكر من حادثة ورد فى القرآن ذكرها أو ذكر متعلق بها إلا كان قوله بيانا لها، ولذلك لما سمع سيدنا أبو هريرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا » رواه البخارى ومسلم . وقد تقدم لك ذكره فى تفسير ابن كثير والخازن .

فأنت ترى أن سيدنا أبا هريرة لما سمع قول الرسول ارتبط قوله صلى الله

عليه وسلم فى عقل سيدنا أبى هريرة بالآية ، وما ذاك إلا لكونه أدرك الصلة بين القرآن والنبى ، بين المجمل والبيان ، بين الذكر والتبيين . وهذا على القول بأن هذه الزيادة من سيدنا أبى هريرة وهى زيادة مقبولة لأنها زيادة الثقة بل هى زيادة صحابى ، فلا يملك معها المسلم إلا القبول والتسليم لها والتعلم منها ، فهى لصحابى بل لإمام أهل الصفة .

وذهب فريق آخر من المحدثين إلى أنها جزء من الحديث ، وبهذا يكون ردها نوعا من إنكار السنة النبوية والإجماع القائم بين أهل العقيدة على اختلاف فرقها ومناهجها ونسوا أبسط المناهج العلمية للبحث الدينى وهو أن المخالفة لا تجوز إذا كان الاجماع قد نص عند انعقاده على أمر على بطلان خلافه والمسألة التى ذهب اليها المخالف وهى إنكار رفع عيسى ونزوله قد نص الاجماع عند انعقاده على الرفع والنزول على بطلانها وبيان أن لا معارضة بينها وبين غيرها مما ورد فى الأحاديث بل بعضها يقوى بعضا ويدعمه . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نبى بعدى » وقوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » إلى غير ذلك مما هو مبين فى كتب العقائد والحديث والتفسير .

واستمر الأمر على هذا الفهم فى التفسير حتى ظهرت مدرسة المنار وأخذت فى طياتها بعض من أعجبهم المخالفة باسم التجديد حتى ولو كان هذا التجديد مخالفا للكتاب والسنة والعقيدة المبنية عليها . وحقا قال اللقانى :

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

وقد رأيت الذين خلفوا وخالفوا من أين أخذوا وبمن ارتبطوا . لقد ارتبطوا بالقاديانية التى كفرت وادعى صاحبها أنه المسيح ثم النبوة وساروا وراء تأويلاتهم وقد عرفت عند مناقشة تفسير المنار الحقيقة العلمية لتأويلهم ، وإن كان

لنا أن نضيف شيئا هنا فإنما هو قرار رابطة العالم الإسلامي الخاص بالقاديانية حتى تعرف رأى الإسلام فيهم وحتى لا تغتر بهم أيها القارىء الكريم .

« قرار رابطة العالم الإسلامى »

فى ربيع الأول ١٣٩٤ هـ الموافق ابريل ١٩٧٤ م انعقد مؤتمر كبير فى مكة المكرمة المركز الإسلامى والبلد الطيب للجمعيات الإسلامية فى جميع العالم الإسلامى ، وحضره مندوبوا ١٤٤ جمعية اسلامية من بلاد اسلامية بل من بلاد العالم ومثل هذا المؤتمر المسلمين من المغرب إلى أندونيسيا والقرار الذى اتخذوه فى هذا المؤتمر وأجمعوا عليه يعتبر اجماع الأمة الجديد على تكفير القاديانيين ، وهذا نص القرار :

القاديانية نحلة هدامة تتخذ من اسم الإسلام شعارا لستر أغراضها الخبيثة ، وأبرز مخالفتها للاسلام ادعاء زعيمها النبوة ، وتحريف النصوص القرآنية ، وإبطالهم للجهاد ، القاديانية ربيبة الاستعمار البريطانى ، ولا تظهر إلا فى ظل حمايته . تخون القاديانية قضايا الأمة الإسلامية ، وتقف موالية للاستعمار والصهيونية ، تتعاون مع القوى المناهضة للإسلام ، وتتخذ هذه القوى واجهة لتحطيم العقيدة الاسلامية وتحريفها ، وذلك بما يأتى :

(ا) إنشاء معابد تمولها القوى المعادية ، ويتم فيها التضليل بالكفر القاديانى المنحرف .

(ب) فتح مدارس ومعاهد وملاجىء للأيتام ، وفيها جميعا تمارس القاديانية نشاطها التخريبى لحساب القوى المعادية للاسلام وتقوم القاديانية بنشر ترجمات محرفة لمعانى القرآن الكريم) بمختلف اللغات العالمية .

ولمقاومة خطرها قرر المؤتمر :

١ — تقوم كل هيئة اسلامية بحصر النشاط القادياني فى معابدهم ومدارسهم وملاجئهم، وكل الأمكنة التى يمارسون فيها نشاطهم الهدام فى منطقتها، وكشف القاديانيين والتعريف بهم للعالم الاسلامى تفاديا للوقوع فى حبائلهم .

٢ — إعلان كفر هذه الطائفة وخروجها على الاسلام .

٣ — عدم التعامل مع القاديانيين والأحمديين ومقاطعتهم اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، وعدم التزوج منهم ، وعدم دفنهم فى مقابر المسلمين ، ومعاملتهم باعتبارهم كفارا .

٤ — مطالبة الحكومات الاسلامية بمنع كل نشاط لأتباع مرزا غلام أحمد مدعى النبوة ، واعتبارهم أقلية غير مسلمة، ويمنعون من تولى الوظائف الحساسة للدولة .

٥ — نشر مصورات لكل التحريفات القاديانية فى (القرآن الكريم) مع حصر الترجمات القاديانية لمعانى (القرآن) والتنبيه عليها ، ومنع تداول هذه الترجمات[1] .

وبعد فقد وضح لك الأمر وعرفت ما فى كتب التفسير وبان لك الأمر فاحرص على عقيدتك وحافظ عليها .

وإلى هنا انتهى الجزء الخاص بالتفسير ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخاص بالسنة وبقية الموضوعات التى وعدتك بها فى المقدمة ، والله ولى التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) موقف الأمة الاسلامية من القاديانيه مطبوعات مجمع البحوث الاسلاميه ١٣٩٦هـ ١٩٧٦ م ص ٦٩

فهـــرست

الصفحة	الموضوع
١٤٠	الزخرف ٦١
١٤٢	تعقيب
١٤٣	تفسير القرآن العظيم إسماعيل بن كثير القرشي
١٤٣	آيات الرفع ـ آل عمران ٥٤ ، ٥٥
١٤٥	النساء ١٥٧ ، ١٥٨
١٥١	المائدة ١١٧
١٥٢	آيتا النزول ـ النساء ١٥٩
١٥٦	الزخرف ٦١
١٥٨	ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .
١٧٢	صفة عيسى عليه السلام
١٧٤	تعقيب
١٧٥	تنوير المقياس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي .
١٧٥	آيات الرفع ـ آل عمران ٥٤ ، ٥٥
١٧٥	النساء ١٥٧ ، ١٥٨
١٧٦	المائدة ١١٧
١٧٧	آيتا النزول ـ النساء ١٥٩
١٧٧	الزخرف ٦١
١٧٧	تعقيب
١٧٨	تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري
١٧٨	آيات الرفع ـ آل عمران ٥٤ ، ٥٥
١٨٣	النساء ١٥٧ ، ١٥٨
١٨٣	المائدة ١١٧
١٨٦	آيتا النزول ـ النساء ١٥٩

رقم الإيداع ٥٠٥١ / ١٩٨٢